

أمير تاج السر

توتّرات القبطي

رواية

توتّرات القبطي

The Coptic Tensions

Novel

رواية

أميـر تـاج الســر





الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9948-446-03-3

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.

أبوظبي هاتف: 6345404 (2-971+) فاكس: 6345407 (2-971+)
دبي هاتف: 2651623 (4-971+) فاكس: 2653661 (4-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)

لتنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إلى محمد سليمان وهاشم الجحدلي

هذا النص رواية وليس تاريخاً.. لذا لزم التنويه.

الحياة لعوبه

والهوى أكـذوبه

والذي في قلبـي

ضحكة مثقوبه

(من أغنية الضائعات)

الفصل الأول

وصف أوّل للجمر

- تعال يا سعد.. تعال يا مبروك.

ناداني الأمير عبَّادي طلسم، قائد كتيبة الجهاديين التي عيّنت فيها طباخاً منذ عشرين يوماً فقط، إلى خيمته التي كانت تبعد قليلاً عن خيام الجند المبعثرة في أحد أطراف مدينة (السور) الواقعة في غرب البلاد، والتي كانت في يوم من الأيام مدينتي التي ولدت فيها، عشت فيها سنوات الخصب كلها، وفقدتها.

كان يتصنع محبتي من دون أن أفهم لذلك سبباً، وأتصنع محبته، خوفاً من تقلبات وجهه الرهيبة، ونار عينيه الحارقة، وسوطه المصنوع من جلد ثور معمر، والذي شاهدته بعينيَّ في أحد الأيام، يخرج من ظهر جندي متمرد من جنود الكتيبة، وفي حوافه لحم أحمر. هو الذي انتقاني بنفسه من زمرة أذلاء المدينة كلها، حين سقطت بعد ثلاثة أشهر من الحصار المر، وعرض سكانها من اليهود والنصارى وهنود البنيان، وكل من صنف عاصياً، أو ذيلاً للكفر والإلحاد، في وسط السوق الكبير، ليركلهم أو يشتمهم أو يمتطي لحم نسائهم السبايا من أراد. هو الذي أشرف على ختاني الصعب الذي مت فيه وحييت، على يد واحد من مجندي الكتيبة غير المؤهلين لإجراء الختان، درَّبني على شعائر الدين الجديد، وترديد الهتافات والتهليل، واستخدام السيف والحربة والدرع وحتى بنادق الإفرنج، حين يأتي وقت استخدامها. سمَّاني سعد المبروك من دون علمي أو رضائي، ملغياً اسم (ميخائيل) الذي عمِّدت به في

الطفولة على يد القس المصري (طوني العفريت) راعي شؤون النصارى في المدينة، كبرت وتعلمت وتوظفت به، وكنت على وشك أن أمنحه باطمئـــنان، لأبنائي القادمين من صلبــــي، ورماني مع ستة آخرين من منهوكي القوى، وفتات القبائل، في خيمة الطبخ الملحقة بخيام الكتيبة، نقــــوم ونقع ونتبعثر ليل نهار، لنعد وجبات الطعام لأكثر من خمسمائة فرد مسعور، كانوا هم جنود كتيبة (صقور)، أهم الكتائب العشر التي كونها الجهاديون، ويتولى الأمير (طلسم) قيادتها.

لم تكـــن من عادة القائد أن يمر على خيمتنا حين يتفقد بقية الخـــيام ليتأكد من ثبات جنوده وبقائهم على عهد الجهاد وتمسكهم بريح الجنة، باعتبارها خيمة ثانوية، ولم يكن صوته العميق يستخدم أبـــداً في مــــناداة طباخ هزيل أو جندي مغمور من جنوده، وكنت الوحـــيد الـــذي سمـــح له بمعرفة وقت جوعه، وعدد ملاعق الثريد وأقراص الذرة والقمح، التي يجب أن توصل ذلك الجوع إلى الشبع. وبالرغم من أنني كنت محاسباً مرموقاً في مجلس المدينة قبل سقوطها المريـــر، ومــــسئولاً مباشـــراً عن ثروات الحكومة، ووجوه جمعها وإنفاقها، ولا دراية لي بالطبخ أبداً، إلا أنني استسلمت لذلك القدر القاحل المخيف، تأقلمت معه بشدة، ووجدت نفسي بعد عدة أيام مـــن خلـــط الملح بالسكر، وإضافة الشعير إلى أقراص الذرة التي لا يضاف إليها الشعير عادة، وصناعة ثريد بطعم الطين، طباخاً حقيقياً، يمكـــن أن يعـــد وجبات الحرب بكل بذاءاتها ووعورتها، وركاكة طعمها، من دون أية رهبة أو خوف.

تـــركت أقراص القمح والذرة تتعارك مع النار، مرق الثريد يغلي ويتبخـــر، ودهشات كبيرة في عيون زملائي الطباخين من ذلك النداء المباغت وغير المألوف، وأسرعت خلفه.

كانت خطواته كبيرة وممتدة، ذيل عمامته يلحس الرمال ويصقها أمامي، ثوبه الأخضر يبدو باهتاً وفيه رقع كثيرة، وكان الجنود مبعثرين في وسط الخيام، يصقلون سيوفهم وحرابهم على صخور مدببة، جلبت من الجبال البعيدة، وزرعت في وسط الرمال، يتأكدون من صلابة دروعهم المصنوعة من الخشب والنحاس والحديد، بضربها بعضها ببعض، أو يعلّمون قلوبهم الثبات بعراك أنفسهم بالأيدي والأرجل ونطح الرؤوس، وهم يتصايحون، ويرددون أغنيات الحماس الفجة. وفي طرف بعيد من المعسكر، كانت الإبل والجياد والحمير، وقطعان الخراف والماعز، ترعى في بقايا حشيش خريفي، ثمة مدفعان رابضان على دكة عالية، وعدة براميل من البارود وسيوف وحراب مكسرة، وبنادق، لا بد كانت من غنائم المدينة التي حوصرت وسقطت. والمدينة نفسها كانت تبدو كحلم بعيد، بالرغم من وجود معسكرنا في أحد أطرافها.

كنا في حالة حرب بلا شك، حرب لم أخترها أنا، ولا سكان مدينة (السور) الوادعة بأعراقها المختلفة، وسائر المدن والقرى الأخرى، لكنّها اختارتنا، لم نخترع نيرانها، لكنّها اخترعت تشردنا، ومنذ أن اندلعت ثورة الهدى كما كانوا يسمونها، ضد حكام البلاد من الإنجليز ومن والاهم من الأتراك والمصريين، وحاصرتنا بالخوف والهلع، ثم انقضت على المدينة بعد أن جاعت وتعبت، وخارت قواها، ونحن في حالة حرب. لا حكم راسخ حتى الآن، يرتب الجوع والشبع، ويلم تلك الفوضى، ولا مصير بأي لون أو طعم تحس أنه مصيرك. كان الجهاديون عراة وحفاة حين حاصرونا، حين التهمونا، جاءوا من قرية (أباخيت)، إحدى القرى المنسية على النيل، حيث ظهر من سمي بالإمام (المتّقي) مبشراً أتباعه بعهد جديد بلا ظلم، وبلاد جديدة بلا كفر أو طغيان، وثوابين، ثواب في الدنيا، والآخرة، وجروا في زحفهم عشرات

القـــبائل حين دكوا قراها، وبعثروا زراعتها ورعيها، وأطعموها الموت، أو الهدير الذي سيدك الكفر عاجلاً أم آجلاً، ومهما كان قوياً وباطشاً.

دخلـــت إلى الخــــيمة خلف القائد الكبير، وفي قلبـــي توجس لم أســـتطع قهره، كانت كبيرة بعض الشيء ومرتبة، ثمة بروش من سعف الدوم مفروشة على الأرض، عدة وسائد من الريش فيها ثقوب ظاهرة، إبريقان من الفخار ممتلئان بالماء، عدة سيوف ودروع وحراب وأثواب مـــرقّعة، وموقد من مواقد الجاز يستخدم في إنارة الليل. جلس القائد علـــى أحـــد البروش، انتزع عمامته من رأسه ووضعها بجانبه، وبانت تفاصـــيل رأسه الذي كان كبيراً جداً، وبلا شعر، وحين التفت إليّ في وقفتي المرتبكة، كانت عيناه جمرتين، لكنّهما شبه منطفئتين.. سألني:

- هل تعلمت التكبير جيداً يا سعد؟

- نعم يا سيدي.

- والوضوء؟

- كمـــا علّمـــتني ســـيدي.. غـــسل الـــيدين حتى المرفقين... الاستنشاق.. الاستنثار.. المضمضة..

- جيد.. جيد.. كم سورة من القرآن حفظت حتى الآن؟

- ست سور يا سيدي.

- قليل.. قليل جداً..

زمجر القائد بصوته الذي كان كأنه يخرج من كل بقعة في جسده العـــريض، صوت القيادة التي لا أدري كيف اكتسبها، صوت الحرب غريبة الأطوار التي خاضها ويخوضها، وصوت قبيلة (الفولاني) المنتشرة في قـــرى كـــثيرة حول المدينة، والتي كان ينحدر منها بجدارة وتعرف بأجـــسادها العريضة وأصواتها المجلجلة، جاس بعينيه الجمرتين برهة في الخـــيمة الواســـعة، كأنه يبحث عن شيء، وخمنت أنه السوط الذي

ينغرس في اللحم، وينتزعه من عرقه.. لكن السوط لم يكن موجوداً، أو لم يكـــن واضحاً أمام ناظري في تلك اللحظة، وبرغم ذلك أحسست بالتوتـــر، بيس ريقي، وتسارع قلبـــي، وحامض مر تجمع في صدري. كانـــت عشرون يوماً فقط تلك التي قضيتها في صحبة الكتيبة والدين الجديد الذي اعتنقته، و لم تكن كافية أبداً لتعلم كل شيء ولا حتى ليبرأ جرح الختان الذي ما زال يوجع كلما لامسته. حاولت أن أقول ذلك للقائد، فلم أستطع، حاولت أن أسترجع تلك السور التي حفظتها، حتى إذا مـــا ســـألني أعدت قراءتها أمامه، لكني لم أعثر عليها، بركت على ركـــبتيّ في مواجهـــته وأنا أرتعش، لكنّه أنهضني بنظرة صارمة من جمر عينيه، كان صوته الآن، أقرب إلى الوهن حين خاطبني:

- هل ما زلت تهوى (خميلة)، ابنة الهالك منون؟

كـــان ســـؤالاً مربكاً للغاية، لم أكن أتوقع صدوره أبداً من قائد جهـــادي مرقّع كعبّادي طلسم، فحبـــي لخميلة ابنة تاجر الذرة الغني (مـــنون جماري)، ورغبتي في الزواج منها، كان أمراً راسخاً في مجتمع أقـــباط المديـــنة، قبل الحصار والسقوط، ولدي بعض معارفي القليلين، وزملائـــي من غير الأقباط في المجلس حيث أعمل، أو جيراني في الحي الذي أقيم فيه، التقيتها منذ أكثر من عام في عرس قبطي مزخرف أقيم علـــى مـــسرح نـــادي (يوتوبيا) الذي كان ملتقى لأبناء مجتمع المدينة الراقي، وكانت قد عادت من مصر لتوها، بعد أن درست علم الجمال هناك وأرادت أن تزهو به في مدينة لا تعرف عن ذلك العلم شيئاً. كان في عينـــيها نـــداء شدني، وفي عينيَّ نداء شدها، وتحابنا قبل أن يتبخر اللـــيل، وينتهي العرس القبطي المزخرف. أهلها رحبوا بموظف أعزب ومتأنق، يدير ثروات الحكومة ويمكن أن يدير ثروتها الكبيرة فيما بعد، وأهلـــي رحبوا بفتاة كان والدها من كبار تجار الشبع وعلى صلة قوية

لـــيس بحكام المدن من المصريين والأتراك، حاملي لقب (البك) فقط، ولكـــن حتى بالإنجليزي حاكم البلاد العام وكثير من الوجهاء في مصر والدول المجاورة. أقمنا طقس الخطوبة على ذات مسرح (يوتوبيا) الذي شـــهد تلاقينا وحبنا وزخرفة أيامنا القادمة، ألبستها دبلة الحب الذهبية، وألبـــستني، ولم نحدد موعداً لقراننا بعد، ولا أظننا سنحدده أبداً، لأن أهلـــي ضاعوا في لجة الحرب، ولا أعرف مصيرهم حتى الآن، صهري المـــستقبلي منون جماري قتل في غزوة جهادية على مخازنه التي أنشأها أثناء الحصار، كانت تستهدف الذرة أكثر من استهدافها للكفر، وحميلة ذات العينين الدافئتين المشعتين، رأيتها في سوق المدينة تبكي، وشهوات رهيبة تحيط بجسدها الصغير، ناديتها.. يا حميلة.. يا حميلة.. فلم تلتفت، لكنَّها ألقت بخاتم الذهب الذي أهديته إياها في عيد ميلادها العشرين، والتقطـــته خفـــية، اختفيت في زمرة من انتقاهم القائد طلسم، لأظل اســـترجع وجهها وبكاءها وأتحسس خاتمها في جيبـــي لعدة أيام بعد ذلـــك قبل أن أنسى وأدفن الخاتم في حفرة عميقة، بجوار إحدى الخيام الممزقة لمعسكر الكتيبة. لم أكن في رونق أو ثياب عاشق لأظل عاشقاً، ولم تكن في هيام معشوقة، لأعض على عشقها.

حـــين آوتـــني خـــيمة الطبخ بعد ذلك برفقة خمسة آخرين من المهمشين، وفتات القبائل الذين جمِّعوا من الفوضى، عثرت على المراهق (حـــسون) الـــذي كان اسمه (توما) قبل الحصار والسقوط، أحد أفراد عائلة قبطية صغيرة فقدها في اللجة أيضاً، ولا يعرف مصيرها، وألحقوه بسرية الطبخ معنا، لطهو الحساء وإيقاد النار والمساعدة في قهر الخراف ســـاعة ذبحها، صارحني (توما) الذي لم أكن وثيق الصلة به في السابق، ولم أره إلا نادراً بصحبة أبيه، حارس نادي (يوتوبيا)، بأنه كان عاشقاً لحميلة أيضاً، لكن بطريقة أخرى، هي طريقة المراهقين التي تتسم برداءة

الخيال، وتعرية المتسترات من ثيابهن في ليالي الهياج الغرائزي، وإنه طالما رسم قوامها على أوراقه المدرسية، وقضى معها أياماً وليال متوهمة، وأحس مراراً بمقتي وكراهيتي الشديدة، بعد أن أحببتها، وتقدمت لزواجها. بكينا أنا وتوما قليلاً قبل أن نصفح عن بعضنا البعض، ونتعاهد سوياً ألا نحب جميلة أو غيرها بعد اليوم، لا حباً مراهقاً، ولا حباً يسعى إلى رباط مقدس. وكان حلاً عادلاً لطباخين هزيلين، يطبخان بوهن لحرب لا يعرف أحد تماماً، لماذا اشتعلت، وكيف ومتى ستنطفئ. لكن برغم ذلك العهد ظلّت أشباح ذكرى تتراءى لي بين حين وآخر، وأكاد أجزم أن توما أيضاً كانت له أشباح ذكراه الخاصة التي تستعر بين حين وآخر.

لم أكن أعرف إن كنت صادقاً أم لا، حين رفعت عينيَّ الذابلتين إلى وجه القائد وتمتمت:

- لا يا سيدي.. لقد نسيتها.

لم يبد لي أن القائد كان راضياً عن إيضاحي، ولا شاهدت رأسه يهتز مؤمناً على ردي، أو فمه يهديني ابتسامة تبعثر القلق بداخلي.

كان (عبَّادي طلسم)، قائد كتيبة صقور الجهادية، حمّالاً في سوق (أبي جهل) الشعبي في المدينة قبل اندلاع الثورة بزمن طويل، واحداً من الهامشيين لا أزعم إنني صادقته في تلك الأيام، أو عرفته معرفة وثيقة، لكن قطعاً التقيته مراراً في مدينة يلتقي فيها الناس بلا عناء، أو كلّفته بواحدة من تلك المهام التي كان ظهره القوي ينجزها بجدارة، ولا بد أن (جماري)، صهري الذي ضاع في الغزوة الجهادية، كان يعرفه أكثر مني حيث ترتبط تجارته ارتباطاً وثيقاً بتلك المهن، وحين بعثرنا وأعيد ترتيب بقايانا في ذلك القطيع البشري المرتجف في وسط السوق الكبير، وجاء قادة الثورة وأمراؤها، لتفحصنا وتقييمنا،

ولّمنا كغنائم، لكزني اليهودي (عوزي إيزاك) الذي كان واحداً من صياغ الذهب ذائعي الصيت في المدينة، وكان يقف بجانبي مبعثر الوجه والملامح، يبكي نفسه، وزوجته (أم إيليا) التي انتحرت بالسم قبل قيام الثورة بزمن طويل، لكزني وهو يشير إلى الرجل الطويل العريض الذي ترجل عن حصانه الأسود، وحوله عدد من حاملي السيوف والحراب، شقّوا له طريقاً سلساً، إلى حيث قطيعنا المرتجف، وهم يصرخون..

يسقط الشرك.. يسقط الإلحاد:

- انظر يا ميخائيل بك.. إنه الحمّال عبَّادي طلسم الذي اختفى من سوق أبي جهل منذ عام، ويبدو أنه عاد واحداً من أمراء الجهاد.

لم يكن الخبر جديداً علي أبداً، فقد سمعته قبل عدة أشهر من سقوط المدينة، في مقهى (خزي العين) الشهير، ومن صاحبته الملكة التافهة الحبيبة (نديمة مشغول)، ضمن عدد من الأخبار غير المألوفة، لذلك لم أكن مستغرباً أبداً حين التقت عيناي بعينيه الجمرتين، وحين استخدم هو عينيه في تفحصي لأكثر من عشر دقائق، كأنه يستدعي أو يطرد مواقفاً جمعتنا معاً، وحين أمر بضمي إلى كتيبته عاملاً في وحدة الطبخ، وهو يعرف قدري ومكانتي التي يعرفها الجميع، ولعله أمر أيضاً بضم (حميلة) إلى حياته الخاصة كغنيمة فارهة، لكنني لم أكن واثقاً.

- حدثني عن حميلة.. حدثني يا مبروك.

كان صوته بلا شك، وكانت رعدة كبيرة جاهدت حتى أخرجها مجرد ارتعاش في اليدين. كان القائد الحمّال يريد مني ماضياً مدفوناً في القلب وإلى جوار خيمة ممزقة في الصحراء، ولن أعرف أبداً كيف استخرجه، لماذا حميلة، ولماذا الحديث عنها؟، ولماذا يربكني قائد جهادي بدا الآن لي هو أيضاً مرتبكاً حين ابتعد بعينيه، بعثرهما في كل شيء

آخـــر داخل الخيمة، ما عدا وجهي وعيني. حميلة القديمة، دارسة علم الجمـــال، وزارعة الحب في مسرح يوتوبيا في ذلك المساء المزركش، لن يعثر بداخلي حتى على عطرها أو بقايا طيفها، وحميلة الجديدة التي ربما تـــرقد الآن تحت إمرته في واحد من بيوت السبايا داخل مدينة السور، يـــستطيع الحـــصول عليها متى أراد، من دون أسئلة أو أجوبة أو إرباك لطـــباخ هزيل. لماذا يسأل؟، ولماذا عليّ أن أجيب؟. تلك الساعة تمنيت لـــو كـــنت أنا الحرب، حتى أستعر في تلك الخيمة، لو كنت البارود، لأنفجر مدوياً، ولو كنت سيفاً حاد النصل في يد فارس مغوار، لأنغرس في ذلك الصدر العريض.

بقـــيت حائراً أتلفت، وبقيت عيناه تتبعثران على كل شيء، ولا تحطان على شيء.

انـــبعث آذان الظهر فجأة من الساحة الكبيرة التي تتوسط الخيام، حي على الصلاة.. حي على الفلاح.. الله أكبر.. الله أكبر، ومن بعده صوت قوي يصرخ:

الصلاة يا مجاهدين.. الصلاة يا أهل الجنة..

فاستعاد القائد وجهه وعينيه، وصوته العميق.. ردد:

- سأستدعيك فيما بعد يا سعد.. اذهب لتتوضأ.

خـــرجت مـــن الخيمة، وفي فقرات عنقي ألم مباغت، في القلب ذكـــرى عاودت الظهور بشدة، ولدرجة فكرت فيها أن استعيد الخاتم المدفـــون من حفرته العميقة، أسميه حميلة جماري، احتضنه بقوة ونبكي معـــاً. كـــان الجنود قد تركوا انشغالهم بطيف الحرب، رصوا سيوفهم وحـــرابهم ودروعهم على أرض ملساء، وتجمعوا للصلاة، توما يغسل يديه من دم خروف مصروع أمام خيمة الطبخ، وينهض متورم العينين. اقتـــرب مني (التقلاوي ديدام) الذي كان من قبيلة النوبة المستوطنة في

منطقة جرداء، جنوب (السور)، وعمل تحت إمرتي فرّاشاً في مجلس المدينة لأكثر من عشر سنوات، واختفى بعد ليلة مهووسة مشتعلة، كنت موجوداً فيها وشاهدتها حتى انطفأت، لأشاهده في يوم السقوط، وسط المدير رافعاً حربته السنينة في وجهي، ثم بعد السقوط هنا في المعسكر، مساعداً شخصياً لقائد الجهاد، ومستشاراً خاصاً في أمور عدة. كان مزهوًّاً بثوبه الأخضر المرقّع، ومشيته الجديدة ذات الخطوات المنغّمة، وذلك السيف الفضي المدلى من خصره الأيمن، وكنت دائماً ما أتحاشى لقاءه الذي يأتيني بموقعي القديم وموقعه الجديد، ويزيد من ارتباكي وتوعكي، لكن لا مناص من اللقاء في تلك المساحة الجلفة، وفي جوف ذلك المصير الموحش، وبمساعد القائد الذي يملك صلاحية الولوج حتى للأحلام.

كان مبتسماً عن أسنان تحتضن غصناً أخضر من سواك (الأراك)، تنز من ثيابه رائحة المسك، وهمس في أذني مستهزئاً:

- لم يكن عشاء الأمس جيداً يا ميخائيل بك.. اللحم نيئ والثريد بلا بهارات. اجتهد.. اجتهد أكثر.

طأطأت رأسي ومضيت، ورفع رأسه ومضى.

أديت صلاة الظهر في خشوع جاهدت أن أجعله خشوعاً حقيقياً، كنت قد بدأت أفتتن بالدين الجديد بالرغم من أنني تلقيته من أناس بدا لي أنهم لا يفهمونه كما فهمته، ثمة عدل وتسامح، وتعاليم شديدة الرقي لم أكن أعرفها من قبل، أو لم أكن مستعداً لمعرفتها برغم مخالطتي للكثيرين من حامليها، أمّنا الشيخ (مفتاح الفلاح) الذي كان إماماً لجامع (السور) الكبير، وأقاله التركي (يوسف دامير)، حاكم المدينة الراحل، حين لم يعجبه أداؤه في خطبة الجمعة التي ألقاها أيام إرهاصات الحرب، وأفاجأ بوجوده هنا وسط فوضويين، أعادوه إماماً

محدد الصلاحيات، كما كان دائماً. كان عن يميني معمم يمني اسمه (العلوي جبّار القرنين) لا أدري من أين اقتنصه الجهاديون، أو كيف اقتنصهم، فلم أشاهده من قبل في المدينة التي لا ينقطع سيل الغرباء عنها، حيث يأتون للسياحة أو بحثاً عن الربح، أو بلا أي هدف محدد. كان صانعاً للدروع، ومروِّضاً لخيل الحرب ذات الصهيل القوي، ونافخاً لآلة عصية على النفخ اسمها (الكارور)، نحتت من جذوع أشجار السنط اليابسة، وتستخدم في لم الجنود من تشتتهم، حين لا بد أن يلتموا، وزار خيمتنا في مرات عديدة ليصنع وجبة (المقلوبة) اليمانية التي لم نكن نعرفها من قبل، وكان يبهّرها ببهار حار تدمع بملامسته العيون، يخرجه من جيبه. عن يساري إعرابي من قبيلة (آل بطّاح) البدوية، التي تترحل في مناطق واسعة حول مدينة (السور)، اسمه (ودعة)، ويلقبونه بودعة المصَّاص، لم يكن جندياً ولا طباخاً ولا مهللاً أو مكبراً، ولكن معالجاً متخصصاً في تدليك تشنجات العضلات، وتحضير لبخات الجروح والحمى، ومص سم العقارب والثعابين التي تتكاثف في تلك الأصقاع، وتعيق شراسة الحروب في أحيان كثيرة، حين تفترس الدماء المحاربة.

وضع المصَّاص يداً شديدة النحافة على كتفي حين انتهت الصلاة.. خاطبني بصوت لا يبدو خشناً، ولا يبدو ناعماً:

– الحرب التي نموت في الاستعداد لها يا سعد المبروك، مجرد كلام حتى الآن، وتلك الجيوش الكبيرة التي قد ترسلها الحكومة لقتالنا لن تصل قبل بضعة أشهر أو حتى عام كامل.. دعنا نستمتع.. دعنا يا صانع الثريد..

ثم ضحك، وكانت أسنانه زرقاء لا أدري بفعل تلك السموم التي تخصص في مصها، أم بفعل مصائب أخرى لا أعرف عنها شيئاً.

لم يكن في الحقيقة ما يمتع في وسط ذلك البؤس والقحط، وغياب المصير، ولو وقعت الحرب بالفعل، ربما كانت ثمة إثارة أو تحديد لذلك المــصير، كأن نموت أو نحيا عرايا، أو نعود إلى المدينة لنرتق جروحها، ونـــدفن موتانا، لكن قطعاً كانت للمصاص وكثيرين غيره من أعضاء الكتيـــبة، متع سرية من تلك التي نسمع عنها وسط ذلك الخراب، ولا أحد يؤكد أو ينفي. نسمع عن جنود جهاديين يلعبون الورق في تخف، عن جنود جهاديين، يقرأون البخت في تخف أيضاً، مستخدمين الحصى والـــرمل وســـيقان النباتات، وعن هجرات مسروقة في ستار الليل إلى المدينة، حيث السبايا الصاغرات في بيوت عدة، وحيث عدد من نساء الهـــوى القديمات من حي (ونسة) الذي دمر، ما زلن يلعبن في الخفاء بـــرغم كـــل السيوف والحراب.. وغزوات المجندين التي تنبش حتى في حليب الأثداء بحثاً عن لذة اقترفت..

قلت للمصاص:

- أنا مستمتع بالطبخ.. يا أخي.

خبط على كتفي بيد النحول تلك، خاطبني بالصوت الذي لا هو ناعم ولا خشن:

- أنت مخصي بلا شك.. ليس في حرفة النساء ما يمتع.. ها.. ها.

تابعـــته بعـــينيّ وهو يمضي إلى خيمته متبختراً، مشيته ليست عسكرية تماماً، ظهره مقوس إلى الأمام قليلاً، وثوبه أبيض خالياً من رقـــع الـــزهد الـــتي اختطها القادة وأمراء الجهاد شعاراً لأثوابهم، وحـــرَّموها على الجند حتى لو تفانوا زهداً.. كانت في السماء بقايا ســـحب كـــادت أن تمطر و لم تفعل، في الجو رائحة نعناع لم يكن مـــزروعاً في المعـــسكر، ولا حتى قريباً منه وكان توما المراهق أمام خـــيمة الطـــبخ وقد عاد إلى خروفه المصروع يسلخ جلده. دخلت

الخـــيمة وقـــد زال شيء من المغص، لكن المرارة ما تزال كاملة في القلب، لا تبرحه.

تلـــك اللـــيلة سمعت صوت ذئب البراري لأول مرة بعد أن كان مجـــرد خيالات كاذبة ورثناها من زمن الطفولة، سمعت صوت البومة ينعق في الخراب لأول مرة، وارتعبت بكابوس همجي، رأيت فيه (حميلة جمـــاري) بهيمة صحراوية، لها مائة ثدي ممتلئ بالدم، والقائد (عبَّادي طلسم) وجنوده، باركين على أيديهم وأرجلهم يرضعون تلك الأثداء.. واستيقظت وسط اللهاث والعرق، لأسمع غطيط أربعة طباخين نائمين، وألمـــح (توما) على ضوء قمر يتسلل من بين الشقوق، راقداً في فراشه شـــبه رقدة، وإحدى يديه ترتفع وتنخفض. كان في لحظة ذكرى بلا شك، ويمارس منكراً قديماً بلا شك.

الفصل الثاني

التوترات الأولى

- 1 -

الأخبار بشرّها ويأسها كله في مقهى (خزي العين) الشهير في وسط المدينة، وبالتحديد عند صاحبته (نديمة مشغول).

كانت في نحو الأربعين أو أزيد قليلاً، تركية أو كردية، أو ربما من غجر الشام الذين يملكون القدرة على اختراع الأوطان وإلغائها عند الضرورة، من دون أي هزة من ضمير. عرفت في البداية كمغنية سخية الصوت تتراقص في ليالي الأعياد، ومناسبات الختان، وزفات أعراس الفقراء التي كان أجرها في أغلبها مجرد وعود، ولا شيء آخر. يأخذونها لتغني في أول الليل، وتعود وحيدة ومنكسرة إلى جحرها في آخره. وفي إحدى الليالي وفي بيت معروف بإدارته لموائد القمار، ويرتاده عدد من حاملي الألقاب والثروات في المدينة، لعبت بجسدها الغض آنذاك، ضد شهوات ثلاثة تجار محليين، كانوا يملكون مقهى (خزي العين) الشهير وغزير الزوار ضمن ما يملكونه من ثروات، وهزمتهم.

كانت فضيحة كبرى لأولئك التجار حين عرفتها المدينة كلها بعد ذلك، واتخذتها جماعة (الذكرى والتاريخ) التي كانت جماعة سرية ونشطة تؤرخ الأحداث الجسيمة بكتابتها على حيطان البيوت ورمل الشوارع، مادة لنشاطها، استمرت كتابتها لزمن طويل، لكن التركية أو الكردية أو التي ربما من غجر الشام، لم تحسَّها فضيحة أبداً، استلمت مقهاها الذي كسبته في لعنة القمار كاملاً، بعد أن عدت حتى شقوق موائده، وضحكات أو تأوهات جرسوناته، وقطع الفحم في مواقده التي

لا تخبو، وكانت أول امرأة تدير مقهى في المدينة، وبتلك المواصفات الكاملة لإدارة المقاهي.

كنت من مرتادي (خزي العين) الذي يقع في وسط المدينة تقريباً، وعند نقطة تجمع مواصلات الريف، التي كانت حميراً وأحصنة وإبلاً يؤجرها أصحابها للسفر بين المدينة والقرى، وتعود عليهم بالقليل، أمر عليه مرتين أو ثلاث أسبوعياً، ألتقي بعدد من الأصدقاء والمعارف، أثرثر معهم أو ألاعبهم النرد والورق، أو اصطاد خبراً قادماً من العاصمة والمدن الأخرى، لم يأت بطريقة رسمية بعد. كنت أفضله على نادي (يوتوبيا) الأرستقراطي الذي أرتاده في المناسبات فقط ولا تعجبني وجوه مرتاديه التي كانت كلها استعلاء وغطرسة. وكانت نديمة في الواقع سخية في كل شيء، سخية في ضحكاتها الشهية، توزعها على الجميع، سخية في حديثها، تدلقه بلا تحفظ، سخية في فجورها ومستعدة حتى لإشراك ريفي مهلهل أو تركي حاد المزاج، في شئون قولونها العصبي، وإمساكها المزمن، واضطراب دورتها الشهرية الذي يصيبها بالكآبة والأرق.. وفي استطلاع للرأي أجراه عدد من عشاق الصرعات، لاختيار أتفه وأحب امرأة في المدينة إلى قلوب الجميع، وجرى في مقهاها وتحت سمعها وبصرها وضم عدة نساء أخريات من نساء المدينة، توّجها الجميع بلا استثناء.. المرأة التافهة الحبيبة لكل قلب.

في أحد الأيام سألت نديمة عن ماضيها البعيد، قبل أن تحط برحالها في مدينة السور، وتسكنها تلك السكنى المميزة، قالت.. ماض مضى واندفن، لا تحفره يا سيدي.. عن مستقبلها، وهي في تلك اللجة العميقة بلا زوج ولا أهل ولا حبيب وهدف لتحرشات بلا حصر.. قالت.. أنا زوج نفسي وحبيب نفسي.. وأهل نفسي، حتى لو تحرش بي حاكم البلاد العام.. لا تهتم.. أرجوك.. ولم أهتم بالفعل حتى حين كنت

أشــــاهد يـــديها هشتين، تحاولان أن تصدا يداً لسكران حاول أن يمس صـــدراً نائمـــاً، أو حـــين أمشي في الطرق، فأرى اسمها مكتوباً على الحـــوائط بأحبار جماعة (الذكرى والتاريخ)، باعتبارها قاتلة الهوى التي ربما تقلص عدد قتلاها، لو أحبت أحداً.

دخلـــت إلى مقهـــى (خزي العين) في ذلك المساء، دخولي الذي اعـــتدت علـــيه دائماً، ملابسي منسقة بعناية، حذائي مغسول ولامع، وطـــربوش أحمر جديد يغطي رأسي. لم أكن أحمل لقباً حكومياً خاصاً بالـــرغم مـــن منـــصبـــي الحساس في مجلس المدينة، لكن اللقب كان موجوداً بالفعل، واسمعه يتردد باستمرار من جميع الألسنة التي تخاطبني، وحتى من لسان التركي (يوسف دامير) رئيس مجلس المدينة، وحاكمها الموقـــر.. مرحباً ميخائيل بك.. تعال إلى مكتبـــي يا ميخائيل بك... هكذا..

كان (خزي العين) مزدحماً كعادته في كل مساء، مضاء بفوانيس الجاز ذات اللهب المتراقص، وزبائن بسحنات شتى، بعضهم من داخل المدينة، وبعضهم من الريف، يشغلون موائده المصنوعة من خشب الزان المغطـــى بوبـــر الإبـــل، يحتسون الشاي والقهوة وعصير التبلدي، أو يدخـــنون تـــبغ (الدردار) الخشن، الذي يستخرج من مزارع محلية في أطـــراف المديـــنة، ويعالج بمادة (العطرون) التي تكسبه خشونة أكثر، وتوصـــله إلى شـــرايين المزاج بسهولة. عثرت على قريبـــي (مسمى طـــاؤوس) الـــذي كان شاعراً عاطلاً عن العمل، ويقضي أمسياته في (خزي العين)، يتصيد أعيان الريف القادمين إلى المدينة، يبيعهم قصائد المدح التي يرتجلها أمامهم، بمبالغ زهيدة يحشرها في جيبه ويمضي، وكان في تلـــك اللحظـــة برفقة ريفي بعمامة فخمة ورداء من جلد الخراف، يتـــساومان على قصيدة محتالة بصوت مرتفع. حيَّاني البكباشي (صبير)

الــذي كان عسكرياً متقاعداً حصل على وسام للشجاعة بلا شجاعة، وتقــدم للزواج من صاحبة المقهى سبع وثمانين مرة، كلها صد وإغلاق لــباب العواطف، لكنه لم ييأس، ولمحت من بين الموجودين رجلاً كنت أعرفه بلا شك، ولم أتذكر أبداً من أين أعرفه. وفي ركن أعد كمسرح متواضــع، كانــت فرقة (جريح) الغنائية، تنقر على طبولها المزخرفة، وتــردد أغنية (طير يا حمام.. طير فوق)، في فقرة مستحدثة لم تكن من ضمن مهارات المقهى فيما مضى، وأضيفت منذ عدة أشهر فقط.

كانت نديمة مشغول موجودة في ذلك المساء العادي، ملكة على مقعدها المرتفع الذي يمكِّنها من مراقبة نشاط مقهاها من دون أن تضطر إلى الانحــناء أو مــد الرقبة كثيراً، أو الاستدارة غير الضرورية. ترتدي قميــصها الأحمــر ذا الحواف المطرزة بالبرتقالي، والذي يساعدها على النــشاط كمــا تقول، على يديها أساور من ذهب عياري من نقش اليهودي (عوزي إيزاك)، تاجر الذهب الكبير، وحولها عدد من شباب المدينة، كاشفين لصدورهم المغطاة بالشعر، يكلِّمونها في همس فاجر ولا تــرد علــى أحد. وخمنت أن قولونها العصبــي لا بد متشنج بشدة، إمساكها المزمن لا بد في القمة، أو دورتها الشهرية المتعسرة، غارقة في تعكــير المزاج. اقتربت منها، وابتعد المحلقون، قلت.. استخدمي الفجل بعد غليه في نار هادئة، وخلطه بالعسل، استخدمي قشر الليمون المجفف بعــد سحقه.. استخدمي نبات (الدندرة) المر ثلاث مرات في اليوم.. هــذا يــساعدك. كانت وصفات مخترعة بلا شك، اخترعتها في تلك اللحظة، وأردت أن أستحلب بها ابتسامة من تلك الملكة الواجمة، لكنَّها لم تبتــسم، ولا بــدت قابلة للابتسام في أي لحظة. وبصوت بعيد عن صوتها الممتلئ بالتعرجات، الذي طالما استمعت إليه من قبل، رددت:

- هل سمعت الأخبار يا ميخائيل بك؟

- أي أخبار يا ملكة؟

- ثورة الجهاديين.. ثورة الخراب..

- أي جهاديين.. أي ثورة؟

رددت مندهشاً وأنا أحدق في وجهها، محاولاً أن أقرأ المزيد.

وبصوت رتبته جيداً ليكون عميقاً وجارحاً، ومغرقاً في التطرف الحزين، حكت الملكة نديمة، عن قائد أسطوري اسمه (المتَّقي)، نبع من قرية منسية اسمها (أباخيت)، على شاطئ النيل أو تخوم الصحراء، لا تدري بالتحديد، عن بطشه وجبروته، سيرة زهده وتعاليه على الدنيا الفانية، وآلاف الفقراء الذين تبعوه بمجرد أن ظهر، ويتبعونه إلى آخر الأرض لو مشى إلى آخر الأرض.. لقد هزموا الحكومة بجدارة حين سمعت بأخبارهم، وأرسلت إليهم سرية مستخفة، فيها عدة جنود ومدفعان صدئان، خرجوا إلى القرى، ودكوها، إلى الجبال، ودكوها، إلى الوديان، ومساقط المطر، ودكوها، والآن بالتحديد يزحفون نحونا.. يقتربون من مدينة (السور) التي تقول الأخبار، إن المتَّقي سيتخذها قلعة ينطلق منها جهاده.

كانت ثمة أخبار رسمية وردتنا منذ عدة أيام، عن تمرد طفيف لبعض الغوغاء في قرية اسمها (أباخيت) تقع قريباً من النيل، على بعد عشرين يوماً من (السور) وتتبع لأقاليم الوسط. كانوا يطالبون ببناء مخازن كبيرة وصلدة، لحفظ غلالهم من القمح والذرة والسمسم حتى لا تفسدها الريح والأمطار، واحتوت الحكومة استياءهم بسهولة حين ربطت زعيمهم إلى جذع شجرة من أشجار السنط، وضربته بالخيزران، وقبل ذلك بعدة أسابيع، تمرد (الشريف علوبة)، زعيم إحدى المناطق الريفية الغنية بالزراعة والرعي، حين أعاد جباة الضرائب الذين أرسلناهم إليه في إجراء عادي وروتيني، محملين بأكياس ممتلئة

بالرمل والحصى وبعور الإبل، وكان أن ذهبت إليه شخصياً برفقة عدة جنود مسلحين تسليحاً رثّاً. تحمّلنا ركاكة لسانه، وقهوته المرة، وبصقه للتمباك على ثيابنا، وبذاءة أتباعه وهم يشركوننا بالقوة في مسابقة بربرية لشد الحبل، ويهزمزننا، وعدنا في النهاية بضرائبنا كاملة لا تنقص قرشاً واحداً، وفيما عدا ذلك، لا شيء.. لا شيء سوى المجنون (مخلوف) الذي ضبط عارياً في الطريق العام، يبحث عن أخشاب من النار، ليصنع بها سفينة نوح، بائعة الهوى (طلاسم) التي تابت فجأة، وتوقفت عن دفع الضريبة، وربة منزل من حي (أرض الكوثر) الفقير، باعت طفلها الرضيع لسائح أوروبي.. لا شيء.

قلت محاولاً أن أطمئن التركية أو الكردية أو التي من غجر الشام:

- أخبار كاذبة يا ملكة.. لا يوجد جهاديون ولا ثورة.. مجرد تفاهات تحدث في أي وقت، والحكومة قادرة عليها.. صدقيني.

نهضت (نديمة) من مقعدها المرتفع بغتة، اتجهت إلى حيث (جريح) المغني وفرقته، وأغنية الحمام التي طارت إلى أعلى ولم تحط بعد. أوقفت نقر الطبول بإشارة مصممة، وهتكت طبلاً أنيقاً بقدم عصبية مهتزة. سمعت المغني يشتمها بسوقية، وسمعتها تشتم المغني بسوقية أشد، قالت للبكباشي (صبير) وإصبعها ملتصق بأنفه، إن مقهاها مغلق في وجهه منذ اليوم وفي وجه كل من يأتي ورأسه مصبوغ، وبين ضلوعه قلب محطم، ونهض البكباشي في خفة لا تشبه عمره غزير السنوات، ليلتقط يدها، ويقبلها في هيام.. كان قريبي (مسمى طاؤوس) قد باع احتياله الشعري، للريفي ذي العمامة الفخمة ورداء جلد الخراف بعدة قروش هزيلة، وضعها في جيبه، وتحرك نحو ريفي آخر دخل المقهى في تلك اللحظة، وفي يده سلة من السعف تبرز منها رؤوس لقناديل ذرة شامي، والرجل الذي أعرفه ولا أدري كيف أعرفه قد مضى، لأن مقعده كان فارغاً.

حين عادت إلى مقعدها المرتفع مرة أخرى، وتنهدت في ارتياح، بدت لي فارهة وأسطورية وتستحق عدم اليأس الذي يعربد به العسكري المتقاعد صبير وكثيرون غيره من أهل المدينة والريف، في دنياها بلا كلل.

- لماذا تدمرين المقهى يا نديمة؟.. لماذا؟.. تلك أخبار كاذبة.. صدقيني.

نهرتني بعينيها حالكتي السواد، وشديدتي الاتساع حين تغضبان أو تفرحان، دقت على الطاولة بعنف وأطارت دراهم نحاسية كانت موضوعة عليها، إلى بعيد..

- أخباري أستقيها من القرويين يا ميخائيل بك.. والقرويون ليسوا سلطة ولا لديهم مصلحة ليكذبون.. هل تعرف عبَّادي طلسم الذي كان حمّالاً في سوق أبي جهل واختفى فجأة؟

- نعم.. إلى حد ما..

- هو واحد من أمرائهم.

بالطبع لم أصدق حرفاً واحداً مما قالته. لم يكن في ذهني أي مدخل يمكن أن يدخل منه حمّال عادي في سوق شعبي ممتلئ بالفقر، والسلع الفقيرة، إلى إمارة ما، حتى لو كانت إمارة على كومة من القش.

فتحت فمي لأتحدث وأغلقته نديمة بتساؤل غريب:

- أين ذهب التقلاوي ديدام الذي كان فرَّاشاً لديكم في مجلس المدينة؟.. خبرني أين ذهب؟

- لا أدري حقيقة.. اختفى منذ مدة من دون أن نعرف أين ذهب.. وأظنه عاد إلى أهله في الريف.

- هو أيضاً من قادتهم.

هممت أن أضحك، لكن ضحكتي تمنعت بشدة، وتقطعت على حبالي الصوتية. منذ أكثر من عام دعانا التقلاوي إلى عرسه الذي سيقام في حي (كف عفريت) الشعبي في أحد أطراف المدينة، الحي الذي يقطنه فقراء معظمهم نزحوا من الضواحي، ويعملون في مهن هامشية، أو لا يعملون. تأنقت في ذلك اليوم، وتأنق عدد من موظفي المجلس وذهبنا إليه. كان التقلاوي مهندماً في زي أبيض ناصع، عمامته بيضاء ناصعة، كفاه مخضّبان بالحناء، وأساور من خرز أخضر معقود بخيوط حمراء، تتدلى من معصميه ورقبته. كان يوجد خلق كثير، توجد فرقة كورالية من سبع رجال ناضجين، تردد في شبق أناشيد الحماس الوطني، يوجد شراب من (التبلدي) و(العرديب)، طعام من أقراص الذرة والثريد، توجد نساء مزغردات، ونساء راقصات، يوجد أطفال يصرخون، ولم تكن ثمة عروس حاضرة في تلك الطقوس، ولا شيخ يجري مراسم عقد القران، كما جرت العادة في أي عرس من أعراس الوطن.

نقلت استغرابي إلى العريس التقلاوي مباشرة، فرد في تعال:

- عروسي ليست هنا يا سيد، ولكن في الجنة.. حورية لا تشبه هذه.. ولا هذه.. ولا هذه.. ولا هذه..

وكان يشير في غطرسة إلى عدد من فتيات حيه الفقير، بدأن متألقات بركاكة، في أقمشة الكستور والرحط والبوبلين، وعناقيد الخرز الملون التي يبيعها الشعبيون في سوق (أبي جهل) رث التجارة.

- أي جنة؟

سألت مستغرباً أكثر.

- جنة الله.. جنة النعيم.

رددها أولاً في صوت أقرب إلى الهمس، ثم رفعها أكثر، انغرس بها وســط فــرقة الكوراليين الحماسية، يرقص ويهتز، يهتز ويرقص، حتى تقوســت ركبــتاه وبدأ رذاذ من القيء الأصفر، يخرج من فمه، كنت أتابعه كما أتابع معركة، كما أتابع نيازك مجنونة تتساقط من حولي، و لم يــتوقف حــتى نــضبت أغنيات الحماس، وبدأ الكوراليون يخمدون ويتثاءبون. كانت أمسية غريبة للغاية لم أشهد لها مثيلاً من قبل، وكنت في طريق عودتي إلى بيتي، أفكر بلا انقطاع، أحاول العثور على طعم أو رائحة ولا أعثر على شيء.

تذكرت كل ذلك، وأنا أقف بضحكة ممزقة على حبالي الصوتية أمــام الملكة الحبيبة التافهة، في مقهى (خزي العين) الذي يتأرجح الآن أمامي حاضراً ومستقبلاً. تذكرت إن التقلاوي لم يعد إلى مجلس المدينة ليعمل فرَّاشاً بعد ذلك أبداً، ولا شوهد في (كف عفريت) ولا أي حي مغوص آخر من أحياء المدينة منذ تلك الأمسية المسعورة، وحتى أولئك الذين شاركوه الهوس من أبناء حيه أو أصدقائه، ورتبوا له عرس الجنون ليرتديه، لم يكونوا يعرفون مكانه، وخمنت إنه ربما عاد إلى قريته البعيدة أقــصى جنوب السور، حيث لا بد يوجد أهل هناك، وتوجد ملاحف بلا حصر، تستر وسواساً رهيباً كوسواسه.

قلت للتركية الكردية التي من غجر الشام..

شكراً جزيلاً.. شكراً يا ملكة..

ولا أدري لماذا شكرتها.

قالــت.. عفــواً، وعيناها موزعتان على خيال جرسوناتها وهم يطفــئون الفوانيس بالنفخ على ضوئها المتراقص، ويشتبكون بأصوات حــادة لعــدد من زبائن المقهى، كانوا ملتصقين بالمقاعد، يدخنون تبغ الدردار في تلذذ ولا يودون الرحيل.

قفزت إلى فرسي الأسود الأصيل الذي كان من مخصصات وظيفتي الرسمية ضمن مخصصات كثيرة منحت لي من قبل مجلس المدينة، أسميه (العبَّار)، وأحترمه بشدة، ونكاد أن نكون صديقين من كثرة التصاقنا بعضنا ببعض في مشاوير البحث عن الثروة. لم يكن (يوسف دامير)، حاكم المدينة التركي، موجوداً في بيته الرسمي في حي (كاهير) الذي يقطنه السادة والأثرياء، وأقطنه شخصياً برفقة والديَّ وأخي الأصغر (رزق)، ولا كان في نادي (يوتوبيا) الذي يزوره بانتظام للعب (الدومينو) التي كانت واحدة من ألعاب التسلية الغريبة عن المدينة، وأدخلها النادي حديثاً إلى أنشطته، أو تقليم أظافره عند (هيلان الحبشية) التي كانت فتاة من إثيوبيا، تقلم الأظافر في كشك صغير قريب من وسط المدينة، كأنها تعزف على آلة للموسيقى، لم يكن في السوق الكبير، عند صديقه تاجر الخمور الإغريقي (فندوري)، يتجادلان في السياسة والجنس وعلاج تعب المفاصل، ولا في ساحة (المجد) النضرة، حيث يحب تأمل النجوم في ليالي سطوع النجوم. واضطررت في النهاية أن أطرق باب (المزينة)، التي كانت امرأة من إحدى قبائل الزنج الموزعة في أحياء عدة في المدينة، وكانت خليلة للحاكم لا يعرف بأمرها إلا القليلون من خاصته.

انفتح الباب نصف فتحة، ورأيت على ضوء باهت ينبعث من فانوس صغير موضوع في حوش البيت، تلك المرأة التي ما صدَّقت أبداً إنها امرأة أو خليلة لذلك الحاكم المتغطرس، بالرغم من انغماسه فيها أكثر من انغماسه في بيته الرسمي الذي يضم زوجته وعياله. كانت عجوزاً، ورثة، بذيئة ملامح الوجه، وفيها رائحة عطر نحاسي مدبوغ في الجلد، وفي المرات القليلة التي كلمتها فيها، كنت أكلم نداً له نفس حنجرتي وحبالي الصوتية.. على الضوء الباهت تأملتها من جديد

وفكرت في لقب يناسبها، لكن لم يأتني لقب مناسب في تلك اللحظة، تأملتها وتأملتني، ولا بد نفرت كما نفرت، لأن وجهها تقلص بشدة، فمها تنهد بعمق، وابتعد جسدها عن الباب لا لتدعوني للدخول ولكن لتتـــركني أدخل من دون دعوة.. لم أكن أود أن أرى الحاكم مبعثراً أو غائباً عن الوعي، أو ملعوناً في ذلك الليل الكئيب، تسمرت بالباب وأنا اردد..

- قولي ليوسف بك إن لديه كبش وصل الآن.

كانت تلك شفرة نستخدمها حين يحدث حادث جسيم، حادث نـــود معالجته بعيداً عن تنصت الغرباء وفضولهم، وكانت المزينة خليلة لجـــسد الحاكم بلا شك، ولكن ليست خليلة للسلطة. دخلت (المزينة) مغتاظة، وانتظرت صابراً.

لم يـــودع (دامـــير) خليلـــته حتى، ولا يبدو أنه أتم النـــزوة إلى آخـــرها. كـــان مبعثراً بشدة، ويحاول جاهداً أن يلتم في ثيابه وهيبته، وكاد يسقط عن فرسه وهو يقاسمني الطريق:

- أعـــذرني يا ميخائيل بك.. أعذرني.. أنت في مقر النـــزوات، ولست في مكتبـــي.. أي نوع من الكباش لديك؟

- في الواقع ليس كبشاً يا سيدي..

- ماذا إذن؟

- ثور بعدة قرون.

- بعدة قرون؟.. يا إلهي..

وكاد يسقط عن فرسه مرة أخرى.

-2-

أول قـــرار اتخــــذه حاكم المدينة التركي (يوسف دامير)، بعد أن تنفّض من نـــزوة (المزينة)، واستعاد قميص السلطة كاملاً، هو ألا ينام في تلك الليلة أبداً، ولا أنام أنا ولا موظفو المجلس بجميع فئاتهم، ولا أي أحـــد آخر له ساقان وذراعان، وفم وصوت حتى لو كان خافتاً. كان قلقاً بشدة، ومشوَّشاً بشدة، وأرسل عشرات المناديب إلى أحياء المدينة كلـــها، لإيقاظ النخوات من ثباتها، وطلب النصح والمشورة، ولم يكن يدري من بالتحديد يمكنه أن يقدم نصحاً ومشورة في أمر كهذا. كانت العاصـــمة بعـــيدة جـــداً، والطرق وعرة بشدة، وجيشه خامداً ورث التـــسليح، والمعضلة لو كانت حقيقية فعلاً، وليست اختراع مخترعين، فهـــي معضلة دولة وليست معضلة حاكم إقليمي. كان قلقاً ومشوَّشاً، وشاهدته لأول مرة يصفر، وكان صفيراً بلا أغنية، بلا معنى. أول مرة يعـــري صـــدره، وكان صدراً خشناً ممتلئاً بشعر نصفه أسود ونصفه أبـــيض، أول مـــرة يتذكر أباه المدفون في بقعة ضحلة في إحدى بلاد الأتـــراك، وقـــد نسي أمره منذ أربعين عاماً. وفي اجتماع الأزمة الذي ضـــمني وضمه، وضم عدداً من الموظفين وقادة الجيش وشرطة الخيالة وبعـــض التجار، أمثال صهري المستقبلي (منون جماري) وتاجر الخمور فندوري، أصر وعيناه ترمشان بلا توقف، أن تأتي الملكة التافهة الحبيبة نديمـــة مشغول رضيت أم أبت، هي من أفسد الليلة بذلك الثور متعدد القـــرون، ويود أن تفسدها إلى النهاية، يأتي عاشقها العسكري المتقاعد

البكباشـــي صبير، لأن دمه بارد كالصقيع، ولأن نحنحة قد تصدر من خبرته الطويلة، قد توحي بحل. وكان خزياً كبيراً وفضيحة حقيقية، أن تضم طاولة رسمية من طاولات الأزمات، جليساً مثل (ولهان الخمري)، الذي دخل المدينة منذ خمس سنوات قادماً من مصر، برفقة ست فتيات بانعـــات آنذاك، أسكنهن حي (ونسه) أكثر الأحياء اتساخاً في المدينة، وشـــربتهن الأهواء كلها، ليتحولن إلى مجرد جلد على عظم، و لم يمض علـــى قدومهن أكثر من عام. والآن يعملن بلا كفاءة في خدمة أهواء الريفيين القادمين إلى المدينة، بحثاً عن طعم مغاير، أو يتدربن في أوقات فراغهن على النسج بالإبرة، وأبجديات التوبة التي لا بد سيضطررن إليها في أحد الأيام.

لا أدري لماذا جيء بولهان الخمري، في أزمة لا تبدو وثيقة الصلة بحـــي ونسه، ولا علاقة لها بجسد مائع، يتأرجح بفعل هرمونات نذلة، لكن لا بد كانت للحاكم وجهة نظر.. ووجهة نظر مهمة.

للمرة الخامسة يسأل:

– خـــبريني يا ملكة.. أرجوك.. هل فعلاً يوجد جهاديون أشعلوا ثورة في البلاد؟، وليس مجرد غوغاء من قرية (أباخيت)، يريدون صوامع لحفظ الغلال من الريح والمطر، وربط زعيمهم إلى جذع شجرة لتأديبه؟

وللمـــرة الخامسة تجيبه الملكة التافهة الحبيبة، وقد ارتدت فستاناً أخـــضر اللون من قماش رخيص يوزع في سوق (أبـــي جهل)، قالت يـــساعدها على التوتر، وأشعلت قندولاً طرياً من تبغ الدردار الخشن.. كانت تدخنه بلا متعة ولا سعال:

– بكل تأكيد يا يوسف بك.. بكل تأكيد. عطايا بائع (الروب)، والخميرة، الذي كان بالصدفة في قرية (رضيب) التي هاجمها الجهاديون وأكلوا خيرها، لا يفقأ عينه أو يزيل حاجبيه، ليكذب.. محاسن الجرداء

أم العيال السبعة التي تترحل بهم مستعطفة وباكية، وتأتينا كل عام من أجل كسوة الشتاء، وتعرفها أنت جيداً، لا تأتي بلا عيال إن لم يكونوا قد ضاعوا.. الطريق الذي يربط (السور) بمناطق الرعي والزراعة، في وسطه خمسة براميل من البارود، وعلى أطرافه يرقد حاملو النبال والحراب، يتصيدون القوافل ويفتتوها لو مرت. جمعة مؤجر الإبل والحمير كمواصلات بين المدينة والقرى، ويؤجر حميرك وإبلك شخصياً، مختف منذ سبعة أيام، وقد عادت ثلاثة من حميره بلا ركاب.. (ترتر) طفل الخامسة عشرة، الذي كان جرسوناً عندي في خزي العين، اختطفه أبوه من أمامي وخدشني باظافره، حين حاولت منعه، قال سأسافر به إلى المجد.. يا كافرة.

- لكن ماذا يحدث في هذه اللحظة بالذات.. أخبريني ماذا يحدث؟

- الله وحده أعلم.

أعادت خصلة نافرة من شعرها الأسود الغزير، إلى موضعها لتعانق الوجه، بدت فاتنة وأسطورية، برغم فستانها الرخيص، وجسدها غير المعطر وعنقها الخالي من نقشات اليهودي (عوزي إيزاك)، والبكباشي (صبير)، لا يتأمل ذلك السحر فقط، لكني أخاله قد ذاب كاملاً، أصبح تلك الخصلة التي تتأرجح، ذلك الهدب الطويل الطويل، وحتى ذلك العبوس الذي كانت تعبس به الملامح. والفم الذي يرصف الأخبار للمرة الخامسة على التوالي، في جلسة منهكة ومتأزمة. كان الببغاء الإفريقي (كيكور) الذي أهدي للحاكم من زائر سنغالي مر بالسور ذات يوم، والموجود بصفة دائمة في تلك القاعة الملحقة بمجلس المدينة كنوع من الديكور والزخفرة، ونسينا أخذه بعيداً حين اجتمعنا، ما يزال ممتلئاً بحوار يبدو أنه التقطه من اجتماع سابق.. اجتماع غير رسمي..

كان يصرخ..

أحبك يا مزينة.. ضميني إلى صدرك يا مزينة.. قبلة يا صبية.

- الله وحده أعلم.

تعبث بخصلتها المتأرجحة، تعيدها إلى الوجه مرة، وتطردها مرات.

- أرسل مستكشفيك إلى حيث توجد النار وتأكد.. لقد قلت كل ما عندي يا سيدي.

كان قادة الجيش والخيالة، متعسكرين في أزياء لم تواجه عدوًّا حقيقياً أبداً من قبل، تفوح منها رائحة الغبار والعتة وضراوة التخزين، وبدت بعض النجوم والصقور على الكتوف غائبة عن مكانها بفعل الزمن. كانوا هابطين بأرواح معنوية، يحاولون جاهدين أن يرفعوها إلى مستوى التعبئة العام الذي يتراقص أمامهم. أن يكونوا عسكراً محارباً لا مجرد وظائف مملة، تستهلك التبغ، والنساء وثلث ضرائب الإقليم.. القائمقام. البكباشي. الرائد.. التك تك.. اللهبنجي، والوجوم الذي يسيطر.

كان القائمقام (موسى عرديب)، قائد الجيش الذي ينحدر من قبيلة (الشايقية) في أقصى الشمال، قد عمل حارساً شخصياً للحاكم العام في العاصمة، ونقل إلينا حديثاً، لأن ذبابة وسخة كانت تئز قرب أذن الحاكم بلا توقف، ولم يستطيع قتالها، لأن امرأة بمشاعر ثورية، أحبت الحاكم بجنون، ظلت تطارده في الشوارع والأسواق، ولم يستطع القضاء على ثورتها ولأن ست شموع انطفأت في عيد ميلاد ولد الحاكم الصغير، قبل أن يصرخ الحاضرون.. (هابي بيرث داي تو يو).

كانت مهمته في (السور) شاقة للغاية، أن يلملم جيشاً مغموراً ومبعثراً، وبلا عتاد كاف، وأن يباهي بذلك الجيش، لأن الأقاليم غاصة

بالهمج، وفي نفس الوقت تستعذب المباهاة، حتى لو كانت مباهاة أزياء وخطوات منغمة. هو الوحيد الذي لم ينس رفع التحية العسكرية حين واجه الحاكم، الوحيد الذي كان زيه العسكري مستخدَماً بالفعل، وبلا رائحة عتة أو غبار أو تخزين. طلب الإذن بالحديث لكن الحاكم أسكته بصرامة:

- أريد خطة حقيقية أيها القائد، لا نظريات حرب جوفاء وردت في كتاب (فاسكو) السخيف الذي أعلم أنكم تحفظونه عن ظهر قلب.. أريد ميداناً ترتع فيه الأسود، وليس جحراً يأوي الثعالب.. كلمني بعد أن تجهز نفسك في آخر الليل من فضلك.

التفت الحاكم إليّ فجأة، وكنت في تلك اللحظة بالذات، بعيداً جداً، أفكر في عرسي الذي بدأت أستعد له وأنوي إقامته على مسرح (يوتوبيا) المزركش، و لم يبق على موعده إلا القليل، أفكر في (حميلة) التي ستملأ دنياي عطراً ومحبة بعد سبع وثلاثين سنة كلها خواء وتفاهات، ولكن يبدو أن المستجدات أقوى ولا يعرف أحد ماذا يخبئ الغيب.. فتح فمه ليخاطبني فيما يبدو، وقوطع من صوت آخر، كان صوت صهري المستقبلي، (منون جماري)، الذي تحدث من دون إذن من الحاكم وبدا صوت الحاكم فقيراً جداً أمام صوته الغني:

- قل لي سعادتك.. ما موقفنا وموقف السوق في هذا كله؟.. هل نعتبر سلعنا شحيحة، وسلع حرب أم نستمر في التجارة العادية؟

- ما ترونه مناسباً سيدي..

رد الحاكم..

- تعرف قوانين الحرب أكثر مني.

بدا صهري المستقبلي راضياً تماماً، طافت على فمه شبه ابتسامة وكذا بدا تجار آخرون يتاجرون في الملح والسكر والشاي وزيت

الطعـــام، وحتى في مقويات الأعصاب واللذة الخاصة، التي يجلبونها من مـــصر وأوروبا، وتعود عليهم بالكثير، وما ترونه مناسباً تلك، لم تكن باباً موارباً، تطل منه السلع على استحياء فقط، ولكن باباً مغلقاً قد لا تطـــل منه سلعة أبداً. تخيلت مدينة بلا ذرة، مدينة بلا ملح، مدينة بلا متعة، ومدينة بلا جرح واحد، ولكن كلها جروح. كان صهري على النقـــيض مـــن ابنته حميلة، هو يجمع ويجمع، وهي تنفق ما تجمع. على العموم لم يكن الأمر يعنيني كثيراً، فلن أكون ضمن جوعى أو عطشى الحرب الذين قد يخترعهم جماري وغيره بأي حال من الأحوال.

أفقت على صوت (يوسف دامير)، يلكزني:

- دورك الآن يـــا ميخائـــيل بك. أنت قبطي، والأقباط مقترون حتى في منح الآراء.. لا نريد تقتيراً هذه الليلة.

أهانتني عبارته بشدة، لكني تناسيت وخلته يعني صهري المستقبلي جماري أكثر مما يعنيني. فكوني قبطي، كان هذا قدري، وكوني مسئول عـــن جمـــع ثـــروات الحكومة من ضرائب وعوائد، وإيجارات أسواق وحدائق ومواخير، وغيرها، والتريث الشديد حين يأتي وقت إنفاقها، لا يجعلـــني مقتـــراً، ولكن أحاول الترشيد. فيما مضى وبإلحاح من معالج روحاني اسمه (قيصر شامات)، وجاء من دولة ساحل العاج في إفريقيا، أرادوا بـــناء مشفى لطرد الأرواح الشريرة عن الأجساد، ووقفت عائقاً حـــتى ألغـــي المـــشروع. لم تكن المدينة بحاجة إلى مشفىً حكومي، والأرواح فيها هزيلة للغاية، ويمكن طردها حتى في الشارع العام، إضافة إلى أنـــني لم أتذوق ذلك القيصر شخصياً، وبدا لي منذ أول وهلة رأيته فـــيها، مجرد صعلوك من أولئك الذين لا ينقطع مجيئهم عن البلاد أبداً. أيـــضاً طالبني الحاكم (دامير) مرات عدة، بإدراج اسم خليلته (المزينة) ضـــمن الفقراء الذين نمنحهم كسوة الشتاء من بطاطين وأحفة وحطباً

لإيقاد النار، و لم أعثر على فقر أكيد في حياة امرأة تفيض بشهوة الحاكم وثروته في كل ليلة. لكن (ولهان الخمري) هو من فضحني، هو من جعل اسمي مكتوباً بأحبار جماعة الذكرى والتاريخ على كل حائط، باعتباري شحيح المدينة الأول، ذلك حين ضاعفت له الضرائب، بسبب الغش وهو يروج لبضاعة فاسدة.. أولئك الفتيات المستهلكات. قلت:

- أحاول الترشيد يا سيدي.

- لا عليك..

نوَّه الحاكم..

- أضئ فانوسك من فضلك.. نحن بانتظار الضوء.

كان رأيي الشخصي في تلك المعضلة، هو أن نستوثق من تلك الأخبار أولاً، بالرغم من قناعاتنا الشخصية، بأنها حقيقة وليست مجرد شائعات. أن نضع رسلاً ومستكشفين لنا في النار، ونرى هل يعودون أم يحترقون، أن نعثر على ملامح (المتّقي) مشعل الثورة، نكمل سيرة حياته التي وصفتها نديمة، من معه؟ ومن ليس معه؟، ما زادهم، ما عددهم وعتادهم، وما تذوقهم للهدنة التي تعقب الحرب لو كانت ثمة حرب ستقع، وهدنة ستتبعها. وافقني الحاكم والعسكريون، ومن حضر من التجار الكبار بهز رؤوسهم، تنحنح البكباشي صبير، بلا إضافة مبدعة وعيناه مسمرتان على الملكة التافهة، بينما بقيت هي خاملة على مقعدها، تدخن الدردار الخشن بلا متعة أو سعال. كان (ولهان الخمري) عرقاناً ولاهثاً، وسأل الحاكم بصوت النساء الذي كان جزءاً من تكوينه، ويصبح أكثر نعومة في ساعة اليأس:

- لكن أخبرني يا (جنتل)، ما علاقة بيتي، وبناتي اللطيفات بحروبكم ومشاكلكم؟ نحن سكان مسالمون، وندفع ضرائبنا بانتظام كل عام.

علاقة وثيقة.

ردد الحـــاكم.. وقد بدا مصدوماً من عبارة (الجنتل) التي لم تكن ،، ضمن ألقابه الرسمية أو غير الرسمية، وما سمعها من قبل تردد أمامه:

- الحـــرب تحتاج إلى شيء من قلة الذوق، وقد ألغينا ترخيصك اب ـ الفساد ذلك، وعينّاك قليلاً للذوق في الحرب القادمة. هل فهمت؟

لم يفهم (ولهان) حرفاً واحداً كما بدا لي من ارتخاء فكه وتوهان نظراته، لكن الحاضرين كلهم ابتسموا، وكانت أول ابتسامة جماعية في تلـــك الليلة التي انتهت بملامح الفجر عبر النوافذ، وموسى قائد الجيش يؤدي تحية متثائبة، ويقدم ورقة مطوية إلى الحاكم.

همـــست في أذن يوســـف بك، وقد قفز إلى ذهني فجأة تساؤل منطقي:

- لمـــاذا لم يدع سيدنا (مفتاح الفلاح)، إمام المسجد الكبير إلى هذه الجلسة؟

- أجربه في صلاة الجمعة القادمة.. أعطيه خطبة حكومية ستوزع على كل المساجد، وأرى إن كان معنا أم مع (المتَّقي).. هيا..

كـــنا نغادر جوعى ومنهكين، والببغاء كيكور يردد بلا توقف.. المتّقي.. الجهاديون.. بناتي اللطيفات.. قليل الأدب.

-3-

قلت لوالدي (رجائي رشدي السحال)، الذي كان يعمل فيما مضى، في نفس وظيفتي التي أشغلها حالياً، مسئولاً عن جمع ثروات الحكـــومة، ووجوه إنفاقها، وتقاعد بسبب (كلل المخ)، الذي كان مرضـــاً متوارثاً في العائلة، ويؤدي إلى تلف الذاكرة في وقت مبكر، ويقضي معظم أوقاته الآن في محاولة استرجاع أرقام الحساب المبعثرة، أو تذكـــر أي إصبع في اليد، يلبس فيه خاتم الزواج. وفي الأوقات القليلة التي يشاهد فيها في السوق، يشتري حلوى (الرهش) الحبيبية، باعتـــبارها أزرة قميص، أو نبال صيد العصافير، باعتبارها وصفات ســـحرية لعلاج الوهن، أو يتصعلك بلا شباب أمام بائعات الطحين الفقـــيرات ويلكز بعضهن في المؤخرات، كانت يده اليسرى دائماً أمـــام عينـــيه، وأصابعه مفرودة في توتر، يحاول العثور على موضع الخاتم.

قلت له:

- اسمعني جيداً يا رجائي بك.

كان حاصلاً بالفعل على لقب البك، ذلك اللقب الذي لم أحصل علـــيه قط، ولعله كان الشيء الوحيد الذي تبقي في شبح ذاكرة تبدو كروح هائمة لا تحط.

صرخ ويده اليسرى تركض إلى فمي، تحاول أن تخنق الحديث قبل أن يتكون:

- لا تخـــبرني بموضع الخاتم أرجوك.. سأتذكره وحدي.. أقسم بأنني سأتذكره..

ومـــن مطبخها الذي يعج بالتخمة والفجور اللذيذ، ويحتوى حتى علـــى أسماك نهر النيل المجففة، ولحم الأرانب المعطون في الملح والتوابل، وهـــياكل رؤوس الغزلان التي جردها النهم من ملامح البراءة، هتفت أمي:

- لا تخـــبره يا ميخائيل أرجوك.. هو سيتذكر وحده.. حبيبـــي سيتذكر.

تـــسرف في تدليله، حتى وهو في السبعين، حتى وهو لا يستطيع الجـــزم، أهي (مريا توموس) ذات فساتين (الكلوش) الواسعة، التي جاء بهـــا غريـــرة من صعيد مصر، حين جاء برفقة جيش غاز ومستهتر، أم مجـــرد طـــباخة، وغاســـلة للثياب في بيت يحتاج إلى طباخة وغاسلة للثياب؟، أهي نفسها المخملية ذات الوجه المدور، والنظرات العاتبة التي كانـــت تقرصه بها، حين يلمس يداً غير يدها، أو يتجول في وجه غير وجههـــا، أم واحـــدة أخـــرى موجودة بالصدفة في بحر الحياة المملوء بالصدف.

- ليست مسألة إصبع أو خاتم زواج يا أمي.. إنها مسألة حياة أو موت.

كـــنت مـــا أزال أرتدي سهر البارحة نفسه. رأسي ثقيل بشدة، وجفـــناي عصيان على الفتح. وقد قضيت النهار بطوله برفقة الحاكم (دامـــير)، والملكة التافهة الحبيبة(نديمة مشغول)، وفي ركن منعزل من مقهـــى (خـــزي العين) الذي لم أره في النهار قط من قبل، كنا برفقة ضـــحايا مؤكدين، وكذابين يلوحون بقصص لم تحدث إلا في أذهانهم فقـــط. كانت الطاولات مزدحمة بعادة الازدحام، رائحة بخور عطن،

وتـوابل وقـرفة وزنجبيل، رائحة تبغ الدردار الخشن، ومسرح المغني (جـريح) الذي طارت فوقه أغنية الحمام و لم تحط، غارقاً في الفوضى، وثمة عمال يزيلون ستاره الأحمر وفوانسيه الملونة، وبساط القطيفة الذي كان ممدداً على أرضه.

- اسمعاني يا بك.. ويا بك.

كان (عطايا) بائع الروب والخميرة الذي أحضرته الملكة من أحد جحور المدينة، كشاهد حي على مشهد صغير من مشاهد المأساة. كان بـلا عـين يمـنى ولا حاجبين، وقد تورمت ملامحه حتى كأنها ملامح وجهين يسكنان جسده.

- اسمعاني يا بك.. ويا بك.

وارتخينا في مقعدينا، أو انشددنا لنسمعه، لا أدري بالتحديد.

- كنت في زيارة أخي التوأم (منصَّر)، الذي يقيم في قرية رضيب علـى بعـد ستة عشر يوماً من (السور). أزوره مرة في العام لنضحك معاً، ونستعيد تلك الأيام الخوالي.

- وماذا حدث؟

ردد الحاكم يستحثه.

- لعبـنا لعبة (الغمتَّاية) معاً، حيث قصصنا شعرنا قصة واحدة، حففـنا شـاربينا نفس الحفحفة، لبسنا القمصان والسراويل نفسها، ووقفنا أمام زوجة أخي النفساء، ونحن نصرخ:

من منّا زوجك يا سكينة؟

سـألت في فضول - وقد استهوتني تلك اللعبة المثيرة، وتمنيت لو كـان أخي رزق الذي يصغرني بسبعة عشر عاماً، توأمي. كنا تحفحفنا معاً، وقصصنا شعرنا نفس القصة، لبسنا زيّاً واحداً، ووقفنا أمام حميلة جماري صارخين:

من منا خطيبك يا خميلة؟

- وهل عثرت سكينة على زوجها؟

- أبداً.. كادت أن تجن وهي تختارني مرة، وتختار منصَّر مرة.

- حسناً.. وماذا بعد؟

الحاكم في بداية نفاد الصبر الذي أعرفه جيداً من ارتعاش جفنيه، وارتفاع يده اليمنى باستمرار إلى أنفه، ليهش ذبابة غير موجودة.

- كنا نأكل (تمبرة التمبرات)، حين جاء الجهاديون.

- تمبرة التمبرات؟.. وما هذه؟

الحاكم في منتصف نفاد الصبر، والآن يداه الاثنتان تعاركان الذباب الذي لم يكن موجوداً.

- إنها وجبة نصنعها من لحم الضفادع بعد تجفيفه في الشمس، وخلطه بالعسل والليمون.. وجبة لذيذة.

كان يمصمص شفتيه بلسانه ويتجشأ، حين نهضت (نديمة). نهضت بفعل اضطراب معوي كما بدا لي من رائحة فمها، وإسراعها الخطى نحو حوض للورد، أفرغت فيه أحشاءها. سمعتها تتطاول على الوطن كله، تسبه ببذاءة، وسمعتها تصرخ في جذع شجرة يابسة من أشجار التبلدي، كانت تموت في حوش المقهى:

أخرج من مقهاي.. اخرج من حياتي يا صبير.

- المهم..

- دخل الجهاديون إلى البيت.. كانوا كثيرين وبلا عدد، يحملون السيوف والحراب والسكاكين، وكانوا يصرخون.. الموت للكفر.. الموت للإلحاد. لم يتركوا شيئاً إلا أخذوه، وحتى حفاظات (الدلاقين) التي كانت على جسد الرضيع، انتزعوها.. كنا نصرخ ويصرخون، نحاول الهرب، ولا نستطيع، وحين استطعت في النهاية أن أعثر على

حمـــار أعـــرج وأنجو به، كنت بلا عين ولا حواجب كما ترون، ولا أعـــرف مـــا حدث لتوأمي وزوجته، والقرية التي كانت تحترق من خلفي.

كـــان الآن يبكي بعينه الوحيدة، ومحجر العين المفقوءة، الذي لا أعرف من أين يأتي بالدمع، وأسئلة الحاكم ليست رحيمة، أسئلة المهتز حين يحاول الثبات على مقعد متحرك:

- وهل كان (المتَّقي) قائد الثورة هناك؟

- لا أعـــرف يا سيدي.. كانوا كلهم ملثمين وجوعى ومختلين، كلهم المتَّقي.. كلهم المتَّقي.. كلهم المتَّقي..

أســـكته الحـــاكم بصعوبة شديدة، عطف على عينه بشدة، حين غطاها بمنديل معطر أخرجه من جيبه، عطف على حزنه حين نعى إلى الأمـــة في مديـــنة السور وضواحيها، أخاه منصَّر وعائلته الذين ذهبوا شـــهداء من أجل الوطن، بالرغم من عدم يقينه بموتهم. وفي قرار مرتجل ألقاه بصوته السلطوي، وطلب مني تدوينه على ورقة وإرساله إلى جماعة (الذكرى والتاريخ) لتسجيله على الحوائط، أعفى بائع الروب والخميرة مـــن مـــشقة طلب الرزق، وإنه منذ اليوم مرتزقاً أساسياً من مرتزقي الحكومة، حتى لو قامت الحرب وتبعثرت الحكومة. وفي قرار آخر طلب مـــني عدم تدوينه، ربما لغرابته وعدم ملاءمته لجو المأساة المسيطر، أمر بائع الروب أن يرتدي حلة جديدة، ويتعطر بالمسك، ويمشي في السوق جيئة وذهاباً وهو يبتسم. كان عطايا يتلملم ليمضي، حين عادت الملكة نديمة مشغول. كانت بلا إعياء حيث دلقته في حوض الورد -و برفقة امـــرأة شديدة النحول كأنها لا أحد. أجلستها على مقعد أمامنا وهي تقول:

- ها هي محاسن الجرداء أم العيال السبعة.. اسألوها.

لم تكن ثمة أسئلة ولا أجوبة، لأن الجرداء كانت تبكي وتتلاشى، تبكـــي وتتلاشـــى، حتى تحولت في النهاية إلى مجرد بكاء خالص على مقعد.

كان خمسة مواطنون من أهل (السور)، قد اقتحموا ركننا المنعزل بغتة بعد أن تملصوا من الحراسة الواهنة التي وضعها الحاكم على الباب، كان بعضهم مجروحاً في وجهه، بعضهم في يده، وأحدهم يعرج بساق ملفـــوفة بالخـــرق. عرفتهم جميعاً على الفور، كانوا (مهيمن) الكذاب المعـــروف في المديـــنة، وعـــدد مـــن أصدقائه، وقد جاءوا مشحونين بالخـــيالات عن وقائع لم يكونوا طرفاً فيها أبداً. تحدثوا عن الجهاديين كمـــا يـــتحدثون عـــن جيران وأقرباء، وعن المتّقي قائد الثورة، كما يـــتحدثون عن كلب ينبح في حوش بيت. استمعنا إليهم بدافع التسرية عـــن الـــنفس، وطـــردناهم حين بدأوا يضخمون الخيال، ويجرون إلى حديـــثهم آراء عنصرية، ونقاطاً حساسة في السياسة، لا ينبغي أن تأتي على ألسنة كذابين.

- مسألة حياة أو موت.

تـــركت أبـــي يرددها مراراً، يمررها أمام يده اليسرى، ويحاول ربطها بالإصبع وخاتم الزواج، وأمي تستغرب بها، وتسعى إلى تفصيلها الذي نالته مني وارتعب وجهها. ولا بد أن حياة كاملة عاشتها، وحياة أخـــرى لا تـــستطيع الجـــزم أنها ستعيشها، قد طافتا بذهنها في تلك اللحظة. رأيتها تتأرجح في البيت كطائر محتضر، ترفع مقعداً وتخفضه، تفـــتح نافذة محكمة، وتعود لإغلاقها، تفرش ملاءة على سرير، وتزيلها بعد برهة، وشممت رائحة طبخها المحترق لأول مرة. تسألني عن مصير أخـــي (رزق) الذي يتدرب في الجيش، ولا يأتي إلا مرتين في الشهر، وأقول.. لم تقم الحرب بعد حتى يموت أحد.

كانت غرفتي التي دخلت إليها بعد أن هدأت أمي، وكذبت عليها بمخـــارج وحلول لم اكن أملكها حقيقة ولا يملكها أحد، مرتبة بعناية، الملاءة على السرير وردية، أغطية الوسائد وردية، وعلى طاولة الخشب النظـــيفة الموضـــوعة في أحد الأركان، توجد بعض الكتب في الشعر والتاريخ، وأصول الحسابات، وكان يوجد وجه حميلة.

كـــان في الواقـــع رسماً متقناً لذلك الوجه المتقن، بريشة العبقري الـــراحل (لـــسام كوســـتاوي) الذي كان مجنوناً يرسم الغبار والحفر، وضـــجة الشوارع، وبعور الإبل والحمير ساعة خروجها، وفي أوقات نـــادرة، قد يرسم فتاة يانعة بأنياب ذئب، أو امرأة عجوزاً بمنقار طائر (سمبر) أو بقرة مكتملة الأنوثة لها خواص ثور مهتاج. وقد عثرت على ذلـــك الرسم بين أوراقه، حين مات فجأة منذ تسعة أشهر في الطريق العـــام، وتولت الحكومة نفقات غسيله ودفنه وطمس سيرته إلى الأبد، وكنت محظوظاً للغاية، لأن الرسام لم يكمل لوحته كما يبدو، لم يضف إلـــيها منكـــراً يضيع فيه بهاء حميلة. كنت أتنقل بين العينين المشعتين، والحاجبين الهلاليين، والفم الشهي، كما أتنقل في حديقة، أتوقف قليلاً عند شامة مخترعة على الخد الأيمن، وأعود لأبدأ الجولة من جديد. كنت منبهراً، ولم أشأ أن أسأل نفسي أبداً، ولا سألت صاحبة الوجه، كيف عثر عليها الرسام، أو عثرت عليه، ليرسمها. أغرتني تلك الحديقة بالنبش في خزانتي الخشبية، واستخراج دفتر الرسام الذي احتفظت به أيضاً بعد أن انتـــزعت منه حميلتي، ولم أضعه. كان قديماً ومن ورق أصفر لكنه متماســـك، أخذته أقلبه ورقة ورقة، أشم رائحة بعر متخثر في لوحة، ورائحـــة صفاء حمري في لوحة أخرى، وعثرت لدهشتي الشديدة على لوحة تمثل مقهى (خزي العين)، ليس الذي نعرفه، ولكن الذي ورد إلى ذهـــن الرسام وهو يعمل. كان بطاولات ممزقة، وعمال صرعى وزبائن

لهم ملامح جراد صحراوي، وورد أبيض مطرز بالدم، وكانت صاحبته الملكة التافهة الحبيبة، باركة على ركبتيها، تحت شجرة من حديد، وفي يدها غصن نعناع أصفر.

تأملت واندهشت.

قرأت.. خزي العين الذي قد يكون.. وارتعبت.

كـــان كوستاوي المجنون في الواقع، قد رسم الحرب قبل أن تأتي إرهاصاتها بزمن طويل.. رسم خزي العين، وكان يرسم المدينة.. يرسم الوطن كله.

كـــان نعاس القيلولة الذي أردت أن أنعسه، لأواصل التوتر بعد ذلـــك، قد طار بلا رجعة، وعلى سرير خلته قد فرش بالجمر واللهب، أخـــذت أنشوي وأفكر. في المساء سألتقي بخميلة التي لا بد أنها تعرف الآن مـــا يحدث، وقد كان والدها معنا، وخرج راضياً بعبارة (ما ترونه مناســباً) الـــتي أهـــداها له الحاكم في لحظة اضطراب. لم أكن أنوي مغازلتها، أو جرّها إلى نـــزهة المستقبل التي اعتدنا أن نبدأ بها اللقاء في كل مرة. لن نبني بيتنا المتخيل في حي (نسمة) الجديد الذي اشتريت فيه أرضـــاً بالفعل. لن نسمي ولداً (منون) تيمناً بوالدها، ولن نسمي بنتا (مريا)، تيمناً بوالدتي، ولكن أردت أن أمتلئ بتلك الحديقة الحية، حتى إذا ما قامت الحرب، وضعت في سوءتها، أضيع بعينين ممتلئتين.

- 4 -

كانـــت المهمة التي كلّفني بها الحاكم (يوسف دامير) قاسية جداً، لكـــني اعتدت على قسوة المهام، وإنجازها بكفاءة مهما تشعبت. ومنذ خلفـــت والدي في مهنة تجميع ثروات الحكومة، وتحديد مسار إنفاقها، وأنـــا أســـتعذب المشاق، أسافر إلى القرى والوديان، والسفوح التي بها زراعة ورعي، أو أغوص في أحياء مزرية في المدينة، بحثاً عن رماد ثروة قـــد يكون منثوراً هنا وهناك. لست شحيح المدينة الأول، كما دوّنت أحـــبار جماعة الذكرى والتاريخ، وكما تهمس الألسنة حين يمر فرسي العبَّار في مكان ما، ولكن حريصاً، وحارساً أكيداً ضد الخلل والتبذير. وحين أجلس إلى نفسي أحياناً، أعد ما أنجزه حرصي وتوجيهي السليم مـــن آبـــار نقـــية للمياه، وطلمبات حديثة للري، ومرابط للدواب في الأسواق، وحتى مساحات خضراء للتنفس، أحس بالزهو، وأستغرب، كيف طاش مني لقب (البكوية) حتى الآن؟.. وكيف لم يضعوني حاكماً للإقلـــيم مكـــان ذلك التركي المتغطرس، صاحب النـــزوات يوسف دامـــير؟. لم أكن أحسده حقيقة، لكن مجرد استغراب.. مجرد استغراب فقط.

سميت مهمتي بمهمة التأكد، وصدر فيها مرسوم رسمي من مكتب الحاكم دامير، وكانت في الحقيقة، مهمة غير محددة الملامح، كان علي أن أحـــدّق بذهني كله، لأعثر على ملامحها وسط الضباب. أحضرت أوراقـــاً وقلمـــاً، وبـــدأت في التحديق بما ظننته خيوطاً قد تقودني، ثم

خـــرجت إلى الطريق. كانت أحبار جماعة (الذكرى والتاريخ) السرية، قـــد محـــت أشـــياء كثيرة وقديمة من حوائط المدينة، وكتبت مكانها إرهاصـــات الحـــرب، كتبت عن عطايا، ولد الحكومة الجديد وذلك المـــستقبل المجـــيد الـــذي ينتظره، واستعانت برسام مبتدئ ليرسمه بلا حاجـــبين ولا عين، وعلى فمه عظم جاف من عظام الكلاب، كتبت عـــن الجـــرداء أم العيال السبعة، تلك التي تلاشت، وجفت في (خزي العـــين) مـــن دون أن تعطي ضوءاً أو ملامح طريق، ونوَّهت في تعليق بـــذيء عـــن إمكانـــية الاستفادة من الملكة التافهة (نديمة مشغول)، بتـــسليطها لغـــواية المتَّقي، قائد ثورة الجهاديين وتحويل ثورته إلى مجرد غريزة من غرائز الجسد. وفي حائط مجلس المدينة بالتحديد، عثرت على رســـم مستهزئ للببغاء الإفريقي (كيكور)، ومنقاره ملتصق بفم متورم الـــشفتين لامرأة زنجية، بينما وجه قريب الشبه بوجه الحاكم، منكفئاً علـــى الأرض، يلحسها في تلذذ، وقد كتب تحت الرسم.. هكذا تدار الأمور في زمن الحرب.

بدأت بحي (ونسة) الذي كان برغم وعورته، واتساخه الشديد، مـــورداً هاماً من موارد الثروة، ولعله المورد الوحيد الذي لا يتأثر بشح الأمطار، أو هلاك الماشية، ولا يملك عذراً من تلك الأعذار التي يسوقها دافعـــو الضرائب كلما ملّوا، أو استسخفوا يد الحكومة الطويلة، وهي تلاحقهم. لم أكن قد دخلت الحي منذ مدة طويلة وكنت من رواده في شـــبابـــي المبكـــر، وقبل أن ألتحق بتلك الوظيفة الهامة، حيث أكتفي بمندوبين أقل شأناً، يخوضون في وحله حتى القاع، ويعودون بالحصاد.

كنت أبحث عن (ولهان الخمري) تاجر المنكر والرغبة، أتأكد من إخلاقـــه لـــتجارته، واســـتعداده ليكون قليل الذوق الرسمي في الحرب القادمـــة. لم تكـــن فكاهة من فم حاكم، لم يكن فكهاً في أي يوم من

الأيـــام ولكنه أمر، ووظيفة لها مزايا وظائف الحكومة كلّها، من راتب شـــهري، ومعـــاش تقاعدي لو بقيت الحكومة حتى يتقاعد سفيه مثل (ولهـــان)، لا يعرف أحد شبابه من شيخوخته. ورغم أنني لم افهم حتى الآن، كيف سيؤدي (ولهان) تلك المهمة الغريبة، وما هي مداخله إليها، إلا أنـــني قررت أن أتأكد على الأقل من تطبيق بندها الأول.. إغلاق بيت الفساد.

كـــان الحـــي مغبراً بتراب قذر، ومكتظاً بالخرائب التي كانت في الواقـــع، نـــساء بـــلا مكونات، إلا تلك التي يكونها الليل حين يستر، والغرائـــز حـــين تجتهد. كن ممزقات وعاريات، ويجلسن على مقاعد منخفـــضة مـــن الحبال، أمام بيوت أضيق من نعال طفل. وعلى طول مـــساحة الحـــي التي خضتها على ظهر فرسي (العبَّار)، كنت أشاهد رجـــالاً يرطنون في تلذذ، رجالاً يتلمسون هاراً للإثارة في جلد ميت، ورجالاً يحتضنون الأسى، ويدخلون به إلى تلك الشقوق الضيقة. تعرف علي الكثيرون، وتعرفت على الكثيرين، وسمعت واحدة تطالبني بإعفائها من الضريبة، لأن رحمها انقلب فجأة في ساعة نحس.

كان ولهان الخمري موجوداً، ويجلس على باب بيته الذي علّقت عليه لافتة كتب عليها.. مغلق مؤقتاً لتجديد الروح، وكانت عبارة فيها تحـــد، حيث لم يرد تجديد الروح ضمن مهمته الجديدة، وصدر الأمر بسحب ترخيصه لا تعليقه المؤقت.

هتفت:

- مغلق لسحب الترخيص.

كان قد رآني وهب واقفاً، رأيت نار (النرجيلة) التي كان يدخنها تخـــبو، وعلامات استياء بلا حصر، تتكون على وجهه الهرموني. وحتى على فمه حين فتحه ليخاطبني:

- لـيس مـن حقكـم سحب ترخيصي يا جنتل.. لست قليلاً للأدب، ولكن صاحب مهنة، أدفع ضرائبـي باستمرار، ولدي قوارير جديـدة، سأضـيفها إلى بناتي اللطيفات قريباً. فقط فلتبعد الحرب.. ابعدي عني يا حرب.. أبعدي..

ورفـع يديه أمام وجهه كمن يتقي سيفاً مسنوناً. وكان في الواقع يهش جيشاً من الذباب تجمع أمام وجهه.

لم تعجـبني عبارة الجنتل التي أطلقها علي، ولا عبارة القوارير التي أطلقهـا على خامات تجارته البذيئة، كنت أقفز عن ظهر فرسي العبَّار، أضع في يديه ورقة التكليف الرسمية، وعلى بابه شمعاً أحمر بعد أن أزلت تحديد الروح، ويأتيني صوت قواريره المنهكات من الداخل، وهن ينقرن على طبل من الصفيح، ويغنين:

لا تلم يا لائم.

نحن ذكرى حمائم.

الحياة لعوبه

والهوى أكذوبه

والذي في قلبـي

ضحكة مثقوبه.

كـدت أبكـي من شجن الغناء ومصير أولئك التعيسات، أحث فرسي على المضي بأقصى سرعة، وأسمع صوته نائحاً على ظهري:

- ظلم.. ظلم. خراب بيوت.

وصـلت إلى حـي (كـف عفريت) الذي كان يسكنه الفرَّاش (التقلاوي ديدام) الذي تحدثت الأخبار المستقاة من (خزي العين) عن انـضمامه للجهاديين، بعد أن شهدت عرسه المهووس في تلك الليلة، واختفـى. كانـت قـراءات قـادة الجيش، خاصة القائمقام (موسى

عرديب)، قد أكدت على وجود خامات عسكرية فذة في ذلك الحي، ونحتاجها بشدة لتطعيم جيشنا الهزيل. وملء فراغات لجنود تهدموا أو شاخوا، وهم مدنيين في ثياب عسكرية. ومنذ اليوم التالي لتلقينا إرهاصات الحرب، بدأت حملات لم الخامات، وإرسالها لتصقل في معسكر للتدريب، كان قد أنشئ في أحد أركان المدينة، حيث أخي رزق يتلقى تدريباته الأولية طواعية.

كانت مهمتي هناك أن أتأكد من انسجام أهل الحي مع تلك المستجدات، عن استعدادهم، وتعاونهم، ومدنا بما نريد من دون مشاكل. وكانوا حقيقة في قمة السخاء، بالرغم من ازدراء الحكومة لحيهم لزمن طويل، باعتباره حيًّا بلا ثروة.. حيًّا بلا أمل. أمدونا باليافعين، والمراهقين، والذين في فورة الشباب، وحتى بكهول كانوا يحملون أجساد موتى، وأحلام بطولات قديمة لم تسنح لهم فرصة خوضها أبداً. وكان تلاحماً غير عادي، حين اقتربت مني قافلة من النساء الشابات، يعرضن خدماتهن كمتطوعات في الجيش، إن كنا بحاجة إليهن.

تأكدت من زاد (كف عفريت)، وزاد حي (الموارد) وحي (أرض الكوثر) الذي كان أكواماً من الحصى، وقيزاناً من الرمال، لا يسكنها الفقر حقيقة، لكنه اخترعها، وزاد أحياء أخرى، مررت عليها سريعاً برفقة صديقي (العبَّار).

حين وصلت إلى حي (آل حسان) الذي تقطنه قبيلة تحمل نفس الاسم ولا تسمح لأحد آخر باختراقه، حتى للتحية والسلام، فوجئت بشدة. لم يكن ثمة جنود من أولئك الذين أرسلوا للم خامات افتداء المدينة، متمركزين هناك، ولكن سكان الحي كلهم، بما فيهم النساء والأطفال والذين يقتربون من حافة القبر، وقد تجمعوا في وسطه، يشهدون سباقاً ضخماً للحمير، وهم يصفقون، ويتصايحون..

اركض يا بغل.. اركض يا جبندي.. حمار وسخ.. تف.

طـــردوني بما يشبه المظاهرة الصاخبة، وعادوا إلى لهوهم الغريب، وخـــرجت وأنا أستغرب من مدينة قد تموت فجأة وفي جوفها مهرجان لسباق الحمير.

المـــناطق الآمنة من ثقافة الحرب.. والخنادق المحفورة تحت الأرض حتى لو كانت جروحا، فهي جروح ممجدة.

هكذا ردد الحاكم أمامي وأمام من يهمهم الأمر، وكان علي أن أتأكد.

كانـــت ســـاحة المجـــد التي تتوسط مدينة (السور)، فيما مضى، مـــساحة جرداء، قيل أنها كانت مهبطاً للقوافل التي تأتي بمواد التجارة والسائحين، في أزمان بعيدة، وفي الفترة التي تولى فيها والدي أمر جمع الثـــروات وإنفاقهـــا، في المدينة، غرسها بالعشب الأخضر وتركها لمياه المطر، تسقيها في موسم الخريف، وجاء دوري بعد ذلك لأضيف زهوراً ووروداً، وأشجار نيم وارفة وبهية الظلال، وتتحول تلك المساحة الجرداء إلى متنفس للهواء، ودواء طارداً للبؤس في ساعة البؤس.

الآن ســـاحة المجد، تعود إلى سابق عهدها القديم، ليست مساحة جـــرداء فقط، ولكن حفرة ضخمة، ينبش فيها العمال المستنفرون من كـــل صوب، حيث تم اختيارها مكاناً آمناً قد يأوي إليه نصف سكان المدينة من النساء والعجزة والأطفال حين تزفر الحرب، لم أرد أن أتحسر علـــيها باعتبارها روضة كنا نفخر بها، نتنفس فيها هواء نقيا، ونقدمها للـــضيوف حـــين يأتيـــنا ضيوف، ولكن أباركها، أتمنى لها التوفيق في مهمتها الجديدة.

لم تكـــن ملاحقة (ما ترونه مناسباً)، العبارة التي ألقى بها الحاكم تلـــك الليلة، أمام صهري (جماري)، وزملائه التجار في لحظة اضطراب

أو نفـــاق لا أدري، مـــن ضـــمن مهمة التأكد التي فصلت لي، لكن وبفضول لم أستطع قهره، أردت ملاحقتها.

دخلت إلى السوق الكبير، الذي ولد بولادة المدينة منذ قرون، ويضيف إليه الزمن في كل مرة طعماً جديداً، أو رائحة جديدة. كان اسمـــه فـــيما مضى، سوق (حمزة وابنه)، لكن الأوراق الرسمية التي ظهـــرت بظهـــور الحكومات المؤسسة بعد ذلك، لم تستسغ ذلك الاسم، أو لعلها لم تعثر على ذلك الحمزة وابنه، وسلالتهما اللاحقة، وســـط تاريخ المدينة الشفاهي والمكتوب، فسمته السوق الكبير من دون إلـــصاقه بأحـــد، بينما ترك سوق هام آخر، هو سوق (أبـــي جهـــل) الشعبـــي، مرتدياً اسمه الذي ولد به من دون تغيير. وأذكر إنني بحثت كثيراً في ذلك الاسم، ليس بحثاً رسمياً ولكن بحث الفضول الـــذي أراد أن يعـــرف من حمزة ومن ابنه. اعتمدت على سلالات الأعراب الذين كانوا قادة قوافل ومكارين، وبعض كتب الأوروبيين الذين عبروا بالمنطقة ذات يوم، وتسوقوا من حمزة وابنه، ولم أعثر في النهاية على شيء.

كـــان السوق الكبير، قد أعيد تخطيطه وتنظيمه عشرات المرات، حـــتى بـــدا بمظهره الذي أطالعه الآن. كان ممتلئاً بالتجارة، وتفرعات الـــتجارة، وكـــل مـــا يمت للتجارة بصلة، مواد الغذاء من ذرة وقمح وشـــعير، وحميض، وزيت، وحتى سمك التونة، والرنجة المجففة. قماش الألبسة من تيترون وبوبلين وكستور ودبلان، وحتى حراير الملكات التي تأتي من مصر وأوروبا، وبلاد الرافدين، لتعانق الأجساد الأرستقراطية.. الخمور المعتقة، في قواريرها المضلعة، والتي تباع غالية، ولأمزجة محدودة للغايـــة.. البهارات.. مواد البناء.. العطور من مسك، وصندل ومخلط، ودهـــن عود وحتى عطر (ميتز - موي) الغالي، وعطر (هابـــي دريمز)

النسائي، الذي ينام برفقة سبعة أحلام سعيدة فقط، في المدينة كلها، من بينها أحلام خطيبتي جميلة جماري.

ما ترونه مناسباً، عند منون جماري وزملائه من تجار المحاصيل، الأحولة شبه فارغة على أرضيات نظيفة، والأهالي يتزاحمون من هلع وليس من جوع، والعمال بسواعد قوية ومجتهدة، ينقلون الشبع إلى أماكن ركوده واستعلائه، من دون إحساس بأنهم ينقلون الحياة.

ما ترونه مناسباً في دكاكين القماش.. سعر اليوم ليس سعر الأمس، لا نبيع الصوف هذه الأيام، لا نبيع التيترون.. ليس لدينا قطعة واحدة من الكستور سيدتي.

ما ترونه مناسباً، صلصة الطماطم شحيحة، الزيت يباع بالرطل الغالي، وليس بالزجاجة ذات الثلاثة أرطال، التي لم تكن حتى بسعر نصف الرطل، صنادل الجلد المصنوعة من جلود الثعالب، والغزلان وآفات البراري، والتي كانت عاراً للأرجل التي ترتديها فيما مضى، الآن في لحظة سمو غريبة. لحم الضأن في الواقع ليس لحم ضأن، ولكن لحم إبل عفنة، وابتسامات الرضى على وجوه التجار، مثيرات بلا حدود لبذاءة السخط عند المشترين..

سمعت: اللعنة.. أين الحكومة؟

سمعت: ننتظر الحرب.. ننتظر الجهاديين.. عاش الجهاديون... حال أفضل من حال.

ورأيت (فندوري) الإغريقي، تاجر الخمور المعتقة التي يجلبها من (إنجلترا) بتكاليف باهظة، يبدو تاجراً عادلاً ووحيداً في عدالته، أمام ذلك الجشع العام، كان يعرض بضاعته بأقل من هذيانها القديم، وربما بنصف ذلك الهذيان، ورأيت عدداً من مدمني الخمور البلدية الرخيصة، لم تكن أحلامهم تتسكع فيما مضى أمام محله، يتراكضون الآن،

يجمعــون دنانير من جيوب بعضهم البعض، ويحتضنون قوارير الشراب المضلعة، كما يحتضنون ثروة.

لم أفاجــأ حين لمحت (عطايا) بائع الروب والخميرة، متجدداً في الــثوب والعمامــة، وغطاء عينه المفقودة، يتنــزه بين القحط والغلاء، ويبتــسم. لم يكــن قطعاً مرسوما هكذا بريشة اختياره، ولكن بريشة الحاكم دامير الذي لم أفهم قصده أبداً من تحويل مأساة البائع الفقير إلى تلك اللوحة المشوهة.

كــان البكباشي صبير، واقفاً أمام محل (عوزي إيزاك) لتجارة الــذهب، حين اقتربت منه، يستبدل خاتم زواجه من الملكة نديمة، للمــرة الثامــنة والثمانين، وقد اعتاد أن يفعل ذلك مرة كل عدة أشــهر، حين تختفي نقشة قديمة، وتحل مكانها نقشة جديدة. سمعت الــيهودي يخــبره بألفاظ مرتعشة، إن سعر الذهب قد ارتفع عالمياً، وعلــيه أن يدفع فرق النقشة الجديدة بناء على السعر الجديد. كان ثابتاً، ومغامراً، حين لم يعبأ بتذمر جيبه، وحين دفع، وكان في الواقع يدفــع حصاد عمره كله في زمن مضطرب، ومن أجل امرأة لم تكن تعتبره هاجساً فقط، ولكن تشتمه حتى حين تشتم جذوع الأشجار الميتة.

قلت..

أحسدك على ثباتك في الحب.

وكــنت أعــني عــدم ثباته العسكري، حتى في تلك المناوشات الــصغيرة الــتي كانــت تحدث هنا وهناك أيام خدمته، ونيله لوسام الشجاعة من دون شجاعة.

رد:

وأحسدك على كل شيء.

تلــك اللحظة فاجأني اليهودي إيزاك، بأن جرني إلى داخل المحل، أحــضر من خزانة خاصة مطعمة بالنقوش، خاتماً بثلاث فواريص لامعة لم أر مــثله أبداً من قبل، لم أقل كم سعره، ولكن حشرته في جيبـــي علـــى الفـــور، ودفعت لليهودي ما طلب من دون مساومة، كان عيد ميلاد (حميلة) العشرين يقترب، وكان علي أن أهديها شيئاً مميزاً، حتى لو كان ذلك في وقت عصيب كالذي نعيشه تلك الأيام.

الآن يـــأتي دور سوق (أبـــي جهل) الشعبـــي، في مهمة التأكد. الـــسوق الذي لن يقع في تقديري، تحت عبارة (ما ترونه مناسباً) التي اصطادها الكبار، وحولوها إلى صفقة بين ليلة وضحاها، ولكن قد يظل رحيما كما هو دائماً. دخلت إليه بذلك التقدير، وكنت مخطئا بشدة. وأكتـــشف لأول مرة، إن ذلك السوق الذي ترحمه ضرائبنا، وتغفر له زلات التأخير، أو عدم الدفع باعتباره سوقاً مسكيناً، ويرعى المساكين، كـــان في الواقـــع وركاً دسما من أوراك السوق الكبير، وأولئك الباعة الهامـــشيين، الـــذين يحاصرون الداخلين والخارجين بنداءاتهم، يسفون (التمـــباك) ويبصقون قذارته على السلع، كانوا مجرد عمال لدى سادة الـــسوق الكبير.. وتلك المسكنة، كانت جزءاً من وظائف فصلت لهم ليرتدوها.

ليس لدينا بن حبشي هذه الأيام يا أختي.

مسابح اللالوب والخرز.. غير متوفرة للأسف.

مروا علينا بعد عدة أيام.

هنا كان يعمل عبَّادي طلسم الذي وردت سيرته في خزي العين، كـــأمير جهـــادي محتمل، وتلك السلع التي تتوارى عن الأنظار الآن، كانت ثقافة حملها على ظهره لسنوات. وهنا كان فقر المدينة يتسكع، ويـــستطيع أن يشتري، والآن لا شيء يغري بالتسكع، ولا قدرة على

الشراء. كانت (ما ترونه مناسباً) الشعبية هنا، هي نفسها الأرستقراطية في السوق الكبير.

حدقت في مهمة التأكد بعد تلك الساعات الطويلة من الدوران، وعثرت على أهم ما فيها، وكدت أنساه. كانت مدينة (السور) محاطة بغابات شجر السنط المتشابكة التي لا تسمح بالمرور حتى لثعلب، وقد نجح الذين أنشأوها فيما يبدو، في إنشاء مدخل واحد، بعد أن قضوا على الغابة التي كانت تمتلكه، وأثناء وجودنا فيها، أزيلت بقية الغابات واحدة بعد أخرى، في مهمة كانت شاقة وعسيرة، ووصفتها جماعة الذكرى والتاريخ، بالإعدامات. والتصفيات بلا رحمة، كانت المعضلة حقيقية، في عري المدينة أمام شهوة الجهاديين، في انكشاف عورتها من كل الجهات ولا يستطيع أحد أن يعيد ثياب السنط القديمة، أو يفصل لها ثيابا جديدة من أي نوع، تواجه بها الغزاة.

قال الحاكم دامير للقائد موسى عرديب، وهو في منتهى الصرامة، لا يعطي فمه حتى شبح ابتسامة:

- تخيلها جدتك أيها القائد، وفصل سراويلها، تخيلها امرأتك، والشتاء على الأبواب، ماذا كنت تفعل من أجل امرأتك؟

ويبدو أن القائد قد ارتعب من مجرد تلك الفكرة البذيئة، وكانت أن وردت إليه فكرة حفر الخنادق ككساء ممكن لستر العورة، ليس عورة المدينة كلها ولكن مدخلين فقط كانا الأكثر استخداما، الأكثر ربطا ببقية القرى والمدن، وهما بلا جدال، مدخلا الجهاديين إلى مدينة السور.. قال وهو يخاطبني، حين وقفت أمامه، أشاهد مئات السواعد، تحفر الأرض، وتملأ الحفر بالقش:

- هل تظن هذا ينجح يا سيدي؟

قلت وفي صوتي رنة اكتئاب، وأعرف إن حفر الخنادق وتمويهها بـــالقش، كانت من أبجديات أي حرب ومنذ عرفت الناس الحروب، ولـــن تصلح أبداً كفخاخ صيد لأحد، إضافة إلى أن بعض قادة الثورة الذين كانوا من أبناء السور، لن يكونوا جراداً في مداخل ألفوا تعرجاتها وحفرها.

- أتمنى ذلك يا سيدي.

وكـــنت أفكـــر في كتاب (فاسكو) العسكري، وكيف وصفه الحاكم بالسخيف.

أحســـست بأن فرسي العبَّار قد تعب، كما تعبت، وإنه يود أن يقـــضي حاجـــته كما أود، عرجت على (خزي العين) الذي يبدو أنه أصـــبح محطة أثيرة لدي في زمن الاضطراب.. وأحسست بالغبطة حين وجدتـــه ذلك الذي أعرفه، وليس الذي ورد في لوحة الرسام الراحل. الطاولات كما هي مغطاة بوبر إبلها الناعم. الورد الأبيض والبنفسجي، ورائحـــة الـــبخور العطن، جنبا إلى جنب مع الرائحة التي يضخها تبغ الدردار الخشن. ولفت نظري أولئك العمال الذين كانوا يعيدون إحياء مـــسرح (جريح) الغنائي، بعد أن أعدموه تلك الليلة، وبناء على مزاج عكر لصاحبة المقهى، وجريح نفسه متهندم في قميص أحمر، ويساهم في تثبيت الستائر الوردية.

كانت (نديمة مشغول) مبتسمة، وشديدة البهاء، في ثوب أزرق لـــه أكمام فراشة من لهب. كان ثوباً جديداً على نظري لم أره من قـــبل، ولا بـــد ثوب عيد أو مناسبة سعيدة أخرى.. كانت تمازح عمـــدة ريفياً بدا مهتزاً أمام تلك الأسطورة، ويمسح ريالة تهطل من حلقـــه بلا توقف، بكم ثوبه.. تقول.. أهديك عيني يا شيخ العمد، وتهـــديني تلك الشامة التي على خدك. ويرفع يده محاولاً انتزاع ورم

جلدي بلون الفحم، لاصقاً بخده. كانت دهشتي عظيمة حين رفعت يدها اليسرى، أزاحت بها خصلة للشعر، حطت على عينها، ولمحت ذلك الخاتم الذي اشتراه البكباشي صبير بمدخرات عمره، منذ عدة ساعات فقط، يحتل موضعه في الإصبع الرابع لليد، حيث أصطلح أن يلـــبس خـــاتم الزواج، وحيث ما تزال ذاكرة أبـــي تحوم ولا تحط عليه.

صحت مندهشاً:

- ما هذا يا ملكة؟ هل ستتزوجين البكباشي صبير؟

الابتـــسامة لم تـــتغير، والثوب الأزرق المطرز باللهب، ثوب فتاة غريرة، وخجلة، وحتى اللعثمة نفسها:

- نعم.. سأتزوجه.

- وكيف ذلك؟.. كيف يا ملكة؟

- لن تفهمني يا بك.. لن يفهمني أحد.

وفي ركـــن بعـــيد عن عيون زبائنها، وآذانهم، وأخذتني إليه من يـــدي، نـــــزعت ابتسامتها، ألقتها بعيداً، وظلت تبكي حتى خلتها خلقـــت باكـــية، خلتها الجرداء أم العيال السبعة، وقد تتلاشى في أي لحظة. كانت لا تحب البكباشي حقيقة، لا تحب رائحة عرقه، ولا صبغة شـــعره، ولا فتافيت قلبه المحطم، ولا توافه سيرته العسكرية التي تعتبرها سيرة سخل، لكنَّها قاست المسافة بين اليوم والغد ووجدتها لا مسافة، بـــين تـــربعها كملكة، وتعريها كغنيمة بلا مستقبل، في بيت سبـــي، وفـــضلت أن تؤخذ امرأة رجل، لا امرأة شوارع وأحبار بذيئة مكتوبة على الحوائط، والرجل الذي أنفق قلبه في حبها لأكثر من عشرة أعوام، وثبت بوقار أمام خاتم امتص ثروته كلها، قد يموت من أجلها إذا ناداه الموت من أجلها.

كفـــى.. أرجوك.. كفى يا ميخائيل بك.. زفوني إلى البكباشي صبير.. ولا تسألوني عن شيء.

ثم التفـــتت إلى حـــيث المغني جريح، الذي كان يقف شامخاً أمام مسرحه بعد أن عاد للحياة وتنفس بالستائر الوردية، والبساط المخملي، واستعد لالتقاط أغنية الحمام التي طارت في ذلك اليوم و لم تحط:

- شكراً يا جريح.. شكراً يا صاحب القلب.

كانت في لحظة اكتئاب أو هستيريا بلا شك، والذي يعرف تلك الفارهـــة، يـــستطيع أن يقرأها بسهولة، حتى لو كتبت دواخلها بحبر سري.. كانت تخشى الموت بلا شك، تخشى السبـــي واعتبارها غنيمة بالرغم من عقيدها التي لا تختلف عن عقيدة (المتَّقي) وأتباعه، فقط كل يحـــياها بطـــريقته، لم تعطني فرصة أخرى لأكلمها، كانت تبحث عن الريفي صاحب ورم الجلد، لتمازخه أكثر.. وكان البكباشي صبير على مـــدخل المقهـــى، يحمل سلة من السعف، تطل من داخلها قناديل ذرة شامي.

- 5 -

الجمعـــة الأولى بعد إرهاصات الحرب، ومجيء المزيد من الأخبار عـــن وقـــوعها الوشيك، وقد قدم إلى السور تلك الأيام عشرات من الجوعـــى والمصابين، وصفوا محناً عصية على التصديق، وكان أكثر ما يحيرني هو مبدأ العنف وعدم التفريق بين العقائد، الذي يحكيه الناس عن ثورة هبت للجهاد كما أعرف، وليس للإبادة وخراب الموارد، وترويع الـــناس في مدنهم وقراهم الآمنة، واستنتجت أنها لا بد أخطاء يرتكبها المجندون وليست تعاليماً يعضون على هديها.

لم أحـــضر صلاة الجمعة بالطبع، ولا استمعت إلى خطبتها، نسبة إلى اختلاف عقيدة لا يسمح لي بالحضور، لكني عرفتها. كان التركي يوسف دامير، حاكم المدينة الموقر، قد توضأ، وذهب باكراً إلى مسجد (الـــسور) الكبير، على عكس جمع سابقة أتت في عهده، كان يحضرها متكاســـلاً من دون خطبة، والصلاة في المنتصف، يريد أن يتتبع أهواء سيدنا (مفتاح الفلاح)، إمام المسجد الكبير شخصياً، وليس من تقارير مكـــتوبة قد تضيف أو تحذف شهقة أو تنفساً عميقاً يصدر من الرجل أثـــناء إلقائه للخطبة. كان قد كلفني بكتابة خطبة موحدة لا علاقة لها بالحـــرب ولا فوران الجهاديين الذي يفورون به على مقربة، وتوزيعها على كلَ الأئمة في المدينة بما فيهم مفتاح الفلاح، واعتذرت بشدة، لم أكـــن ضليعا في عقيدة لا أعرف تعاليمها، والواقع إنني لم أكن ضليعاً حـــتى في عقـــيدتي التي ولدت بها. كنت محاسباً، ومسئولاً عن ثروات

الحكومة، والآن فقط أعمل كمساعد غير رسمي للحاكم وهو يهتز في مـــواجهة طوفان قادم من الغيب. حين كنت في مدرسة المعلم (جبير) الـــتي أنـــشئت لأبناء الأقباط منذ زمن بعيد وتعاقب عليها المعلمون، ودرست فيها المحاسبة، والرسم، وأبجديات الدين المسيحي برفقة صبيان آخرين، لم أكن جيداً في حفظ الإصحاحات والتواشيح، و لم أستوعب أبداً قصص الخطيئة والغفران، وبطولات القساوسة في القرون الوسطى، حـــين يـــرويها المعلم وهو منتشي، بعكس الأرقام التي كانت عشقي، وأجدها بامتياز حتى صرت بهذه الأهمية. اعتذرت للحاكم بشدة، وقبل اعـــتذاري، وكـــان من السهل العثور على من يقوم بتلك المهمة، التي ليست شاقة، لكن الحاكم لم يشأ تكليف أحد آخر، ومن كتاب ديني يملكه في مكتبته الشحيحة في عدد الكتب، ولا ينفض غباره إلا نادراً، انتقى خطبة قديمة كتبت في زمن بعيد، عممها على الجميع في مساجد السور المختلفة.

لم يكـــن الإمام (مفتاح الفلاح)رجلاً هاماً في نظر الحاكم وإدارة مجلس المدينة، في أوقات السلام الماضية. لم ينتقد، و لم يوجه اللوم، ولا كانـــت تعنـــيه تلك السقطات التي تسقطها الحكومة حين تلم حصاد ثرواتها من أزقة القرف وسواعد الضعف، وتلك الوديان التي لا تساعد أهلها في غرس نبتة، ولكن تقاسمهم الحصاد. رجل عادي يعيش بعادية ويـــؤدي مهمة ميكانيكية في الوعظ قد تدخل الأدمغة وقد لا تدخل. وفي الأخـــبار الـــتي ربطت الكثيرين بالجهاديين، لم يرد اسمه، ولا كان لعمامـــته أي موضـــع وسط تلك العمائم التي تضمر الشر، وتتربص. والآن أستغرب من قفزته الكبيرة تلك إلى ذهن الحاكم، ولعلي من لفت إلـــيه النظـــر حـــين استغربت من عدم دعوته إلى اجتماع ضم حتى الصعاليك، وفاقدي النخوة، و لم يضم صوتاً صالحاً كصوته.

حمت بفرسي العبَّار حول الجامع الكبير، شاهدت المصلين في أزياء الجمعة النظيفة، وشممت عطور الصلاة المكونة من المسك والعنبر، ودهن العود، والتي لا تتسكع في كثير من الأجساد، إلا في ذلك اليوم المبارك لدى مسلمي المدينة. وقبل أن تنتهي الصلاة تماماً، وينفض المصلون، كنت في تلك القاعة الملحقة بمكتب الحاكم أنتظر، الهواء راكد وثقيل على التنفس، والببغاء الإفريقي (كيكور) يصرخ بلا توقف:

المتَّقي.. قليل الذوق.. ولهان.. ضميني يا مزينة.

دخل يوسف دامير فجأة بوجه متعكر، وأسارير غير نقية. جلس على أحد المقاعد في مواجهتي.

صحت:

- ماذا حدث يا سيدي؟

خلع طربوشه الأحمر الأنيق عن رأسه، ألقاه أمامه على الطاولة، وهو يردد:

- خذلني مفتاح الفلاح.. خذلني يا ميخائيل بك.

- ماذا حدث؟

- قرأ الخطبة كما نقلتها من الكتاب، و لم يزد حرفاً واحداً.

كان كلاما غريباً لم أفهمه، ولعلي كنت قاصر الفهم تجاهه، فالرجل الذي التزم بما أرادته السلطة، لم يخذلها حقيقة، ولكنَّها كسبته، والرجل الذي تجاهل كل إرهاصات الحرب بما فيها، شح السلع وغلاءها وإمكانية الموت جوعاً لا سحلاً تحت أقدام الجهاديين، وطيب خاطر الحكومة في تلك الجمعة، هو رجل حكومة، وليس رجل خذلان..

- ماذا تقصد سيدي الحاكم؟

- لن تفهم يا ميخائيل بك.. كنت أريد رجلاً بصوته الخاص، لا صوت أمنحه له.. كنت أريده صاحب رؤية وخطط لأستنير به، حتى لـو سبَّنا.. حتى لو حرض علينا الجهاديين، حتى لو خرج المصلون إلى الـشوارع وهم يحملون العصي والسكاكين في وجوهنا. مفتاح الفلاح لا يصلح في هذه الأزمة، وعلينا تغييره.

لم أكن أفهم فعلاً، ولا عاودت الإلحاح سعياً وراء ذلك الفهم.. حـتى بعـد أن صـدر ذلك القرار السريع جداً، بإعفاء الشيخ مفتاح الفـلاح هـارون، من إمامة الجامع الكبير، والاكتفاء به مصلياً وسط أولـئك الناس الذين ظل يعظهم لأكثر من عشرين عاماً، وتعيين خلف لـه في غـضون عـدة أيام. لا بد أن الحاكم قد جن، أو رمته الأزمة بوسـواس مريـر.. لا بد.. هكذا فكرت، وأنا أشاهد وجهه ما يزال سـاحة للوجـوم، يديه تعبثان بالطربوش الأنيق، تكورانه ككرة، أو تطويانه كسفينة، وكيكور الإفريقي يهتف بإلحاح:

- مفتاح الفلاح لا يصلح.. لا يصلح..

كانـت أحـبار (الذكرى والتاريخ) قد عملت بكفاءة، والآن شاهدنا ونحن على ظهري حصانينا في الطريق، خطبة الجمعة قد دونت كاملة، وتحتها كتب: نقلها بغير تصرف، الإمام يوسف دامير.

- 6 -

مقهى خزي العين الفريد في مدينة (السور)، لكن الطعم مختلف، والمدينة المضطربة تحت ثقل الغلاء والشح والهلع، وإرهاصات حرب قد تقــع في أي لحظة، على موعد مع عرس غريب، يتم في زمن غريب.. عرس الملكة التافهة الحبيبة نديمة مشغول، والعسكري الذي لم يصل إلى قلبها أبداً.. البكباشي صبير.

أزيلت شجرة التبلدي التي كانت تموت في حوش المقهى، بمعاول قــوية ونــشطة، لأن نديمــة شتمتها ذات يوم، حين كانت تستفرغ، وتظنها البكباشي صبير.

جــددت مقاعد وطاولات جلس إليها على مدى أعوام طويلة، وهو يائس وقلبه محطم، وعدلت تذكارات مريضة، كان قد كتبها على حــائط أو مقعد ذات يوم،. ولم توضع أية زينة أو إضافات مبهرجة، لأن العرس كان متعجلاً، وفي زمن بلا زمن، وسينتهي في غضون ساعة فقــط، هــي زمــن الأيدي التي ستبارك، والأغنية الوحيدة التي ألّفها قريبــــي (مــسمى طــاؤوس) خصيصاً ونال أجرها، ليؤديها جريح وفــرقته وينتهــي كل شيء. لم يكن للملكة نديمة أهل أو أقارب في (الــسور) ليــزفوها، ولا كان لصبير كذلك، الذي لم يكن أصلاً من (السور)، وماتت امرأته منذ زمن بعيد.

جاء الحاكم برفقة الزوجة الرسمية التي كانت تركية بيضاء شديدة الهــزال ولا تجيد من اللغة سوى كلمات اضطرارية قليلة مثل (السلام

علـــيكم) و(عليكم السلام)، وليس خليلة الزنج المخبأة في ذلك الركن البعـــيد، حيث النـــزوات، وجئت برفقة خطيبتي (حميلة)، لأنها أرادت مشاهدة عرس، حتى لو كان بلا زينة ولا رقص ولا مرطبات، وفي زمن لـــيس للأعـــراس. كانت ترتدي زينتها كلها، وتحاول السيطرة على العـــيون كلـــها، لكنَّها لم تسيطر في الواقع، سوى على عيني وحدي، حـــيث كانت العيون كلها مجندة ترفرف حول الملكة نديمة، تحاول أن تجعلـــها عروساً فعلية، لا صاحبة مقهى جاذب، وإمساك مزمن ودورة شهرية متعثرة.

كانـــوا قد منعوا (ولهان الخمري) من الدخول، حين جاء برفقة يائـــساته المحطمات، وعدد آخر من خرائب حي (ونسة)، لابتكار زفة تاريخـــية يهـــديها للعروسين متجاهلاً تدريباته ليكون قليلاً للذوق في الحـــرب القادمة، منعوا (عطايا) بائع الروب المبتسم في حلته الجديدة، لأن عينه كئيبة ولأن الملكة نديمة نوَّهت مراراً إلى إعيائها الذي حدث حين تجشأ، ووصف وجبة (تمبرة التمبرات)، وسمحوا للجرداء أم العيال السبعة أن تبكي وتتلاشى في ركن لا يقع تحت النظر، وبصعوبة شديدة اســـتطاع المغني (جريح)، صاحب الفقرة الوحيدة في الحفل أن يدخل، لأن جنود الخيالة الذين يحرسون المدخل، لم يسمعوا أبداً عن مغن اسمه جريح، وأغنية اسمها (طير يا حمام.. طير فوق). ولأن قريبـــي (مسمى) كان شاعراً مدح شرطة الخيالة في أكثر من مناسبة من دون أجر، فقد وجدتـــه داخـــل الحفل، ويحكي للناس بترف وابتسامات عريضة، عن أغنية (الملكة نديمة) التي ألفها خصيصاً، وسيستمعون إليها بعد لحظات.

قلـــت للـــيهودي (إيزاك) وأنا شارد الذهن، حين أراد رأيي في مـــسألة تسييح الذهب، وتحويله إلى كتلة كبيرة، تدفن في مكان أمين حتى تنتهي الحرب:

- لا أدري.

وقلت له حين أراد تفسيراً لتلك (اللاأدري):

- لا أدري.

ابـــتعد في اتجــاه الإغريقي (فندوري)، تاجر الخمر المعتق، غالي الثمن، ورأيتهما يتحاوران، ثم يتبسمان معاً كأنهما توصلا إلى حل.

في ذلـــك اليوم، وقبل موعد العرس بعدة ساعات، وصل بصعوبة إلى مدينة (السور) اثنان من الأتراك، كانا قادمين من الغموض، ومن حيث لا نـــدري إن كان ثمة نار مشتعلة أم مجرد لهب قنديل، وخمنت إنهما يحملان رســـالة ليوســـف دامـــير من الإنجليزي، حاكم البلاد العام. كانا هزيلين وجـــائعين، ويركبان على حصانين سقطا من التعب، بمجرد توقفهما عند مجلس المدينة. كانا (أرقم) و(جاويد) أشهر رسولين في الحكومة، وأكثرهما معرفة بالطرق، وتفادياً لوعورتها وقيل يملكان حيلاً بلا حصر، وشبكة من الأعـــراب وقطاع الطرق، ترشدهما حتى في أشد الليالي حلكة، ولم يكونا يرســـلا إلا حين تكون الرسائل مصيرية، والخطب ليس جللاً فقط، ولكنه أكثـــر من ذلك، وكنت قد شاهدتهما لآخر مرة منذ سنوات طويلة، حين جـــاءا يحملان أمر إعفاء أبـــي من منصبه كجامع للثروات، وتعييني مكانه والـــذي كان أمراً مركزياً، لا يخضع لسلطات حاكم الإقليم. منحا وجبة سريعة من لحم ظبـــي مطبوخ، جاءت من بيت الحاكم على عجل، أكلا نـــصفها، وغطـــيا نـــصفها بمناديل ورقية، منحا وسادتين لإسناد الظهر، ومـــشطين من الحديد، لتدليك فروة الرأس، ومرهما من عصارة لحاء شجر السنط، يستخدم في علاج (البواسير)، ولم يمنحا شايا أو قهوة، لأنهما ضد اســـتهلاك الترف في الأزمنة العصيبة، كنا متوترين، أنا أعبث بشاربـــي، والحـــاكم مـــستخدماً يديه الاثنتين، يهش بهما ذباباً غير موجود في القاعة النظيفة الملحقة بمكتبه..

- حسناً.. ماذا لديكما؟

- رسالة من الإمام المتَّقي.

رد أرقم، وإحدى يديه في جيبه.

- المتَّقي؟.. ما علاقتكما بالمتَّقي؟

التقط (جاويد) اضطراب الحاكم بابتسامة، ولعل ابتسامته كانت حادة أكثر مما ينبغي، لأن الحاكم اعتبرها خنجراً، واعتبرها نصل سكين، ومد يده يتحسس قلبه. بدأ يحكي، وزميله يدخل إلى فقرات الحكي بين لحظة وأخرى، ليسد فجوة، أو يلقي بضوء مشتعل. كان الحاكم الإنجليزي قد أرسلهما في الواقع، لمحاولة العثور على الإمام المتَّقي، ومفاوضته، حين أصبحت ثورته واقعاً خطراً، وليس أحلام حالمين، كابوساً يتبختر في نهار اليقظة، وليس في عرق الحلم، وفي رحلة استغرقت ثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً، تقلبا فيها بين الجوع والعطش، وحمى المستنقعات، وبمساعدة الأعراب الرعاة، واللصوص، وقطاع الطرق، والمغامرين الذين يحكمون صحراء (شرشر) الجرداء، بأسمال وخرق بالية، وفتافيت خبز، عثرا على معسكر متأجج في إحدى القرى التي تم غزوها بواسطة الجهاديين، ودخلاه بسيفين حادين يلتصقان بظهريهما.

كنت أرتعد، والحاكم يرتعد، والستارة الزرقاء على النافذة ترتعد، والإفريقي (كيكور) يرتعد، يحاول التقاط اللغة ولا يقدر عليه.. يسمي المتَّقي.. المتكي، يسمي السيف، ولد الطيف، ويحشر (المزينة) زنجية الحاكم، في مكان خطر، حتماً سيجز عنقها لو حشرت فيه. الذباب غير موجود في المكان النظيف، وكلانا، أنا ويوسف دامير، نهشه بأيدينا.

أخذوهما إلى خيمة مبعثرة، قال الرسولان إنهما لم يريا في حياتهما، وحتى عند عرب (الظلمان) المعروفين برداءة السكنى ورداءة الترحل،

أشـــد بؤساً منها. كانت في الواقع خيمة فقط، ولا شيء آخر. كانت محشوة بالملثّمين، الذين كما يبدو، كانوا يستمعون إلى خطبة أو درس، لأن صـــوتاً ممتلئاً كان يفيض في المكان مردداً.. من منا لا يحب بنات الحور.. من منا لا يحب الخلود في جنة تجري من تحتها الأنهار.. من منا لا يود قتل الكفرة، من منا لا يود الوصول إلى عقر دار الكفر، ويجتثه.. مـــن منا.. لم ينقطع الدرس حتى حين حشرا في وسطه حشراً، وحين تلفتا برعب ليكتشفا مصدره، حيث كان يأتي من خيمة ملاصقة، وعبر فتحـــتين صـــغيرتين، أحدثـــتا في الخيمـــتين. وحين انتهى في النهاية، واكتـــشف الملثمون وجودهما، وكشرت أنياب الجهاد وسيوفه، انبعث الصوت مجدداً.. لا تمسوا الرسولين.. لا تمسوهما يا أحباب.. ارحلوا.. ارحلوا.

تنفـــست بارتياح، وأنا أتخيل تركيا الرسائل، أرقم وجاويد، قد تنفـــسا بنفس الارتياح في تلك اللحظة الرهيبة، هذان المغامران اللذان طالمـــا فكرت في سبب امتهانهما لمهنة قد يسقطا فيها ذات يوم ميتين. تذكـــرت حميلة لثانية فقط، وفكرت.. هل كان لهما حميلتان أيضاً؟، وهـــل خططـــا لمستقبل وردي ضاع ذات يوم، انتهت ثانية التفكير. وعدت إلى خيط الحكي ألتقطه..

فرغت الخيمة في ثوان معدودة كأنها لم تكن تحوي سواهما، وكانا وحيدين وعالقين في مواجهة الصوت الذي كان مفصلاً لربط الآلاف إلى وتـــده، والآن يـــربطهما فقط، وبنفس مقدرته الغريبة. استمعا في الـــبداية إلى تعـــريف موجز عن مغزى الثورة، ليست ثورة جياع كما يظـــن الكفـــرة والملحدون، ولكنّها ثورة عزة، لم تقم من أجل الدنيا، ولكن من أجل الدين، ولن تنطفئ أبداً، لأنها أوقدت بيد الحق، وليس يد الباطل..

لم تكن ثمة فرصة ليبلغا رسالة الحاكم العام أو يطمحا في مفاوضة من أي نوع، وبدا إن الصوت كان يعرف، ويجلدهما بمعرفته:

- لن نرد على رأس الكفر، ومغتصب خير البلاد، لأنه هالك في القريب العاجل إن شاء الله، ولكن نحملكما رسالة إلى التركي، مغتصب مدينة السور، هو من ملتنا، ولكنه عالق بأذيال الكفر.. خذا رسالتنا وارحلا في سلام.. سلام علينا وعلى المتقين، وبئس للكفر وأذياله.

انقطعت حبال الصوت، وتحررا، وجاء عدد من الملثّمين، لم يمسوهما أبدا، فقط سلموهما الرسالة، ثم أخرجوهما من المعسكر إلى فداحة الطريق. كانا منهكين وجائعين، وعلى قناعة تامة بأنهما التقيا بصوت المتّقي، وتلك الرسالة التي سلمت لهما، هي رسالة منه بكل تأكيد.

كانت الرسالة الجمرة، في يد الرسول أرقم، ويوسف دامير لا يلمسها، يخاف أن تحرق أصابعه لو لمسها.. وبصوت مرتكب النزوات المرتعش الذي واجهني به في بيت خليلة الزنج (المزينة) يوم أن حدثته عن الثور وقرونه، يردد:

- خذها أنت يا ميخائيل.. اقرأها أرجوك.. اقرأها كلها حتى لو جعلتني فاسداً.. لو جعلتني مخنثا كولهان..

لم أكن في حال أفضل من حاله بلا شك، وقد وصفه المتّقي في حديثه للرسولين إن كان ذلك الصوت هو فعلاً، صوت المتّقي، كواحد من الملة، لكن متسخ، بعكسي الذي قطعاً أتبع بعقيدتي القبطية، لذلك الهالك في القريب العاجل.. أنا هالك في القريب العاجل إذن، هالك بلا مستقبل وردي في ظلال (حميلة)، بلا مجد ولا أحلام ولا أي شيء آخر. كدت أبكي لكني تماسكت، ليس من أجلي، ولكن من أجل هيبة

للحاكم رأيتها تتمزق أمام رسولين قد تعلق في ذهنهما ممزقة، وأود أن أرتقهـــا، حين أرتق هيبتي الشخصية، استلمت الرسالة من يد التركي، وشممـــت مـــا ظننـــته رائحة مسك تفوح من ورقها الأصفر الخشن، فضـــضتها لأقـــرأ، وكانت قراءة عادية متماسكة، وكأني أقرأ قصيدة (ضمني يا حب)، للإسباني (ريماس) التي حفظتها حتى بأخطاء ترجمتها، لأن حميلة كانت تحفظها كذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

من الإمام المتّقي.. قائد ثورة الجهاد، وناصر الحق، والمنادي بعزة الوطن ورفع هامته، وراياته الشماء، إلى التركي، ذيل الكفار في مدينة من أنقى المدن في البلاد..

أما بعد.

(فإنـــه لا يصح إلا الصحيح، ولا يبطل إلا ما هو باطل في الأصل ومنبوذ، وما كنا لنخاطبكم، أو نخسر دواة وحبراً لنراسلكم، إلا حقنا للـــدماء، ومخافة من انغراس الرمح في صدر يقول لا إله إلا الله، وإنكم قـــد بـــذرتم الثروة، وربيتم الجوع، واتخذتم الغواني خليلات، وجعلتم للفـــساد أجنحة، وللهو أمزجة، وابتعدتم عن الدين، حتى لكأن مآذن (الإســـتانة) تستغيث، و(الفاتح محمد)، يتململ في قبره وإنكم قد جئتم إلى البلاد أذيالا، وبقيتم أذيالا.. وإن العفن قد فاح حتى شممناه، وبدأنا التطهير. سلمونا مدينة (السور) بخيرها وشرها، بطهرها ودنسها، ولكم العهد أن نطهركم، ونسقيكم المجد ونعلمكم ما خفي عنكم، ونجعلكم خـــدماً للعـــزة. سلمونا الزنديق (طلحان)، الذي تطاول علينا وعلى عقيدتـــنا، ونعـــرف بأنـــه يحتمـــي بكم. سلمونا العازبات والأرامل والمطلقـــات لنـــــزوجهم من حاملي ريح الجنة، فلا حياة مجيدة لمدينة تحـــوم فيها الشبهات. فإن فعلتم بما أمرنا، صدقنا فيما أخبرنا، وإن لم

تفعلــوا، خبتم وفزنا في الدارين.. هذه الفانية وتلك التي نشم ريحها.
يقول سيدنا وإمامنا (أبو عامر) رحمه الله:

وما تلك الحصون.. حصون مجد
يرفرف في الحضور وفي الغياب
ولكن مرتعاً في يوم بأس
تؤججه الخناجر في الرقاب.
سلام على المتقين وبئس لأذيال الكفر والمنافقين).

انــتهت الرســالة الجمــرة، انتهت قصيدة (ريماس) الحالمة بكل هوســها، وألغازها، وبقي سؤال ملح، كان يضغط على ذهني، وأظنه يــضغط أيضاً على ذهن الحاكم الذي بلع كل شيء ورد في الرسالة بما فيه شعر الرقاب وجزها، وتململ (الفاتح) في قبره، و لم يستطع أن يبلع ذلك التساؤل:

مــن هــو الــزنديق طلحان، الذي تطاول على المتَّقي وعقيدته، تطاولاً جعله فقرة هامة في رسالة مهووسة كهذه؟، وكيف يحتمي بنا، وأنــا لم اسمــع به أبداً من قبل، ولا سمع به يوسف دامير.. الذي يحك رأسه العاري، ويتجهم، يسألني:

- من هو الزنديق طلحان يا ميخائيل بك؟ من هو؟

كــنت أفكر بضراوة، والجلسة الآن صامتة. الرسولان صامتان.. الحــاكم صامت بضراوة، ولعله يفكر مثلي، والإفريقي (كيكور)، لم يــستوعب حــرفاً جديــداً، وصمت. من (طلحان) يا عقلي جامع الــضرائب، الــذي لا ينــسى حتى ماشطات الشعر، وبائعات حلوى (المــشكول) الفقيرات في هجير الشوارع، ليستخرج من فقرهن ثروة؟ كنت في الواقع، خبيراً في أسماء القبائل، خبيراً في ألقابها بحكم احتكاكي الطــويل بها أثناء تجوالي لآتي بالحصاد، التقيت بأسماء قريبة الشبه باسم

ذلـــك الزنديق، لكنني لم ألتق باسمه أبداً، لا عند البدو ولا عند الحضر، ولا حتى في اليهود أو هنود البنيان الذين جاءوا إلى البلاد بأسماء غريبة، وأنـــتجوا أجـــيالاً بأسماء أغرب. في لحظة من لحظات اليأس، شككت بـــأنني زنديق وإن اسمي طلحان، شككت في قريبـــي الشاعر (مسمى طاؤوس) لأنه معتاد على اتخاذ أسماء بذيئة وغريبة التكوين حين يواجه بمـــأزق، وأيـــضاً فـــيه خامات الزنادقة الذين لو دعى الأمر لتزندقوا. شككت في صهري جماري، تاجر الشبع الكبير، وحتى في القائد موسى عرديب، وإمام المسجد الذي أقيل، سيدنا (مفتاح الفلاح).

قلت وذهني مريض، والصمت على أشده..

- أمهلني بعض الوقت سيدي.. وسأعثر عليه.

كـــان الرســـولان قد طلبا من الحاكم أن يجهز لهما مخدعاً في أي ركـــن من أي شارع، أو حتى إسطبل للخيل، لأن النوم لا يأتيهما أبداً في الغـــرف ذات الهـــدوء والبهرجة، ولأن الشوارع كانت متاحة ولا تحـــتاج إلى تجهيز، فقد خرجا ليتركانا نتحاوم حول رسالة الجمر. أنا أحاول أن أعدل الهلاك، أحوله إلى دعابة، والحاكم الذيل لا يحاول أن ينقطع عن جسد الهالك الأكيد، ولكن ينقب في البحث عن ضوء.

اليوم كنا على موعد مع العرس الغريب للملكة نديمة، وسنذهب ونحـــضر بوجهين لا يفصحان أبداً عن صدمة.. هكذا اتفقنا، سأنسى هلاكي الذي على وشك الوقوع، لأنني من ملة الهالك الذي يرقد بعيداً في عاصـــمة قـــد لا يمسها ضر أبداً، والنجدة تأتيها عبر بواخر النيل، وطـــرق الـــسفر، وسينسى يوسف دامير مؤقتاً، إنه ذيل يعذب مآذن (الأستانة) وقبر (الفاتح)، وإنه بات مسئولاً أكثر من أي وقت مضى، عـــن مديـــنة تقترب النار من أطرافها، وتلك المعضلة الكبيرة.. معضلة الـــزنديق طلحان. لقد كنت في قمة الفضول برغم كل شيء، أريد أن

أعرف من ذلك الذي ذكره الهوس، ربما لأصادقه أو أندهش أمامه، فقد دخل التاريخ بلا شك، ولكن من باب يدخل منه الميتون.

أراها نجمة وسط الحضور

تلوّح بالبراءة والحرير

نديمة يا حبيبة كل قلب.

ويا نبع المدينة والغدير.

كانـــت الطبول تتراقص، المغني جريح ملعوناً حين يرفع صوته إلى أعلى، ويرميه في الحضور، يرفع ويرمي، ونتزاحم حول عروسين غريبين في زمن غريب.. مبروك يا ملكة.. مبروك يا بكباشي، وزمن الحفل قد انتهى، ليبدأ زمن الرعب.. احتككت بقريبـــي مسمى طاؤوس، وهو منـــتفخ يطالع المسرح الخالي حيث بقايا أغنيته ما تزال عالقة، سألته في يأس.. هل أنت طلحان الزنديق يا مسمى؟

حدق في وجهي مندهشاً:

- طلحان الزنديق؟.. ما هذا الاسم المهلهل أخي ميخائيل؟..

أخذت (حميلة) إلى بيتها، وأنا أحسدها على أحلامها الملونة التي حـــتماً ســـتحلمها برفقة عطر (هابـــي دريمز)، كنت مزروعاً في لجة الليل، على ظهر فرسي العبّار، أحدق في الظلام، ولا أعثر على شيء.

-7-

الفأس تقترب من الرأس.

والـــنار الـــتي أوقدت بترف حول مدينة السور، والتهمت جزءاً كـــبيراً مـــن أقاليمها، الآن لها أزرع من لهب حقيقي، بدأت تحلق في المديـــنة بلا هوادة. رجع عدد من المستكشفين الذين أرسلناهم للتقصي أو الاندســـاس في اللعـــبة ومحاولة تفكيكها، وكانوا مضخمين بألسنة تحكـــي المـــرارة، وأعـــصاب مهتزة بالكاد يتماسكون بها أمام الأسئلة والأجوبة، وقد أخبرتنا (حمائم رحط) التي كانت شابة من إحدى قبائل الـــبدو، تخصـــصت في قـــراءة الكف وأجادتها، وتطوعت باختيارها للـــذهاب إلى منبع النار برغم اعتراضي واعتراض الحاكم، إنها أرضت فحولة مائة همجي شربوا دماءها ودموعها، ولا شيء آخر، غير ألم في الحـــوض، ووخز في الصدر، وأعراض مرض (الداموس) الذي كان من أمراض حي (ونسة) المتسخ.

أخبرنا آخر. إنه نجا بلا أسنان، ولم يقل ثالث شيئاً، لأنه عاد بلا لسان.

كـــنت أتـــساءل، ولا ينقطع عن ذهني التساؤل، هل فعلاً ثورة جهـــادين تلـــك التي تشتعل وتأكلنا كحطب وقش، أم فوضى فقراء ومشتهين ومخابيل لا يفرقون بين دم ودم؟.

كـــنت في طريقي لزيارة (شفيق بهجت) الذي كان مصرياً مقيماً في مدينة السور منذ زمن بعيد، ويعمل في تدريس علم الانحطاط، الذي

لم يكن علماً نافعاً في رأيي ورأي الكثيرين ممن أعرفهم، ولا يجد إقبالاً كبيراً من أبناء المدينة، ودارسوه بالكاد يحصلون على لقمة العيش، ولطالما شككنا في أمر ذلك المصري، شككنا بأنه هو الذي أسس جماعة الذكرى والتاريخ، تلك الجماعة السرية، التي تزعجنا إلى حد ما، بالرغم من تعاملنا معها أحياناً، وتزويدها بالمعلومات التي نود رؤيتها على الحوائط بإلقائها في الطرق، وتلتقطها أحبارهم لتدوينها بعد ذلك.
لم تكن تلك الزيارة من تفصيل حاكم المدينة دامير، ولا كان سيرضى لو علم بها، ولكنّها من تفصيلي الشخصي، حيث تذكرت ذلك المدرس الغريب فجأة، وأردت أن أسأله عن مفهومه لتلك الثورة، وأيضاً إن كان يعرف زنديقاً اسمه (طلحان) ضالعاً في تسمم الجو.

استقبلني المصري الذي كان أعزباً وانطوائياً لا يظهر في المدينة كثيراً، ويكن كرهاً معلناً لحكومات الدنيا كلها، في الطريق العام، رافضاً حتى أن تطأ قدمي أرض بيته الذي كان في حي (أرض الكوثر)، ذلك الحي الذي اخترعه الفقر بجدارة. نادى على غلام عابر، أعطاه بعض النقود، وكلّفه بإحضار علبة من تبغ (الدردار) الخشن، وواجهني في برود وسوء ظن لم أستغربه:

- عندي خمسة تلاميذ فقط يا سيد ميخائيل.. لا أحصل منهم إلا على القليل، ولا تنطبق علي شروط دافعي الضرائب.

- لم آتي لأسألك عن ضريبة، ولكن عن ضوء.

- لست فانوساً لأضيء لأحد. أنا معلم كما تعرف.

تجاوزت عن بروده وتعاليه، وكرهي باعتباري حكومياً تافهاً يستضاف في الطرق بين السابلة، وأيضاً عن رائحة تبغه الخانقة التي تحاومت حول رئتي، ودخلت إلى تساؤلي، وفوجئت إن الرجل كان ملماً حتى بأخبار تلك الثورات التي اندلعت في أحراش إفريقيا،

وصحاري العدم، ونتوءات بحر البلطيق البعيد، طاف بي في رموز وألغاز، وحدثني عن علم الانحطاط الذي تخصص فيه، باعتباره العلم الوحيد الذي من خلاله تتجادل الأمم، وتتعرف على مصائرها، نحن نبذر الانحطاط حين نجوع الناس، حين نعريهم من كسائهم، حين نطالبهم بتأمل النجوم وكتابة شعر الغزل والتنزه في السوق والساحات الخضراء، وحين نخترع ثورة مثل ثورة المتَّقي التي ليست من تأليفه بالتأكيد، ولكن نحن ألّفناها، وعينّاه ممثلاً يؤدي دور ثائر.. لا تنظر إلى الواقع المحيط يا سيد.. ولكن حاول النظر إلى الواقع الذي يحتويه المحيط.

- وذلك الجنون في أتباعه.. تلك الأخطاء الرهيبة؟

- قد يكون ذلك من مكونات السيناريو المكتوب يا سيد، وقد يكون خروجاً عن النص، يحدث حتى في أكثر النصوص إحكاماً، عليكم بالعثور على النص الأصلي - ومقارنته بالذي يمثل أمامكم.

- وطلحان الزنديق؟.. هل تعرفه؟

- أين سمعت بذلك الاسم؟

لم يكن من المناسب أن أخبر رجلاً يمقت الحكومة صراحة، وتشك هي في أمره باعتباره محرض الحوائط الأول، بما تضمنته رسالة مهووسة وردت إلينا، لكني كنت أحترمه بشدة في تلك اللحظة، أحترم إضاءته المحتملة لما كان خافياً، ولعله يضيء أكثر لو أضأت أكثر. لا يهمني ما قد يصدر من لوم في حقي من قبل حاكم المدينة، لو وجدت الرسالة مدونة على حائط أو مرسومة على رمل الطرق، ولكن أريد الصيد في هذه اللحظة بالذات:

- شخص طالب به المتَّقي في رسالة غريبة بعث بها إلى الحاكم، تطالبه أيضاً بتسليم مدينة السور حقناً للدماء.

كان المصري الانطوائي يضحك، لفافة الدردار هي الخامسة التي يشعلها وأختنق، والسعال الذي يرافق ذلك النوع من المتعة، جاف إلى أقصى حد، ولأول مرة اقترب مني، ضرب بيده على كتفي، وقال من بين ضحكاته:

- لـــستم أذكياء يا سيد ميخائيل ولا أستغرب أن يأكلكم المتَّقي في وجـــبة واحـــدة، طلحان الزنديق ذلك، ليس شخصاً من لحم ودم، كما تصورتم ولكنه رمز.. نعم رمز لكل من ابتسم أو ضحك، أو شم عطـــراً أو نـــام أو قعد، أو صافح صديقاً، والثورة تشتعل.. باختصار شديد.. جميعنا في النار.. جميعنا طلحان الزنديق.

غـــادرت الانطوائي المصري، ولا أعرف حتى في أي يوم من أيام الأسبوع كنا. كنت أطالع الزنديق طلحان في السوق الكبير، في سوق (أبـــي جهـــل) الـــشعبـــي، في شـــوارع الحفر والغبار، في ملتقى مواصـــلات الريف الذي كان خالياً إلا من حمارين هزيلين، وراكبين عـــصبيين، يصران على الرحيل، وخزي العين المغلق بإصرار، بدواعي شهر العسل، خاطبت أبـــي رجائي، بلقب طلحان، وظنه اسماً جديداً لإصـــبع الخاتم المفقود، وسد أذنيه عن سماعه، وقلت للحاكم دامير في مكتـــبه وأمـــام الرسولين التركيين الذين كانا هناك، ويسألان عن رد الحاكم على رسالة المتَّقي، ليحملانه:

- لقد حللت معضلة طلحان الزنديق يا سيدي.. ولكني في الواقع عقدَّتها أكثر.

- وكيف ذلك؟

هتف الحاكم.. ويداه كالمعتاد تهشان الذباب غير الموجود.

وباختصار وضع كل حرف في مكانه من دون زيادة، حكيت له عن إضاءة المصري بهجت، مدرس الانحطاط الذي يكرهنا ونكرهه، ولم

أحـــس في عيني الحاكم لوماً، أو بوادر قصاص قد يقتصه مني، تنهد في ارتـــياح مؤقت.. مزق رسالة يبدو أنه كان قد شرع في كتابتها، وفي ســـلة للمهمـــلات، كانت ترقد تحت مكتبه، بحث عن أكثر الأوراق اتساخاً، بصق فيها بصقة كبيرة، ثم كورها، سلمها لواحد من الرسولين التركيين قائلاً:

- هذا رد طلحان الزنديق.. خذاه للمتقي.. مع التحية والسلام.

وضـــعها الرسول في جيبه من دون كلمة، ونهض متبوعاً بزميله.. وخـــرجا.. كـــنت أنظر إليهما وأكاد أدمع.. أرى رجلين لا يحملان منكـــراً صـــريحاً فقـــط، ولكـــن كفناً متقناً، فصله لهما ذلك التركي المتغطرس، وفي لحظة من لحظات التعالي المحتضر.

- قد يهلكا يا سيدي.

صحت..

- لا تهـــتم يا ميخائيل بك.. لقد هلكا في اليوم الذي غادرا فيه العاصمة.

كـــان (ولهـــان الخمري)، ضيفاً غير مدعو من أحد، لكنه اقتحم جلستنا فجأة، شممت رائحة عطره الصندل وهو بالباب، وشمها الببغاء (كيكور) الذي أخذ يصيح في هستيريا.. قليل الأدب.. قليل الذوق.. ولهـــان.. يـــا مزينة.. لم يدعه الحاكم للجلوس، وخاطبه مباشرة كما يخاطب عنـــزة خرجت من مراح:

- اذهب يا خمري عن وجهي.. وعد حين يصبح أنفي مزكوماً.. يوم تؤدي وظيفتك، واقتنع بأدائك.

- لكن يا جنتل..

تلـــك العبارة التي تزعج الحاكم، وتزعجني أيضاً، ولا يود ذلك السفيه تحسينها، ورفعنا إلى درجة (البكوية)، أو على الأقل رفع الحاكم

الـــذي يحمـــل تلك الدرجة بالفعل. رجوت يوسف دامير أن نسمعه، وقلـــت له، قد يكون حائراً ومتخبطاً، ويحتاج إلى إرشاد، لكن الحاكم كنسه بشدة، كان يصيح منفعلاً:

- لا نفـــصل للسفاء وظائفهم.. هم يجيدون تفصيلها أكثر منا.. اذهب.

وحين خرجت بعد ذلك، تاركاً الحاكم في فوضاه بعد أن أخبرني صـــراحة بحاجته إلى ساعة فقط في بيت النـــزوة، عند المزينة لتجميع بعـــض الأفكار، وجدت ولهان ينتظرني، كان متوتراً وغاضباً، وصاح بصوت الأنثى في ساعة الترمل:

- لماذا توظفونني وتنسونني يا جنتل؟.. بيتي بلا دقيق ولا خبز، ولا مـــرق، وإحدى قواريري، تموت من حمى النفاس.. ولا أعثر على ثمن لبخة (القرض) لأداويها.

بكى، وكان بكاء حقيقياً شارك فيه كل جسده الهرموني، بما فيه ثدياه المتضخمان. لقد أغلقت بيت ولهان بالشمع الأحمر في ذلك اليوم، أوقفـــت تجارته إلى الأبد، ونسيت في قمة انشغالي بإرهاصات الحرب، إن في ذلـــك البـــيت أرواحاً تعيسة، كانت تدق على طبل الصفيح.. تغني.. وتكاد تبكيني:

لا تلم يا لائم
نحن ذكرى حمائم
الحياة لعوبه
والهوى أكذوبة.

كـــنت علـــى ظهر فرسي العبَّار، وولهان على ظهر حمار بطيء، وتعـــب، طفـــت به على محلات الغذاء الشحيح في السوق، من دون إحـــساس بأنني أجر عاراً، أو فضيحة برغم آلاف النظرات التي كانت

تجلدني، ومئات الأسئلة التي أتلقاها ولا أردها، ملأت حماره بما استطاع حمله، ووضعت على يده كل قرش وجدته في جيبـــي..

- 8 -

جلست بجوار (حميلة جماري) في بيت والدها الأنيق، في حي (كاهير) الراقي، حيث أقيم وتقيم هي، ويقيم معظم أثرياء المدينة ووجهائها. وقد اكتمل الشقاء لاستقبال المتَّقي وأتباعه، ودحرهم الكبير، الذي أكده قادة الجيش بعد أن رتقوا صقورهم ونجومهم على الأكتاف، وأزالوا رائحة العتة من ثيابهم، و لم أستطع تذوق ذلك الطعم أبداً.

كانت ساحة المجد قد حفرت كلها، وجهزت كخنادق آمنة لاحتواء المأزومين والعاجزين والذين قد يجرحون في الحرب أو يصابون بالهستيريا، الخنادق عند مدخلي المدينة المحتملين، مملوءة بالحطب والقش وثقاب إشعال النار، وعدد من الخطط والمناورات التي استخرجت من كتاب (فاسكو) العسكري، الذي وصفه الحاكم بالسخف، قد وزعت، ورصت طوابير من المجندين الذين حصدوا من الأحياء، ودربوا على قرقعة السيوف، ووخز الحراب، واستخدام البنادق الصدئة، على عجالة، أمام تلك الخنادق.. لم تكن ثمة أخبار، أي أخبار من حكومة العاصمة البعيدة، ولا سمعنا بجيش جرجار ولا حتى حطام جيش، في طريقه إلى نصرتنا، وأرقم وجاويد، رسولا الهلاك، التعسان.. غادرا بالكفن متقن التفصيل، ولا يعرف أحد إن كانا ما يزالان رسولان قد يعودا بجمر جديد، أم جثتان مهملتان في عراء التيه بلا غطاء ولا قبر.

كـــنا في مـــرجل يغلي، يغلي ويغلي، ولا أحد يملك القدرة على إطفائـــه. كان الغلاء على أشده، الجوع على أشده، العري على أشده، ولم تكـــن الـــتظلمات الشعبية تأتي همساً كما كان في السابق، ولكن ألفاظـــاً نابـــية نسمعها في ترف، وحجارة تلقى على مجلس المدينة بلا توقف، ونبال صيد للعصافير حولها الصبية الجائعون إلى نبال رجم ممتلئة بالمأســـاة، ولأول مرة ظهرت في المدينة بوادر مرض (التخمة الكاذبة)، الذي يصيب المصارين بالهلع، فتضخ غازاتها وتنتفخ حتى الموت.

كـــان الحـــاكم دامير قد سعى وفي وقت متأخر جداً، إلى محاولة ســـحب عبارة (ما ترونه مناسباً) من الأسواق، وآذان تجار لم يحفظوها فقـــط، لكنهم ملأوها بالحطب، وحولوها إلى موقد، واستبدالها بعبارة أكثـــر ملاءمة، بعد أن اكتشف مرارة طعمها الذي حرمه شخصياً من لحوم الظباء المجففة التي يعشقها، لكن التجار كانوا حذرين، وملاعين، ولهم قراءات لا تتبع الواقع تماماً، ولكنّها تخترع واقعها، كانوا يرون في الحـــرب القادمة برغم كل الدلائل، وأحبار الذكرى والتاريخ التي توثق باستمرار، مجرد كذبة كبيرة، وميدان ثراء جديد، تعود بعده الحياة إلى مجراها الطبيعي. اجتمعنا بتجار المحاصيل، وتجار الكساء، والذين يبيعون الـــشمع وصـــابون الغـــسيل، رفعنا أصواتنا ورفعوها، مددنا الأيدي ومدوها، اشتبكنا واشتبكوا، وخرجنا بنتيجة أن الذي يستطيع أن يأكل ويلـــبس، ويضيء ليله ويستحم، هو الذي يستحق أن يبقى مواطناً بعد الحـــرب... وكانت نتيجة بشعة، لخصها صهري (جماري)، نيابة عن زملائـــه مـــن التجار. وألقى بها حارة وحارقة، ليس في وجوهنا نحن مسئولي الحكومة فقط، ولكن في وجه المدينة كلها.

في إحـــدى الليالي، كنت برفقة الحاكم دامير، على ظهر فرسينا المرهقين من تقصي التبعات. كنا نتفقد الحياة وقد غدت لا حياة، نتفقد

البؤس، وقد غدا سمة، نتفقد (الزنديق طلحان)، يترنح في الحواري والأزقة والحفر ومسامات الليل التي اتسعت ومصت، وننحشر في بيوت العزل التي أنشئت مؤخراً لمرضى (التخمة الكاذبة) الذين يتضخمون وينفجرون، ولا نستطيع إلا أن نبكيهم، سألني الحاكم عن مصادر الثروة التي أتحكم فيها، وما موقعها في كل ذلك؟، واكتشفت في تلك اللحظة فقط، إننا بلا ثروة.

توقف مجيء القوافل التجارية التي كانت تضخ في عروق الحكومة ضرائباً مهولة، وذات وقع.

توقف ورود ضرائب الرعي والزراعة، وحصاد المواسم في قمم الجبال، وحتى من بيوت المتعة التي لم تعد فيها نساء يملكن قدرة إجادة المتعة كما في السابق، ولا مستمتعون، يخترعون الإثارة بأسنانهم وأضراسهم ويستمتعون. جندت الغرائز لمحاولة درء الجوع أو درء الموت، وتابت العشرات من النساء الخرائب، أملاً في موت شريف. وقد بدأ التجار برغم إيقادهم للشح، وتأجيجه وحصاد ثماره، يتباطأون في الدفع وقد لا يدفعون.

كنا محاصرين بلا شك.

يسألني الحاكم في هلع:

- هل نحن محاصرون يا ميخائيل؟ هل نحن محاصرون؟

بدأت أقرأ ذهني المتعب، أحاول العثور على مكونات الحصار في تلك الكتب القديمة التي قرأتها ذات يوم في مدرسة المعلم (جبير)، واستنتجت بأننا بالفعل في قلب حصار محكم من دون أن ندري، أو ندري لكننا نتصنع عدم الدراية. لم يدخل أحد إلى المدينة منذ زمن، ولم يخرج أحد، لا ذهب مستكشف منا، ولا عاد رسول منهم يحمل الجمر، وأرقم وجاويد، صلة الجمر بيننا وبينهم، ميتان أو مفقودان.

حصار محكم بالرغم من أن حراس الخنادق المبثوثين في المداخل، لم يسمعوا قعقعة لسيف، أو طنطنة لرمح، أو شهقة لبارود، ولا رأوا جهادياً واحداً معطراً بريح الجنة، يهلل ويكبر، في مرمى رؤياهم، أو حواسهم التي لم تنم أبداً منذ نشطوا وتحفزوا..

- للأسف يا سيدي.

إحدى يديه تمسك بلجام الفرس، والأخرى مجندة لتهش ذباب الليل وبعوضه، الذي كان موجوداً بالفعل، يتحاوم حول وجهي ووجهه، وأحس بغازات تصيح في بطني، وأكاد أموت رعباً، وأنا أتذكر مرضى (التخمة الكاذبة) ينفجرون واحداً تلو آخر، ولا تجدي في حقهم وصفات الطب، أو قراءات القارئين.

- من يحاصرنا يا ميخائيل؟ المتّقي. أم الخوف؟

- لا أدري يا سيدي.. لا أحد يدري.

توقفنا بالقرب من بيت (المزينة)، خليلة الزنج، الذي كان غارقاً في صمت كئيب وموحش، لكن الحاكم لم يفارق فرسه، ولا أبدى رغبة في طرق الباب، هي تنهيدة تنهدها بعمق، ورأسه منكس ولكز جواده ليمضي. توقفنا بالقرب من خزي العين، وكان جثة ضخمة تربض في وحشة الليل، ومقهى فريداً لم يكن مغلقاً بدواعي شهر العسل، فقد انتهى شهر العسل بالفعل، وبعد خمسة عشر يوماً من بدايته، ولم يكن عسلاً بأي حال من الأحوال، ولكن تباريح بؤس.. اكتشفت الملكة التافهة الحبيبة، نديمة مشغول، بأنها تزوجت تسعة وعشرين مرضاً عضّالاً تتصارع في جسد رجل، كان يأتي بشعر مصبوغ وقلب محطم، وامتلكها في النهاية، حين امتلك خاتم اليهودي غالي الثمن. اكتشفت إن البكباشي صبير الذي ينحدر من عائلة من رقيق الشمال، تحرروا فيما بعد، كان بلا رغبة، ولا مروءة ولا ذاكرة

تتعــرف على حرارة الأنثى، وسقط قربها في سرير العسل، كما تسقط ذبابــة غريــرة في حساء يغلي.. كان يسألها عن دواء الصداع وتغلي، يسألها عن دواء تشنج الورك، وتغلي، عن دواء (الأسقربوط) والملاريا، وســل الرئة وحتى دواء وخز القلب، وضيق التنفس، وتغلي، وفي اليوم الخامس عشر، في موعد سقوطه وأسئلته، لم يقل شيئاً، فأيقنت أنها قد تــرملت في تلك اللحظة، وإلى الأبد. كان البكباشي قد مات بالفعل، وذهبنا أنا والحاكم، وعدد من الناس، أجلوا توهانهم، ومحنهم، وذهبوا. كانــت الملكة فارهة برغم انطفائها، حناؤها على اليدين، حناء عرس، تــرتدي ذهبها كله، وفستانها الأزرق ذا الحواف الملتهبة، وهمست في أذني بعــد أن أشــعلت لفافة من تبغ الدردار، وسعلت بعنف.. بأنها تحــررت مــن ألم الضمير، وسفاهة الوطن، والآن جاهزة لبدء حياتها الجديــدة، واحدة من السبايا في بيت واطئ وبلا أخلاق. تلك اللحظة بالــذات، أيقنت أنها ليست تركية ولا كردية، ولكن من غجر الشام الــذين يملكون القدرة على اختراع الوطن وإلغائه في أي لحظة. وحين دفــنا البكباشــي في مقبرة المدينة، وبصحبته نوط الشجاعة الذي ناله، وناي من القصب كان يعزف عليه أحياناً، ورافقتنا حتى آخر حفنة من تراب، همست في أذني مرة أخرى.. سألتقيك حتماً، حتى بعد أن أبدأ حياتي الجديدة يا ميخائيل بك.. فقط لا تمت في الحرب... لا تمت.

لم أكــن أستطيع أن أعدها بشيء.. فلم أكن أملك مصيري، ولا هي تملك مصيرها، ولا أي أحد آخر. هززت رأسي بلا معنى ومضيت، ولا تفارقني فقرة الهلاك التي وردت في رسالة الجمر تلك.

في زقاق ضحل، وبالتحديد في حي (كف عفريت)، الذي أخذنا ســواعده القوية، وأحلام مستقبله، أرسلناها إلى المواجهة، ووصلنا إليه بعد ساعات من الدوران في المدينة، هتف الحاكم وهو يشير بيديه:

- انظر يا ميخائيل.. أرى عزرائيل.. هناك.. هناك.

- عزرائيل؟

- ألا تعرفه يا ميخائيل بك؟.. ألم يرد ذكره في كتابكم المقدس؟

كنت أعرف ملك الموت عزرائيل بلا شك، أعرفه ولا أدري كيف أعرفه، ولا أستطيع الجزم بوجوده أو عدم وجوده في الكتاب المقدس، حيث لم اقرأ ذلك الكتاب منذ زمن طويل، ولعله كل الزمن الذي أعقب خروجي من تلك المدرسة التي كنت أتلقى فيها علومي عند المعلم جبير، وحتى صلاة الآحاد التي كان يؤمها أقباط المدينة كلهم: في بيت عبادة متواضع خصص لهم، برعاية قس مصري عجوز، اسمه طوني، ويسمونه طوني العفريت، عمدني ساعة ولادتي، وتجر أمي إليها والدي بذاكرته التعبة، ويده المفرودة أمام وجهه بحثاً عن موضع الخاتم، لم أكن أحضرها ولا أجد ضرورة لحضورها..

مددت بصري إلى تلك (الهناك) التي اشار إليها الحاكم. كانت ثمة سواعد متهالكة لشيوخ يمشون في بطء، يحملون نعشين مدثرين بالخرق، على أضواء فوانيس خابئة، ونساء نائحات ومغبرن بالتراب، يتبعنهم. لكزنا فرسينا في توتر وانطلقنا، كنا نفر من طعم الموت، نفر من عزرائيل الذي كان تماماً مثل طلحان الزنديق، موجوداً في كل شبر، وكل حفرة من حفر المدينة.

للمرة الرابعة كنا عند باب (المزينة) خليلة الزنج، وللمرة الرابعة يتنهد الحاكم، ويطرق الباب بتنهده العميق، وأجد نفسي فجأة أسأله:

- هل تود الدخول يا سيدي لتجميع بعض الأفكار؟

وكأنما كان سؤالي مدية حررته من حبل كان يتقيد به، وجدت يوسف دامير العجوز، الذي يشكو من ألم ركبتيه باستمرار، يقفز عن ظهر حصانه كصبي، يهرول إلى الباب هرولة مسعور، وتبتلعه

النـــزوة. كنت أبتعد، وأتلفت، أتخيل عزرائيل خلفي، يطاردني، وأكاد أسمع صوته يضحك أو يردد أغنية التعيسات في حي (ونسة)..

الحياة لعوبه

والهوى أكذوبه.

كانـــت حمـــيلة دافئة كعادتها لكنَّها مطفأة، ولأول مرة أشاهد دمعتين غير مغريتين، تشقان طريقهما في وجه لا يعترف بالبكاء أصلاً، ولا يبكي إلا نادراً. كانت تعرف بلا شك، والمدينة كلها تعرف، ولعل الـــبلاد كلـــها تعرف الآن، إننا في مدينة السور التي كانت حتى عهد قريب، منارة من منارات الوطن، ومورداً هاماً من موارد ثروته، وأيضاً قبلة لسياح يأتون من بعيد، نموت بلا نصرة ولا أمل.. لن نتحدث عن الحـــب في تلك اللحظة، لأن الحب يبقى دائماً، ترفاً ثانوياً، حين ترتفع الخطـــوب إلى مستوى ترؤس التفكير، تصبح قصائد (لوني) و(ريماس)، بكل بهائها البنفسجي، وشذاها المعطر، مجرد لغو لا يسمن ولا يغني من جوع، وتلك اللوحة الفخمة التي كانت من أعمال الإيطالي (جيوفاني)، وأراهـــا معلقـــة علـــى الحائط أمامي، تمثل قافلة من النساء البدويات، يرقـــصن حـــول بئر، مجرد تفاهة لن تلغي الموت، ولن تعالج (التخمة الكاذبـــة).. كانت حميلة دافئة، بحكم جمالها وأنوثتها الرهيبة، ومنطفئة بحكم الرياح الملتهبة التي أطفأت حتى أكثر القلوب بشاشة.. قلبها هي حمـــيلة. لـــن نفرش مسرح (يوتوبيا) المتخيل، ببساط المخمل الأحمر، ونـــزينه بالورد وضحكات السعادة، لن نسمي ولداً منون تيمنا بأبيها، الـــذي أحبه كصهر أنجب حميلة، وأمقته كتاجر بشع ساهم في تقطير عطر الحرب، ولا بنتاً مريا.. تيمنا بأمي مريا توموس الهائمة الجميلة في بيتها ومجتمعها، ولن تتعدى هذه الجلسة ذلك الحوار الذي كان ماسخ الطعم إلى أقصى حد ولا يشبه حوارات العشاق في شيء:

- نحن محاصرون يا ميخائيل؟

- نعم.. بكل تأكيد.

- وهل سنموت؟

- ربما.

- أين الحكومة المركزية يا ميخائيل؟. هل يتركوننا هكذا لمصيرنا؟

- لا أدري.. لا يوجد أي خبر.. لا يوجد أمل.. وحتى الرسولان التركيان، لم يعودا مرة أخرى.

- يجب أن نهرب يا ميخائيل.. يجب أن نترك المدينة ونهرب..

- لا ينفع يا حميلة.. لا ينفع، فقد فات الأوان، الجهاديون يسدون الطرق والموت في كل مكان.. كل شبر.. لا ينفع يا حبيبتي.

قلت حبيبتي، وأخذت أحدق في بطنها، أحاول النفاذ إلى تحت القميص البيتي الأبيض الذي ترتديه، ولم تكن ترتدي قمصاناً بيتية بلا زركشة في وجودي أبداً.. هي بلا شك بعيدة عن مرض (التخمة الكاذبة)، لأنها في بيت التخمة الحقيقية، التخمة البشعة التي اخترعت الكاذبة، لكن رغم ذلك كنت خائفاً.. وخائفاً بشدة. استلفت ذكرى ابتسامة من أيامنا السعيدة، ابتسمت بها، ولم تستلف هي أي ذكرى..

- 9 -

مدينة السور في الرمق الأخير.

جدباء ويابسة، ومريضة بالحمى والتباريح، والتخمة الكاذبة، التي لم تعـــد حكراً على أحياء الخيش والصفيح والوسخ، من أمثال (ونسة) و(أرض الكوثر)، وكف عفريت، لكنّها اقتربت حتى من حي (كاهير) الثـــري في طعمه ومعماره، وحي (لونا وراجيف) الأكثر ثراء، حيث يقـــيم الـــيهود والإغريق، وهنود البنيان المسيطرون على تجارة الذهب والقماش بالكامل.

كان صهري جماري، وزملاؤه من تجار الشبع، قد لانوا قليلاً أمـــام طـــوفان أحسوا به قد يبتلعهم في فورانه، أمام دمار حقيقي، ولـــيس ميدان ركض للحصاد الغني، أفرجوا عن القليل من السلع، وظـــل الكـــثير راكـــداً في مخازنهم على أمل أن تكون الحرب مجرد شكوك تنـــزاح ذات يوم عن كاهل المدينة. كان رغيف الخبز الذي اعتادت الأفواه على التهامه في لقمة أو لقمتين، قد غدا وجبة كاملة تقـــسم على أربع جياع، عصيدة الدخن المملة فيما مضى، ما أحلى طعمهـــا الآن، حين يتم العثور على طعمها، الدواب بدأت تهلك، ماشـــية اللحـــم بلا لحم، أثداء الحليب تحت الغنم والنعاج بلا لبن. وموظفـــو الدولة الذين كانت رواتبهم جزءاً من رذاذ الثروة ننثره على جيوبهم كل شهر، الآن بلا رواتب. كنا حقيقة بلا مخرج، ولا مدخل يقود إلى مخرج، بلا خيط، لا أبيض ولا أسود، ولا أي حجة

أخرى تبقينا كباراً على رأس مدينة لم تكن في الحقيقة مدينة، ولكن قبراً محفوراً بإتقان.

أخــذت أمــي وأبــي وخطيبتي حميلة، وما استطعت لملمته من الأهــل والأقــارب، إلى ساحة المجد الآمنة كما كنا نأمل، السرداب الضخم الذي يحرسه ستون من خيرة الجنود، بما فيهم أخي رزق الذي أتم تدريبه بجدارة. أخذنا المئات من الأطفال، والآلاف من كبار السن، وحــتى ما تبقى من خرائب حي (ونسه)، أو فتات الأحياء التي نفدت مــن الــتخمة الكاذبة، كان ثمة زاد قليل، وماء وفير استخرج من آبار الــسقاية، والأهم من ذلك، ثمة مدينة صغيرة في سرداب، تملك عارها واحتــشامها معــاً. فقرها وغناها معاً، وربما تموت هكذا كما عاشت دائماً هكذا..

إنها الحرب ولا شيء آخر.

كــنا نعقــد جلسات التشاور العصبية إلى أقصى حد، في قاعة المجلس الكبيرة بانتظام، حيث لا وجود الآن للإفريقي (كيكور)، الذي أصــيب بالــتخمة الكاذبة بعد أن انتقلت عدواها للطيور والدواب، وانفجر ذات يوم في قفصه، مخلفاً أسى وذكرى وأصداء كلمات.. كنا نــستدعي حتى المجانين لنسألهم، نستدعي الشحاذين، والذين في جوف عــروقهم بقايا دم، نحدق في أحبار الذكرى والتاريخ التي كانت تعرينا وتــزعجنا فــيما مضى، ولم تعد تكتب الآن سوى عبارة واحدة هي المــوت، ولا ترســم سوى جمجمة بغيضة بلا لحم، وحاولنا أن نستنير بالمــصري بهجت، مدرس علم الانحطاط الانطوائي، فأبى بشدة، ثار في وجهــي، ووجــه الحاكم، مبيناً سخف الحكومة في محاولة تعديل نص كتبــته ذات يوم، وخرج الآن عن السيطرة.. كتبتم ثورة المتّقي حين جئتم غزاة، حين غنيتم ورقصتم، وحين لم تكونوا قراء حقيقيين، لبداية

المرجلة على مسرح قرية (أباخيت) المتواضع. هدده الحاكم بإلغاء علم الانحطاط من علوم المدينة إلى الأبد، فضحك واستمر يضحك حتى بعد أن خنقته أنفاس لفافة تبغ الدردار الخشن.

حددت ساعات عمل السوق، للذين ما زالوا يملكون خواص غزو السوق، لشراء القليل أو التنــزه بلا معنى، بأوامر من الحاكم، حـــدد المـــشي في الشوارع للذين ما زالوا يملكون سيقاناً للمشي، بأوامـــر مـــن الحاكم، حددت ساعات القيلولة، وساعات النميمة، وســـاعات الحـــسد، وكاد أن يحدد وقت للقبل، وتلاقح الأجساد والعناق، لولا أنه لم تكن ثمة مروءة لتلك الممارسات. الشهر الأول يشبه الثاني بجدارة، والثالث الذي انفلتت منه حتى الآن خمسة عشر يـــوماً ركـــيكة، لا يشبه الشهرين الأولين، ولكن يفوقهما جوعاً وعرياً.

في أحد الأيام جاءت إلى مكتبـــي الموحش الذي لا أبقى فيه إلا نـــادراً بعـــد أن غـــدا ظهر فرسي (العبّار) مكتباً متنقلاً، الملكة نديمة مـــشغول، خـــرجت من سرداب ساحة المجد المحصن بصعوبة، بعد أن اضطرت إلى تذكير الحراس عشرات المرات، إنها ما تزال نديمة مشغول، برغم زواجها وترملها، وإغلاقها لخزي العين الفريد، وبرغم أنها تتزين الآن بزينة (السكسك)، وترتدي أسخف ملابس ترتديها المرأة، وتتعطر بعطـــر الجوع وقرص المصارين، الذي ليس عطراً محترماً لأمثالها، كانوا يطالعونها بلا تعابير، يلحسون ماضيها ويبصقونه، وسمحوا لها بالخروج فقـــط حين كذبت بشدة، قالت أنا خليلة الحاكم الجديدة، واستدعاني الآن بأوامر من الجسد.

فوجـــئت بحضورها الذي لم أكن أتوقعه، وفاجأتني أكثر حين لم أستطع التعرف عليها أبداً، رأيتها ترتدي ملابس سوداء من قطن ثقيل،

تمـــتد حتى كفيها وقدميها، تضع طرحة سوداء تغطي بها الرأس، وعلى وجههـــا خمار أزرق، لا يظهر سوى العينين فقط، اضطرت إلى رفعه حـــتى أجـــدها وسط ذلك الزي، لم تجلس على مقعد قدمته لها، برغم إلحاحـــي ولا أشـــعلت لفافة من تبغها الخانق.. قالت.. جئت أودعك يا ميخائيل بك على أمل اللقاء.. فقط لا تمت في الحرب.

وخرجت، وأكاد أسمع بكاء قلبها، يتقافز إلى أذني.

الذين شاهدوها على مدخل (بوادر)، أحد مدخلي المدينة المهيئين لاســـتقبال الغـــزاة، بعـــد ذلك بساعتين هما ساعتا المشي الذي مشته بقدمـــيها، قالوا شاهدنا امرأة مجهولة، بقلب أسد وقوة ثور، صرعت حراســـاً عديدين منعوها من عبور الخنادق، قفزت إلى ما وراء الرؤية وذهبت.. ولا أحد يعرف كيف ذهبت وإلى أين تذهب. كنت منقبضاً بـــشدة، لكني لست يائساً، أحس بأنها كانت تخترع وطناً جديداً، تماماً كالذي اخترعته هنا وعاشته، وربما ألتقيها قريباً في ذلك الوطن. كانت نديمـــة مشغول في الحقيقة، ترفاً ملوناً في مدينة السور، وامرأة حفرت تذكاراتها بجدارة في كل شبر مشته.

القائد موسى عرديب، الذي كان مرابطاً في الحدود، يتابع الوهن عـــن قـــرب، ولا يـــسمح للجوع أو مرض التخمة الكاذبة، أن يمس جـــنوده، الآن يقـــتحم اجتماعاً متأزماً، نوَّه الحاكم في بدايته، بأنه قد يكون الأخير، لأن لا جديد لديه ليمنحه، ولا لدى أحد آخر من الذين يحـــضرون وينصرفون... وعلى الجميع أن يحموا رقابهم، لأنه لا توجد حكـــومة لتحمـــي أحداً، والعاصمة البعيدة قد تخلت عنا كما يبدو.. أليس كذلك يا ميخائيل؟

وأحـــاول أن أرد، ولا أعثر على رد، وكنت مستغرباً بشدة من حكومة تتركنا في النار، ولا تمد يداً.

صرخ القائد عرديب في أزمة الاجتماع موجهاً صراخه إلى الحاكم:

- لقد عاد أحد التركيين يا سيدي.. إنه أرقم.

هبينـــا من مقاعدنا كالملسوعين لنشاهد عند الباب أحد الرجلين الذين أرسلا إلى الموت منذ أكثر من شهرين والآن يعودا نصفاً فقط.. كـــان النـــصف مـــرهقاً ومتهالكاً، سقط جواده في منتصف الطريق، وأكمـــل هـــو الطريق مشياً وزحفاً، وحين ظهر على مرمى البصر في الحـــدود، ظـــنه العسكريون جهادياً جاء يحمل قلبه على يديه، وكاد يموت، حاصرته السهام من كل صوب، وانغرس أحدها في قدمه.

لم نعطـــف على تعبه الشديد أو جرحه المضمَّد بالخرق، وصرخنا أنا والحاكم في صوت مرتجف، هو صوت الهلع:

- وأين جاويد؟

- حـــوكم بتهمة الزندقة يا سيدي، حين سلم رسالتكم إلى أحد مساعدي (المتَّقي).. قائد اسمه عبَّادي طلسم، وشرح مكوناتها له.

- وهل قتلوه؟

صرخنا مرة أخرى، والهلع على أشده.

- لا أعرف حقيقة أيها السادة.. لم أشهد محاكمته، ولم أعثر على أحد يخبرني بالحكم.. لكنكم تعرفون الأحكام في تلك التهم.

خـــيَّم الكـــثير من الصمت، والكثير من الاكتئاب، وبدا يوسف دامـــير مطرقاً، ولا شك يعاني من وخز ضميره المتغطرس، حين ألبس رســـولاً لا يعنـــيه من الأمر سوى إيصال الرسائل، تهمة نعرف كلنا عقوبتها. كان أرقم جائعاً بلا شك، لكن لم يكن ثمة طعام حاضر، وقد التم ما تبقى من ترف المدينة في سرداب ساحة المجد.. منحناه رغيفاً مراً من ردة القمح، لم يسأل عن طعمه، والتهمه، مد يده إلى جيبه، أخرج رسالة جديدة، جمرة جديدة، مدَّها للحاكم الذي لم يلمسها أيضاً:

- اقرأها أنت يا ميخائيل بك.. لقد تعودت على قراءة المخازي.. أليس كذلك؟

كانت الجمرة الجديدة.. قصيدة (ريماس) الجديدة، أشد لسعاً من سـابقتها، تفوح منها رائحة المسك بلا جدال كأنها تود تذكيرنا بريح يعـتقد المتَّقي بقداسته، وتلخص في هوس غريب، تلك النهاية التي كنا نعـد لهـا منذ أن وردتنا الإرهاصات، ولا نستطيع أن نجزم.. إن كان إعدادنا صائباً أم لا..

بسم الله الرحمن الرحيم

مـن المتَّقـي.. إمـام المجاهدين، وسيد المحصنين، وحاصد رقاب الكفار، وأذيالهم.. والشاهد على دحرهم وفرارهم في القريب العاجل.. إلى المرتد خائن مدينة السور

أما بعد..

فإنـنا قـد بيـنا ووضـحنا، وتنفضنا من الوزر وأنتم ترتدونه، وخاطبناكم بالحبر والدواة، وتخاطبوننا ببصاق ألسنتكم، وإنه قد أزفت الزائفة، وحانت اللحظة، وإننا بإذنه تعالى، في مخادع كفركم نطهرها، وخلف رقاب إلحادكم.. نجزها، ولن نترك دماً يأتينا باختياره، ويحمل السـيف، حتى لو كان من ملتنا، خيطوا أكفانكم لترتدوها، وجهزوا قبوركم لتدفنوا فيها، واذهبوا إلى مزبلة التاريخ. يقول سيدنا (أبو عامر) رحمه الله.

وما أذنبت حين أقمت ملكي

على جثث الزنادقة اللئام

فزنا في الدارين.. هذه الفانية، وتلك التي نشم ريحها.

كـنت أود أن أسأل الرسول عن المتَّقي، وإن كان قد رآه هذه المـرة أو التقى بصوته، إن كان قد صادف امرأة من غجر الشام مغطاة

الوجه، وهائمة في العراء أو تحت لهب النار، لكنه وقف منتصباً، ردد في صرامة شديدة، بأن لا أسئلة ولا أجوبة، لأن مهمته قد انتهت في هذه المـــنطقة، وإن المتَّقـــي قد عمم أوصافه على كل بقعة تغلي بمجاهديه، ومنحه تصريحاً بالذهاب إلى حيث يشاء.. وإنه ذاهب إلى حيث يشاء. وبقيـــنا في القاعـــة الواجمة، نتذكر ماضياً سلساً كنا نعيشه، أو نبكي بدموع فقد، هو فقدنا.. انتهت مهمة أرقم، وابتدأت مهمة الموت.. لا نـــود أن نستضيف الموت، لا نريد عزرائيل.. لكن عزرائيل هنا.. هنا خلفـــك يـــا يوســـف دامير.. خلفي أنا ميخائيل رجائي.. خلف كل الجالسين في القاعة، وهناك.. في الشوارع.. في الحفر، وفي سرداب المجد حـــيث تضطرب أحلام بنفسجية، وأحلام أنهكها التعب.. وحيث لن يعثر رجائي رشدي على إصبع الخاتم أبداً.

- 10 -

لم يكـــن جيـــشاً جراراً، ذلك الذي اقتحم الخنادق، وأكل النار وسف رمادها، وتسلى بسيوف ورماح العسكريين، واتخذ من سواعد المحـــاربين الذين حشدناهم للمواجهة، أوتاداً يقطر منها الدم، ألصق بها راياته الخضراء، ولكن وباء غريباً لم أشهد له مثيلاً من قبل.

كـــنا على الحدود أنا والحاكم نستطلع الأمر، حين علمنا بظهور غـــبار كثيف في الأفق، حين اتضحت الرؤيا أكثر، حين استحالت إلى كابـــوس. وحـــين تـــضخم الكابوس، وأصبحنا بالكاد نعرف إن كنا حقيقيين أم مجرد أوهام عالقة بذيل الحقيقة. رأيت الحاكم الموقر يوسف دامير، يسقط عن ظهر جواده وفي عنقه وخز سيف، ولم استطع بكاءه أو انتـــشال ما تبقى فيه من روح.. رأيت القائد موسى عرديب يسقط مطعـــوناً في قلبه، وبقايا صوته العسكري، تتراكض وسط الغبار، ولا يلـــتقطها أحـــد، رأيت العشرات ممن أعرفهم ولا أعرفهم، يسقطون، وشممـــت طعـــم الدم لأول مرة في حياتي، وكان حاراً جداً. لم تكن الخنادق التي اشتعلت فيها النار وانفجرت على أطرافها حبات البارود، شـــركاً، ولا خطـــط فاسكو السخيفة المستخرجة من كتابه التاريخي، شـــركاً، ولا الروح المعنوية التي حرصنا طيلة تلك الأشهر الماضية على إبقائها عالية برغم المرض والحصار.. وكان المدير الذي يهدر.. يسقط الـــشرك.. يسقط الإلحاد، هو الشرك الحقيقي الذي قضى على شراكنا المهترئة.. لحسها كما يلحس العسل.

قلت لصديقي العبَّار المشوش الذهن، والذي يصهل كمجنون.. نموت أم ننجو يا عبار؟.. فلكزني قبل أن ألكزه وانطلق. كان يتقي النار بالنار، وسهام الجهاديين في الحدود، بسهام الجهاديين التي كانت لا تحبو إلى داخل المدينة، ولكنَّها تئز أزًّاً. الحفاة العراة، الملثمون.. لابسو الأبيض والأخضر المرقَّع، لابسو الفوضى وعطر الدم، من يا ترى المتَّقي من بينهم؟.. ولا أحد يعرف، وأتذكر صراخ (عطايا) بائع الروب والخميرة يوم حاورناه في (خزي العين).. كلهم المتَّقي.. كلهم المتَّقي.. كلهم المتَّقي.. كان (التقلاوي ديدام) فرَّاش مجلسنا السابق الذي اختفى في تلك الليلة المهووسة، موجوداً في داخل الهدير.. رآني ورأيته، تأملني وتأملته، رفع حربته إلى عنقي، وراوغتها.. عدد من الذين عرفتهم أو صادفتهم.. رفعوا سيوفهم، وراوغتها..

وصلت إلى مبنى مجلس المدينة بصعوبة، ولم يكن ثمة مجلس لمدينة، ولكن ذكرى لقاعات ومكاتب وأوراق، الآن مجلودة بسياط النار وتحترق، وصلت إلى ساحة المجد التي أمنَّاها كما اعتقدنا، وأنا مشوش باحتمال ضياع أهلي.. وضياع محبوبتي وإرث الحياة وتاريخها كله، ولم تكن الساحة آمنة، ولكن شركاً ولعنة، حيث هتك الجهاديون عفتها وتناثروا داخلاً وخارجاً، وكانوا يلمون غنائمها النظيفة يرصونها جانباً، ويبصقون على تلك التي كانت متسخة ولا تبدو غنائماً.. لكزت العبَّار بشدة وتواريت. قصدت أماكناً لم تكن أماكناً.. وأحياء لم تعد أحياء.. وشوارعاً لا تبدو شوارعاً بأي حال من الأحوال، أشم الغبار والدم، وأضع يدي على أذني حتى لا يصرعني الهدير في تجواله وترصده، وتوقفت في النهاية أمام خزي العين المجلود بسياط النار أيضاً، ربطت العبَّار إلى جذع شجرة ميتة، وارتميت على الأرض بجواره، أغمضت عيني، وبدأت أستعيد صلوات مقدسة لم أكن أستعيدها أبداً من قبل،

أتلـــوها بأخطاء الحفظ والهلع، وأنتظر.. كنت أسمع عن سكينة الموت ويقينه، وأحاول الآن أن أجد تلك السكينة وذلك اليقين.

فجـــأة وجـــدت نفسي واقفاً على قدميَّ، ثمة سيف مسنون في رقـــبتي، ورمـــح غادر يلتصق بظهري، وعدد من الملثَّمين يرتدون ثياباً بيـــضاء متـــسخة بالطين والدم، يخاطبونني في قرف.. تشهد يا كافر.. تـــشهد يـــا كافر.. أود أن أتشهد حقيقة، لكني لا أعرف الشهادة.. وأسمع صوتاً يأتي من العدم والنصل قد بدا يحز في العنق.. لا تقتلوا من لم يرفع السيف.. لا تقتلوه.. خذوه إلى حيث أمر سيدنا المتَّقي.

كـــنا طـــوابير مهلهلة وفزعة من الأقباط واليهود، وهنود البنيان، وآخرين ليسوا من ملة غير ملة المتَّقي، ولكن صنفوا عصاة حين واجهوا الـــسيف بالسيف، والرمح بالرمح، في وسط السوق الكبير.. الذي بدا لي قد عاد القهقرى إلى أيام (حمزة وابنه).. كان نصفه متهدماً، ونصفه يحترق، الهدير قد خفت قليلاً، لكن طعم الدم ما يزال طعم الدم، واسمع الهمس الذي يتسرب من بين ألسنة شوَّشها الهلع..

منون جماري تاجر المحاصيل الكبير.. قتل حين حاول الدفاع عن مخازنه.

حـــاكم المديـــنة.. يوسف دامير مزقت جثته إلى أشلاء وتركت للصقور تنهشها.

فـــندوري تاجـــر الخمور الإغريقي.. نطق بالشهادة حين طالبوه بنطقها، لكنه لم ينجو.. اعتبروه منافقاً.

أنقبض بشدة، أتلفت والفزع على أشده، أنقب في وسط الرجال الـــضائعين، الرجال ذوي الملامح المخدوشة أو المهروسة، أبحث عن يد يـــسرى مفرودة أمام وجه، وخاتم زواج مفقود، ولا أجد شيئاً وأعثر علـــى (ولهان الخمري)، قليل أدب الحرب المفترض، باكياً حتى بثدييه

الـــضخمين. أتلفت لأبحث عن شباب يانعين، يشبهون أخي (رزق) في شـــعره المنسدل، وحاجبيه الكثيفين ولا أجد، نساء تائهات وجميلات ربما بينهن مريا توموس أمي، أو حميلة جماري حبيبتي، وألمح حميلة.. هي حـــية.. هي موجودة، ألم صوتاً باكياً.. أبكي به.. يا حميلة.. يا حميلة، ولا تلـــتفت، تلقي بخاتمها الذهبـــي الذي أهديته إياها في عيد ميلادها العشرين، ولا تلتفت، ويهشها سيف سنين لتمضي.. اليهودي (إيزاك)، تاجر الذهب ذائع الصيت. يبكي زوجته (أم إيليا) التي انتحرت بالسم مـــنذ سنوات، ويبكي نفسه.. يلكزني بشدة. انظر يا بك.. انظر. كان عـــبَّادي طلسم، الحمّال السابق في سوق (أبـــي جهل) الشعبـــي، قد هبط عن ظهر حصانه الأسود، أميراً مدثَّراً بالثوب الأخضر، ذي الرقع والعمامـــة الخضراء ومسبحة ضخمة من ثمار (اللالوب)، تتراقص بين أصـــابعه.. وحاملـــو حراب الدم، يفسحون له مجالاً واسعاً ليتسلقنا، ليطـــيل تسلقي أنا بالذات كأنه يستعيد أو يطرد تذكراً، ليردد بصوت كأنه ينبع من كل بقعة في جسده العريض:

- ضموا القبطي إلى كتيبة صقور.. ضموه إلى سرية الطبخ.

أيـــن المتَّقي؟.. أسأل تشوشي، وأنا أنقاد بسيوف كتيبة (صقور) إلى مـــصير غامض. أين المتَّقي؟.. وأسمع همساً مجاوراً.. المتَّقي في أحد أحياء المدينة، يوجه الثورة لتلتهم المدن كلها.

الفصل الثالث

التوترات الثانية

-1-

- القائد يريدك يا سعد.

كـــان التقلاوي ديدام مساعد القائد هو الذي يخاطبني، وكانت ســـاعة قـــيلولة جلفة على برش مقشّر من سعف الدوم، وسط المواقد وقـــدور الطعام، ورائحة فوضى العفن والفضلات، هنا لا يأتي النعاس أبداً، ولكن تحوم الذكريات، وفي تلك اللحظة بالذات كنت راكباً على ذكـــرى فرســـي العـــبّار، أطوف بها في شوارع المدينة العامرة شارعاً شارعاً، أدخل بها حي (كاهير) الراقي، وحي (لونا وراجيف) الأرقى، أبحث عن بستان مزدهر بالورد البنفسجي، لأقطف باقة وارفة، أقدمها هديـــة لخميلة.. تحب الورد البنفسجي بشدة، تحب الثياب البنفسجية والعطـــور البنفسجية، وصنادل الجلد التي تلوّنها بالبنفسجي، وقالت في أكثـــر مـــن لقاء.. إن طعمها بنفسجي.. وعلي أن أصبر حتى أتذوقه كـــاملاً. كنت بلا شك خائناً لوعدي الذي وعدت به المراهق (توما)، وأعـــتقد جازماً إنه يخون وعدي أيضاً ويستدعي (خميلات) بلا حصر، يحاول أن يلون بهن لياليه البائسة.

نهـــضت نهوض الذليل في مواجهة القوي.. الطباخ أمام مساعد القائـــد، الـــتقلاوي أخضر مرقّع، على خصره الأيمن سيفه الفضي في الغمـــد، وأعلى كتفه الأيسر يربض صقر بجناحين خطرين.. أحاول أن أستعيده فرّاشاً بلا مروءة من (كف عفريت)، تزوج من لا أحد في ليلة مهووســـة مـــشتعلة، وأخاف من جرح التذكر. أحاول تكتيفه بحبال

وظيفتي القديمة، وآمره أن يعد شاي القيلولة، ولا أملك وظيفة أو حبالاً..

- القائد في خيمته.. اذهب..

أول ما لفت انتباهي حين واجهت القائد في خيمته الكبيرة التي تبعد قليلاً عن خيام الجند، ذلك الصفاء الذي ينبعث من عينيه، لم تكونا جمرتين كما اعتدت على رؤيتهما دائماً، ولا بدا لي ذلك الرهيب الذي قد يقتلع عينٌ فجأة، أو يغرس سوطاً من جلد ثور معمر، في اللحم وينتزعه. أمامه طبق ممتلئ بفاكهة النبق، لم يكن من زاد خيمتنا التي هي خيمة الزاد ولا بد يأتي من طرق أخرى. وعلى يده اليمنى مسبحة ثمار (اللالوب) الضخمة، ذلك النوع من المسابح الذي كان يباع في سوق أبي جهل، ويستخدمه رجال التصوف بكثافة، كان يحرك حباتها في شرود.

قلت: السلام عليكم سيدي الأمير.

قال: وعليكم السلام.

دعاني للجلوس بجانبه لأول مرة، وترددت كثيراً قبل أن أجلس. كنت خائفاً بشدة، بالرغم من عدم وجود خامات التخويف في تلك القيلولة الجلفة. كنت أجيد الوضوء كاملاً بلا شك، أجيد التهليل والتكبير والهوس، وقد أضفت عدة سور بهية أخرى، مليئ بالتعاليم السماوية، إلى حصيلة الحفظ في ذهني، ومستعد لقراءتها أمامه.. فقط لا أود أن يسألني عن خميلة.. لا أود ذلك:

- لم تحدثني عن خميلة جماري يا سعد.

صوته ليس شرساً أبداً، ولكنه متودد، عيناه ما تزالان صافيتان، ويده الآن بعيدة تماماً عن مسبحته (اللالوب)، ورأيتها تلامس خده الأيمن، تلعق ما خلته خدشاً طفيفاً مغطى ببقعة دم.

تشجعت وسط ذلك الضعف، وتلك المودة الطارئة، كنت أريد أن أفهـــم، أو أعمـــق ما فهمته، وربما أجد فرصة لأسأله عن أهلي الذين لا أعرف مصيرهم حتى الآن. وجدت صوتي ينساب سلساً من حلقي:

- أي نوع من الحديث يا سيدي؟

- طباعها مثلاً.. هل تخاف الظلام ومواء القطط؟.. هل اعتادت أن تمـــشي وهـــي نائمة؟.. هل تملأ فراشها حصى ورملاً قبل أن ترقد عليه؟.. باختصار شديد..

دق القائد على الأرض بيده وقد بدأت مودته تتأرجح.. وثمة جمر بدأ يلتهب في عينيه:

- باختصار شديد.. هل هي امرأة صالحة؟

في خلال ذلك العام الذي قضيته عاشقاً لخميلة، وزوجاً مستقبلياً يقتـــرب بخطـــى أكيدة من دخول قفصها الذهبـــي، عرفت خارجها المحب بجدارة، خارجها الذي يميل إلى تذوق الحياة السلسة بكل أشكالها وألـــوانها، تحب السهر حتى الفجر، واللون البنفسجي، وفوضى الأزياء حـــين تفوضجها بمقصاتها الخاصة، وأشعار (ريماس ريكو) الإسباني التي كلـــها شـــجن وعصافير، وخيالات عشاق تحت أشجار المانجو، والتي جلـــبت بعضها حين عادت وما زال الجديد يأتيها مترجماً، وبخط أنيق مـــن أصـــدقاء والدها في مصر. نعم تخاف الظلام ومواء القطط كأي امـــرأة. تخاف العناكب وسحالي الشقوق كأي امرأة، تخاف لو تركت وحـــيدة ولـــو شمت رائحة غدر ولو تحرش بها الطريق حين تمشي فيه، تطـــيل أظافرها حيناً، وتقصها حيناً، وربما في ساعة نـــزوة عابرة، تنام باكراً وهي تبكي بعد أن تعطف على خادم مسكين. وفي آخر لقاء لنا قـــبل ســـقوط المديـــنة بيومين، أخبرتني إنها تجرب هذه الأيام ملابس

(الكــستور) الــشعبية وطــلاءات الأظافر المصنوعة محلياً، من نشارة الخشب، لا لشيء محدد، فقط تجربها. لكني لم أسمع أبداً عن مشي أثناء النوم، أو جلب للحصى والرمل إلى فراش يضم تلك اليانعة، و لم أشاهد نــومها بالطــبع لأعرف شيئاً كهذا ربما كان من العيوب التي لا تطفو علــى السطح إلا بعد سقوط الفأس في الرأس، وإن كنت أستبعد ذلك تمامــاً. أيــضاً لم أكــن أملك معنى محدداً لصلاح المرأة، ولا سعيت لامــتلاكه في أي يــوم من الأيام، أمي الهائمة (مريا توموس)، كانت صــالحة، لأنها أمي، عمتي (فداية) التي تركت (السور) منذ عدة أعوام وعادت إلى مصر، صالحة لأنها عمتي فداية، والملكة الحبيبة التافهة (نديمة مشغول) صالحة لأنها اخترعت حياة لم يخترعها لها أحد. وفي شبابــي المبكر، حين كنت أمر على بيوت بائعات الهوى في حي (ونسة)المتسخ، وأرى تلك الوجوه والأجساد التي تكذب بالنظرة والابتسامة والسلام، والعــناق، أقول في نفسي.. هن صالحات بلا شك.. فقط يحتجن إلى وقــت ليظهر صلاحهن.. أردت أن يمنحني الحمّال قائد جهادي كتيبة صقور، مفهومه الشخصي للصلاح حتى ألبسه خميلة وأرى إن كان في قياسها أم لا؟.. لكن لا أستطيع مطالبته..

- ســيدي.. كنا مخطوبين لعام واحد فقط، و لم أر فيها شيئاً غير عادي.. هي امرأة عادية و..

- العام ليست فترة قصيرة..

زمجر..

- العــام يكفي لزراعة موسم كامل من الذرة وحصاده، لتلقيح قطيع من الماعز، ورؤية نتاجه، لجز الكفر من تحت قدميك، حتى قدمي حــاكم الملحــدين في العاصمة.. يكفي لغرس العزة في كل شبر.. لا تلاعبني يا سعد.. لا تلاعبني..

كان كمرجل ضخم حين غلى، وحين فاض، وحين كاد يغرقني بفيضانه، لولا ابتعادي. ليست مسألة طباخ يلاعب قائداً يدري تماماً إنه قد يسحقه في أي لحظة، ولا مسألة مستفسر يبحث عن أجوبة شافية، ولكـــن هياج مغتاظ تراكم على قلبه الغيظ. كان عبَّادي طلسم، يملك حبيـــبتي بـــلا شك، يملكها في واحد من بيوت السبايا التي أعدت في المديـــنة لإرضـــاء شـــهوة النصر، ولا يملكها في الوقت نفسه، الحصى والـــرمل، المـــشي أثـــناء النوم، وذلك الخدش المرسوم بالدم على خد الجهـــادي، وربمـــا أشـــياء أخرى يعزوها إلى عدم الصلاح، ولا يود فهمها.. كنت وبرغم الحريق الذي شوى قلبـــي حتى شممت رائحته، مبـــتهجاً.. لقد انتصرت خميلة، بينما بقيت مهزوماً.. اخترعت أدواتها الـــتي تـــواجه بها، ولم أفعل، رضيت بمهنة الطباخ الذليل وأنا الموظف المحتـــرم. لن أنهزم.. لن أنهزم.. جمعت ثورتي الخاصة في تلك اللحظة، بصقتها في وجه ثورة القائد:

- خمـــيلة حبيـــبتي أنـــا أيها القائد.. ملكي أنا.. أنا مسلم.. أنا موحد.. أعطني حقي.

وكـــأني في تلك الثورة التي ثرتها، دلقت ماء من إبريق، أو مزقت واحداً من بروش السعف، أو ربما فعلت أكثر من ذلك.. لا أذكر.

كان (بيت الغسيل) الذي أخذت إليه بعد ذلك، في الواقع سجناً مبنـــياً من خشب أشجار (التبلدي) المعمرة والقوية، وملحقاً بالكتيبة، ويقـــع مباشرة خلف خيمة مساعد القائد ديدام. يحرسه عدة أفراد من ســـرية (جـــبّارين)، إحـــدى سريات الكتيبة التي كلها من أبناء قبيلة (الفـــولاني)، حـــيث ينحدر القائد طلسم، ومعروفين بالشراسة ولوي الأعـــناق حـــتى كسرها، ويتولى أمر المحكومين داخله، عسكري تدل نجـــومه على الكتف ونياشينه على الصدر، إنه برتبة قائمقام، كان اسمه

(بـــرهاني)، و لم يكن واحداً من جنود الحكومة الذين كانوا تحت إمرة (موسى عرديب)، وكانوا تحت سمعي وبصري ويتبعون لمجلسنا الحاكم حـــتى ســـاعة الغـــزو، ولعله كان قائداً في مدينة أخرى أو واحداً من الجهاديين الذين نبعوا من الفقر وهوامش القرى، يرتدي زيًّاً بلا ماض. كـــان الجهاديـــون واعين بفداحة الثورة التي أشعلوها ضد حكم يملك الحديد والنار، ولا يملكون إلا الشرر، وهدير الحناجر. واعين بتمردات قد تحدث وسط فوضويين التموا هكذا بلا عدة ولا عتاد، وخيانات قد تنـــبع في وسط حراس ثورتهم، ومن ثم أنشأوا تلك السجون الخشبية، أسموها بيوت الغسيل، وألحقوها بكل الكتائب التي تحيط بمدينة السور، تماماً كالسجن الملحق بكتيبتنا وأساق إليه الآن. كانت تعليمات القائد الحمّال واضحة في حقي، سلّمها لسرية (جبّارين)، وسلموها بدورهم لمـــشرف الغـــسيل، أن أغسل من شوائب النصرانية التي ما تزال عالقة بعقيدتي، أن ينظف قلبـــي، وتنظف مشاعري حتى أشفى، لم تكن ثمة وسيلة محددة للغسيل، لأن القائمقام هو الذي يحددها، ولا زمن معلوم لانتهائه، لأنه من يحدد الزمن.

كـــان الداخل موحشاً بشدة، ثلاث غرف متماسكة بلا أسقف، فرشت بحصى مدبب يشتعل حين تشتعل الشمس، ولا ينطفئ حتى لو انطفـــأت. كانـــت حـــيطانها خشنة، وعليها أوتاد حادة يعلّق عليها المغـــسولون، وعـــدة أســـطال ضخمة مملوءة بمواد الغسيل موزعة هنا وهناك. عثرت على (ولهان الخمري) الذي لم أكن أعلم بوجوده بيننا، و لم أره مـــن يـــوم ارتعاشنا في السوق الكبير، حين كان يبكي بعينيه وثديـــيه الـــضخمين، مثبتاً إلى أحد تلك الأوتاد، وعلى ثدييه المتدليين كـــثدي امـــرأة، آثار عناكب، رضعت وارتوت وذهبت، واستغربت كـــيف يغـــسلون رجلاً كولهان، وماذا ينتظرون من وراء غسله، وهو

الذي لا تجدي سوائل الدنيا كلها، في تنظيف ساعة واحدة من ساعات عمـــره الـــذي تجاوز الستين، قلت للقائم مقام برهاني، حرره.. حرره يا شيخ، وخلت نظراته الملتهبة، تذكرني بموقعي في الكتيبة، وموقعي الحالي في ضـــيافة غـــسيله، شممت آثار أجساد شويت، وأثار عيون اقتلعت، وكانـــت دهـــشتي عظيمة حين عثرت على (ودعة) المصَّاص، معالج السموم وتشنج العضلات، ولم أكن قد انتبهت إلى غيابه عن المعسكر. كان مغروساً حتى عنقه في سطل ممتلئ بالقار وبراز العناكب، ويصرخ في جنون.. سآتي بالعقارب.. آتي بالثعابين، ألمها من كل جحر.. اخرجوني.

كـــنت مندهشاً ومرتعباً، ولم أستطع سؤاله، ولا أظنه كان قادراً علـــى إجابتي حتى لو سألت، وأخبرني القائمقام طواعية، بأنهم يغسلونه هكـــذا بـــسبب الـــبطالة، فقد مضى أكثر من شهرين على انضمامه للكتيبة، ولا عقرب لدغت مجنداً، أو أفعى فحَّت بجوار أحد، أو التوت قـــدم لمجاهـــد، ليقوم بتدليكها. هذا نـــزير شؤم.. ودليل على اتساخ النية، يردد.. والمصَّاص لا يتوقف عن الصراخ.

كان مشرف الغسيل كما يبدو، متشوقاً لانتهاكي، أزال هلاهيل الطباخ التي كنت أرتديها، عن جسدي بسرعة، وألبسني خرقة أخرى بلا لون، كانت تضج برائحة جرذ ميت، لبستها وتقيأت، وعلى مدى أكثـــر من ساعتين، كنت مربوطاً على حائط خشن، على وتد حاد، وثمـــة ســـوط رفيع، وجارح من سياط نبات (القنا)، يتحرك في لحمي ويدمـــيه.. ويأتي صوت برهاني.. يأتي هديراً آخر، ليصرع ما تبقى من الحواس..

تب إلى الله.. تب يا كاثر..

ولا أعرف كيف أتوب، ولا هي مفردات التوبة التي ستعجبه، أو تعجب القائد.

كنا أنا وودعة المصَّاص، نمنح ساعات قليلة خارج نطاق الغسيل.. نطـــاق العذاب، بينما ولهان الخمري، معزولاً وخاضعاً للبربرية طوال الـــيوم. لم نكن نغتنم تلك الساعات لنريح أجسادنا أو نطرد الدم عن لحمـــنا وخرقنا الممزقة، ولكن لنلهث بها، أو نشتهي فيها الموت الذي يـــتحاوم، ولا يغـــرس ســـيفه أبداً. وفي خلال تلك الساعات الهشة تـــصادقنا، أنا وودعة المصَّاص، لم تكن صداقة قوامها الحديث المتبادل، وضـــخ فـــوران الـــنفس لفوران النفس، ولكن صداقة عينين دامعتين، تتأملان عينين دامعتين، وقلب واجف، يدق أمام قلب واجف، وعذاب رهيب، يتراءى لعذاب رهيب.

في أحد الأيام، مات (ولهان الخمري)، وصلت أسياخ الحديد حتى مصارينه وجزتها. كان تاجر القوارير المحطمة، وقليل الذوق الذي عين لـــزمن الحـــرب، ولا أعرف أبداً إن كان قد أدى مهمته أم لا، ملقى أمامـــنا بلا روح، عيناه واسعتان كأنهما تعضان على نظرة أخيرة، ولا تفلـــتاها، وجسده الهرموني الذي طالما كان مائعاً، ومندلقاً، الآن يابس ومحطـــم. بكيـــنا أنـــا والمصَّاص بدموع واحدة، لم نكن نبكي ولهان الخمـــري الـــذي لم يره المصَّاص أبداً من قبل ولا يعرف تاريخه، ولكنا نحيـــي جلافـــة الموت، نؤدي واجب الخضوع لسلطة الموت، تلك التي أذابت الخمري، ولا بد ستذيبنا. لموه بسرعة من أمامنا، و لم يفلحوا في لم هلعنا.. أو دموعنا التي كانت تشيعه.

في تلك الفترة، كان بيت الغسيل يطرق باستمرار، ولا تنقطع عنه الأرجل، جيء بجندي من سرية راميي الأقواس والنبال، قيل صلى ذات صباح وفي عينيه بقايا نعاس، ونتفت أظافره كلها. جيء بآخر من سرية المـــوت، شـــكوا بنواياه تجاه الثورة واحتمال فراره إذا نشبت الحرب، ذلـــك حين تدرب بسيف غير مسنون، واستطاع برهاني في يوم واحد

فقــط، أن يستخرج النوايا من داخله، ينظفها جيداً ويعيدها إليه. لكن أغــرب المغسولين، كان حصاناً من أحصنة الحرب القوية، يستخدمه قائد الكتيبة أحياناً في تنقله إلى مدينة السور، وكان قد سقط في حفرة لا يــسقط فــيها حتى سخل رضيع. يصادقني المصَّاص بعذابه وأبادله الــصداقة بعذابــــي، ونأكل معاً عصيدة التبلدي المرة، كعذاب متقن آخر، تعذب به غريزة الجوع.

صــباح عــادي مثل أي صباح معذب، وقد مضى شهر كامل، ماتــت فــيه الحواس كلها، أصبحت لسعات العناكب، لا تؤلم، براز الجرذان، لا يستدعي القيء من مكامنه، والحجارة المدببة المشتعلة، كأنها أكاســير ترطيب للجلد.. سمعنا هرجاً عالياً في الخارج، وأصوات سرية (جــبّارين) ذات الحلــوق الهادرة تصرخ.. يا ودعة.. يا مصاص.. يــا قائمقــام.. كان من الواضح إن ثمة خطب قد حدث في المعسكر، ومهمــة ما، تنتظر البدوي الذي ينحدر من قبيلة (آل بطاح)، أخيراً.. وإنه راحل.. أنــزله القائمقام من وتد الغسيل الذي كان معلّقاً عليه، دلــق على وجهه ماء نظيفاً، وأعاد إليه ثوبه الأبيض الذي كان مكوراً في أحــد الأركــان، دحرجه إلى الباب، سلمه لجندي السرية، وعاد لمواصــلة غسيلي.. وغسيل فرد آخر لم أكن أعرفه و لم أره من قبل ولا دلت ملامحه الهزيلة عن جرم محدد. كنت بائساً إلى أقصى حد، ومحطّماً إلى أقــصى حد، أتذكر وجه ولهان الخمري، وعينيه اللتين لم تردا أن تفلتا الحياة حتى بعد أن أفلتت. أتذكر الكابوس الذي رأيت فيه حبيبتي (حميلة)، بهيمة صحراوية، مثقلة بأثداء الدم والجهاديون يرضعونها حتى تجــف، ولا أتذكــر طعمها البنفسجي. أتذكر الحاكم (دامير) الذي اقتــربت مــنه كــثيراً في أيامه الأخيرة، مبعثراً عند باب خليلة الزنج (المزينة)، وميّتاً على صهوة جواد، أتذكر القائد موسى عرديب، وأغنية

البائسات (لا تلم يا لائم)، وأبحث عن مفردات للتوبة، لا بد قد وعيتها أثناء رحلة الغسيل الطويلة، ولا أعثر على مفردة واحدة، كنت وحيداً ومأزومـــاً، وبرهاني يتكر الآن لغة جديدة، يشدني من أماكني السرية، يضخمها بالوجع والورم.. يهدر.. تب أيها الكافر.. تب أيها المرتد.. أود سؤاله عن معنى التوبة.. ولا أستطيع.

- 2 -

أخيراً انتهى غسيلي المتسخ بجدارة، وخرجت من عزلة البؤس إلى غمـــوض المصير. كان أكثر ما يدهشني إنني لم أمت، بالرغم من أنني اشـــتهيت الموت حقيقة، تمنيت أن ينفجر عرق في الصدر، أو يتوقف القلـــب عن الضخ، أو تتمزق المصارين، كما حدث في موت (ولهان الخمـــري). أخـــرجني القائمقام برهاني، من وسط براز العناكب بلا صراخ ولا هدير، رشني بالماء كما رش ودعة المصّاص، أعاد لي هلاهيل الطـــباخ القديمـــة لأرتديها.. ولقنني مفهومه الخاص بالتوبة التي جاءت أخيراً، حين اعترفت أمامه بأنني كنت متسخاً بشوائب النصرانية، والآن أنظـــف مـــن ضـــوء الـــنهار.. ثم دحرجني إلى الباب، سلّمني لسرية (جبّارين) القوية، التي كنت أتوقعها ستجرني إلى خيمة القائد مباشرة، لينقب عن ضوء النهار في وجهي المليء بالجروح والدم، ويطالب بسيرة حبيـــبتي البنفسجية، لكن مجندوها تركوني أمام بيت الغسيل من دون إرشاد، وتجرجرت إلى داخل المعسكر.

أول مـــا فعلـــته، هو أن ذهبت إلى الخيمة الممزقة، حيث دفنت الخـــاتم الثمين، لم أكن أريد أن أعانقه وأضمه إلى قلبـــي، لأتذكر به حمـــيلة فقـــط، ولكن لأحييه باعتباره كان في إصبع من الأصابع التي خدشت غريزة الجهادي الحمّال، ولطخت وجهه بالدم. كنت أتلفت في حـــذر وأصـــابعي تنبش الرمل، أخاف من عيون قد تراني وتفضحني، وأخاف أن أعود إلى برهاني وغسيله ولا أموت مرة واحدة ولكن مائة

مــــرة. أخـــيراً أصبح الخاتم في يدي، أصبح في حواسي، في أحلام ربما أحلمها، ويناديني بصوت حميلة الدافئ المنعش، أن أضمه، أن أقبله، أن أضـــيع بـــين نقوشه كما كنت أضيع في لقاءات الوجد.. أسمي هذه النقشة منون، وتلك مريا.. لا.. لا.. سأعدل الأسماء، أبحث عن اسمين آخرين يشبهان عقيدتي الجديدة التي كنت أحبها بالرغم من كل شيء. ربطت الخاتم على سرتي قريباً من الأحشاء، واستمريت في التجرجر نحو خيمة الطبخ، حيث لا مكان للأحلام، إلا تلك التي نأتي بها قسراً ونحن في كامل الوعي.

اســـتقبلني زملائي الطباخون بالدموع، يبكون ويرفعون أكمامهم إلى العيون، يزيلون دمعاً قديماً، ويحتلبون آخراً.. (حربـــي) الذي كان سقا في مديـــنة الـــسور، يقيم في حي (كف عفريت)، يتحاوم بالماء على حماره المنهك يسقي ويحصل على القليل، وأصبح طباخاً من دون خبرة.. مناحي الـــذي جاء من حي (أرض الكوثر)، وكان بلا قبيلة ولا رزق سوى ذلك الذي تحصل عليه امرأته من الدوران ساعات طويلة في المدينة، يحي المشلول من صغره، ويطهو الطعام بمشقة، أو لا يطهو معتمداً على شفقة الآخرين، (زمزام)، العسكري الذي كان قرب القائد (موسى عرديب) حين سقط، ومـــا زال يباهي بلطخة من دم قائده، ملطوعة على صدره، لا تبهت أبداً. (دمـــير) الأخرس الذي لموه من فوق جثة أبيه الذي كان واحداً ممن التموا للـــدفاع عن المدينة ومات والمدينة تسقط، وتوما المراهق الذي أصبح اسمه حـــسون، شريكي في اشتهاء حميلة، يلمها بأدواته الخاصة في ليالي الجوع.. لكن أين توما المراهق؟.. لم يكن ثمة خروف مصروع في الخارج عليه آثار تـــوما، ولا خروف معلق تسلخه يدان ولا حساء يغلي على النار، تصب عليه البهارات. أين توما المراهق.. أين حسون؟. يدمعون ويرفعون الأكمام لكنس دمع، وإيقاد آخر.. وينهمرون.

كـــان توما كما عرفت بعد أن سكن دمع الطباخين، قد افتدى المـــصَّاص بروحه، كانا صديقين حميمين، و لم أكن أعرف بذلك، لكن الآخرين كانوا يعرفون. كان المصَّاص قد علمه الرجولة خفية، الرجولة الحقـــة في الجـــسد الحي، وليس رجولة الوهم على فراش خاو وأوراق مدرســـية، كانـــا ينسرقان في الليل إلى أشلاء المدينة الممزقة، يتلثمان ويـــضيعان، يغامران، ويضيعان، وصنعا عالمًا سرياً حافلاً بأخطاء اللذة، لم يـــستطع توما احتمال زواله بعد أن غاب المصَّاص في بيت الغسيل بـــسبب البطالة، وأراد أن يعيده. ذلك اليوم كان مهتاجاً بشدة، صرع خـــروفين في هياج، سلخ جلدهما في هياج، ومضى يبحث في الشقوق والحفـــر خلف الخيام، حتى عثر على عقرب أسود ممتلئ بالغدر، غرسه في لحمـــه وصرخ، وحين جاءوا بودعة من بيت الغسيل، كان السم قد وصـــل إلى الروح وأذاها. واكتشف المصَّاص طعمها في لسانه.. ردد وهو يمص ويبصق:

- هذا ليس طعم السم، ولكنه طعم الروح.

كـــنت مـــصعوقاً بـــشدة، ولا أكاد أصدق، أتذكر الولد الذي شـــاركني تعاسة الفقد، حتى بكينا معاً وتعاهدنا عهداً لم أف به، ولا أظـــنه وفى به، ابن حارس نادي (يوتوبيا) الذي فقد أباه وأمه، الذي لم أكـــن أعرفه جيداً حين كان توما عاشق حبيبتي الوهمي، وعرفته حين أصـــبح حـــسون، طابخ الثريد، وسالخ خراف السعر لخمسمائة فرد مسعور. افتدى المصَّاص بروحه.. عبارة لم أحسها طرية، ولا انسابت إلى داخلي كما تنساب العبارات، وحتى لو صنع له المصَّاص عرشاً من اللـــذة، قـــصوراً مـــن الرجولة الحية، لو أرقده على فراش نساء حي (كـــاهير)، وحي (لونا وراجيف)، لا أظنه يموت مفتدياً. كان توما في الغالـــب قـــد يـــئس، قد تحطم، قد رأى لون المصير كما لم نره، شم

رائحته كما لم نشمها، واخترع نهاية الزهد تلك، أن يموت بسم عقرب أسود وغادر، ولعله كان الوسيلة الوحيدة المتاحة ليمتطيها، ويمضي. في ذهني المتوعك، عثرت فجأة على دليل يأسه وتحطمه، كان ذلك قبل يومين من رحلتي في غسيل برهاني، حين كنا نجلس معاً وسألته بلا مقدمات عن رأيه في لون مصيرنا.. قال.. ابحث عن لون مصيرك يا عم، أما أنا فقد لونت مصيري وانتهى الأمر.. لم يقل لونه بأي لون من الألوان القاتمة التي تتحاوم حولنا، و لم يضف حرفاً آخراً، وهب واقفاً لأن كبشاً متمرداً أطاح برجلين، ولن يصرعه سوى المراهق القوي.

كان ودعة المصَّاص الآن، واقفاً على باب الخيمة، وقد بدا لي أكثر نحولاً من أي وقت مضى، حتى حين كانت مواد الغسيل تلعقه وتمص لحمه بلا هوادة. كان قد احتال على نظم المعسكر التي لا تسمح بتواجد المجندين في غير أماكنهم، وجاء لعناقي أو ربما ليعزيني في وفاة ولد صغير لم يكن عدلاً أن يوجد بيننا وأن يموت هكذا بلا عمر. صرخ في أحد الطباخين أن يخرج إلى ساحة الخيام، يصرخ.. إن عقرباً قد لدغ سعد المبروك، وأخرج في نفس الوقت عقرباً منهوكاً وخاملاً من جيبه، غرس ذيله في جلدي، وأخذ يمص.. ومن بين بصاقه وأسنانه الزرقاء كان يخرج حديث كنت أفهم بعضه ولا أفهم البعض الآخر، وتأتي من محجريه الضيقين كجرحين قديمين، دموع تختلط بالدم والبصاق. لم تكن ثمة فرصة لأسأله عن صداقة توما، وعن مراقد اللذة التي وفرها له، وعن طعم روحه كيف كان يبدو؟، والخيمة الآن غاصة بالمجندين الذين اندلقوا على صيحة الطباخ وكان التقلاوي لوحة ناقصة، بلا سيف على الخصر ولا صقر على الكتف، يتأمل المهمة الكاذبة في نفاد صبر. حين ترك المصَّاص جلدي وخرج برفقة الآخرين، كنت أقل تشوشاً، وأحس برغبة جارفة في فعل أي شيء آخر غير البكاء.

كـــان توما قد صنف شهيداً، كما عرفت بعد ذلك، لفوه براية خـــضراء مرقّعة، هي شعار المتّقي الذي اختطه لنفسه، ولأمراء جهاده الكـــبار، والذي غرسه في مدينة السور، ويطمح إلى غرسه في كل شبر آخـــر، بما فيها أشبار العاصمة البعيدة الغامضة. بخروه ببخور (التيمان) ذي الـــرائحة الـــنفاذة، رشوه بالمسك الذي هو ريح الجنة، وزفوه إلى واحـــدة من بنات الحور، كانت بانتظاره حيث ذهب. وفي ساعة دفنه التي احتشد لها الجميع بلا استثناء، قالوا إن القائد (عبّادي طلسم)، أمر أحد المجندين أن يدق طبلاً نحاسياً من طبول الحرب، ويزغرد، وردد هو بـــصوت القـــيادة وصوت قبيلة (الفولاني) العريض، نشيداً حماسياً مجلجـــلاً، احـــتفاء بذلك العرس المجيد. وحين سألت عن إمكان أن أزور قبره، لأبكيه، ارتعد الطباخون كلهم، كانت زيارة الشهداء في عرف المجاهدين، تدنيساً لعزتهم، وإقلاقاً لمضاجعهم التي تؤوي بنات الحور.

فيما تبقى من ذلك اليوم، كنت راقداً على فراش المرض، ليست حمـــى كاملـــة مـــن تلك التي تحدث في اللدغ الحقيقي، وتأتي بالعرق والهـــلاوس، ولكـــن ارتعاشات قليلة أخبرني المصّاص قبل رحيله، إنها أصوات جنود الدم، حين يعاركون عدواً مسكيناً بأصواتهم فقط. فقد كان السم الذي غرسه في دمي، مجرد مسكنة لعقرب مسكين. صنع لي (حربـــي) الطباخ مرقاً دافئاً، أبيته بشدة، وأبرني (زمزام) ببقايا ورك، مجرح بالأسنان، لم أستطع تذوقه، لم يسأل عني الأمير طلسم كما كنت أتوقع، لكن التقلاوي عاد مرة أخرى، كان مكتملاً هذه المرة، السيف على الخصر في موضعه، والصقر أعلى الكتف، وثمة إرشادات عن كيفية الـــصلاة بالإصـــبع الـــتي يجب أداؤها حتى لو كان المريض على حافة الغيبوبة، كانت تخرج من لسانه.

لم أكـــن قي الحقيقة أحب التقلاوي ديدام، لا ذلك القديم الذي خـــدم خدمة بائسة في مجلس المدينة لأكثر من عشر سنوات، ولا هذا الجديـــد الـــذي يتلون الآن بالأخضر المرقّع، يمشي بالخطوات المنغمة ويتباهى بكونه قائداً جهادياً. وبالرغم من أنه منح لقب الأمير من قبل المتّقي شخصياً، كما سمعت، إلا أنني لم أجد فيه ما يملأ اللقب أو حتى نصفه، ولا أستطيع مهما امتلأت خوفاً أو تعتيماً، إلا أن أستعيده قديماً، يـــصنع الشاي والقهوة، ويتراكض بين مكاتب المجلس حاملاً ورقاً من توقـــيع إلى توقيع، أو يتصعلك في أزقة (كف عفريت)، ونواصي سوق (أبـــــي جهل) الشعبـــي، يغازل الفقيرات، بغزل أولاد الريف الذي كلـــه فـــسوق ولعنة. أذكر إنني ذهبت مرة إلى قراهم التي تقع جنوب مدينة السور، حيث المطر مجرد رذاذ منهك، والرعي أبقار، وأغنام وإبل هالكة، كنت أبحث عن الثروة، وعدت بالرماد، وعثرت في تلك القرى علـــى عـــشرات مثله، لا بد الآن يساهمون بفوضاهم، في تلك الثورة غـــريبة الأطـــوار الـــتي تقـــول أبجديات علم (الانحطاط) كما علمني الانطوائي المصري، إنها بدأت نصا حكوميا كان يمكن أن يمثل وينتهي في قرية (أباخيت)، لكنه خرج عن السيطرة.

كان يقف أمامي وأنقب في وجهه، وصقره الرابض كمحنة، أعثر علـــى قديمه بسهولة، ولا أتذوق جديده. ووجدت نفسي أسأله فجأة، ولا أدري هـــل كان ذلك عن وعي، أم جزءاً من أصوات جنود الدم، خرج في شكل سؤال:

- ســـيدي الأمير.. كيف وصلتم إلى هذه المكانة الرفيعة في قيادة الثورة؟

ازدراني بنظـــراته الغليظة، حين أبعدها عن وجهي تماماً، رماها في وعاء ممتلئ بالعفن والشحوم والفضلات، ازدراني بسيفه الفضي، حين

لم يمـــد يـــده إليه و لم يتحسسه، بصقره حين تركه رابضاً كمحنة و لم يلكـــزه، لكن أعظم ازدرآته كانت، حين خرج من خيمة الطبخ، من دون أن يبدو غاضباً أو مزمجراً.

كـــان الطـــباخون يـــرتعدون، يدلقون على وجهي الماء البارد، ويدثروني بالخرق، ويأتي المصَّاص شاحباً وأزرق اللسان، يغرس فمه في موضـــع اللدغة النظيف، ويستغرب. لم أكن محموماً كما ظن الجميع، فقط أصوات جنود الدم، خرجت إلى السطح، ولا شيء آخر.

- 3 -

فجأة ترقيت.. نعم ترقيت إلى وظيفة أعلى، ولا أعرف أبداً كيف جاءت تلك الترقية، لطباخ هزيل، عالق بأذيال النصرانية، وتم غسيله في بيت (برهاني) لأيام طويلة حتى جف. غاب الأمير عبَّادي في جوف المدينة يومين عريضين بناء على طلب المتَّقي، الذي جاء يحمله رسول قيل إن اسمه (عكرمة الضراب)، وشاهدته يهبط عن جواده الرمادي، أمام خيمة القائد، واكتشفت من مشيته وهزة رأسه، وريشة من ريش الدجاج، خلف أذنه تستخدم في الكتابة، إنه قريبي الشاعر (مسمى طاؤوس)، الذي كان يبيع قصائد الشعر للريفيين في (خزي العين)، و لم أندهش أبداً.. الزنديق إذا دعا الأمر.. مادح الجنود الخيالة الذين لم يملكوا أبداً إيحاءات مدح، وناظم آخر أغنية محتالة، ترنح بها المغني (جريح)، في خزي العين قبل أن يندثر، والآن رسول المتَّقي، لآن الضرورة لا بد قد حتمت ذلك ولا أعرف كيف عثر على المتَّقي، الذي لا أعرف حتى الآن إن كان حقيقة أم مجرد خيالات فقراء.

لم أخبر أحداً باكتشافي، ولا ظننته اكتشافاً ثرياً، ولكن مجرد حدث عادي، تماماً كالأحداث التي كانت تجري في مدينة السور، حين كانت مدينة.. مخلوف المجنون عارياً في الطرق، يبحث عن أخشاب من النار، ليبني بها سفينة نوح، إحدى بائعات الهوى من حي (ونسة)، تابت فجأة وتوقفت عن دفع الضرائب، فقيرة من حي (أرض الكوثر)، باعت طفلا لسائح.. دجال إفريقي يأتي فقيراً، ويفر حاصداً ثروة.. هكذا.

أرســـلوا في طلـــب غداء للرسول المحترم، وأعددناه كما طلب، ذكروا إنه يحب اللحم مشوياً، يحب طعم الملح و(الحبهان) على حسائه، فـــشوينا اللحم، وأكثرنا من الملح والحبهان على الحساء، وقالوا يحمل أنباء جديدة للقائد، و لم نسأل، لأن لا أخباراً جديدة ولا قديمة، ستحفر كوة في ظلام المصير. وقد سمعنا في الآونة الأخيرة إن حكومة العاصمة قد بترت (السور) وضواحيها، وأريافها التي تغلي بهوس المتّقي وأتباعه، عن جسد الوطن، وتفرغت لابتكار وسائل للحماية لبقية الجسد، لكن لم يكن ذلك مؤكداً.

كـــان مـــسمى قـــد اختفـــى عن عيني أثناء إرهاصات الحرب، وبالـــتحديد، في ذلـــك اليوم الذي أقيم فيه عرس الغرابة، عرس الملكة نديمة، والبكباشي صبير الذي لم تحبه أبداً. لم يكن واحداً من السواعد الـــتي التمت من كل شبر لتفتدي المدينة، لم يكن في صحبة من تجمعوا للاحتماء في سرداب ساحة المجد، ولا كان مرتبكاً، ومفزوعاً مثلنا، يوم ارتبكـــنا وفزعنا في السوق الكبير.. سوق حمزة وابنه، و لم تنعه الأخبار التي تواترت ونعت من مات. في الحقيقة لم يكن ذكره يرد إلى خاطري أبـــداً في تلـــك الأيام العصيبة، بالرغم من قرابتنا المؤكدة، حيث يعتبر واحـــداً مـــن أبـــناء العمومة، فلم يكن مسمى الذي كان قد تجاوز الخمـــسين، بلا عيال ولا زوجة، من ذلك النوع الذي يترك في الذهن خامات ذكرى.

ترك القائد أمر الكتيبة في غيابه، للتقلاوي ديدام، ورافق الرسول عكـــرمة الضراب، الذي هو مسمى طاؤوس إلى المدينة، منوّهاً بصوت القيادة وصوت قبيلة (الفولاني) المجلجل، إنه سيعود بعد يومين. وكانت تلـــك الـــيومين، هي ألعن يومين أحضرهما في صحبة الكتيبة، امتلأتا بـــصوت الـــتقلاوي الغليظ، بخطواته الراكضة بين الخيام، بسيفه الذي

أكل إصبعاً لأحد المجندين، وصقره الذي كان يتسلى بخصيات الرجال، يعتـــصرها بين مخالبه، ويتهزهز. وفي اللحظة التي اقترب فيها من سرية (جـــبّارين)، أقـــرباء الأمير طلسم، وحراس بيت الغسيل، وأراد تحديد مهمامها والتأكد من كفاءتها لحراسة ذلك المستودع، تصدى له (جبريل لالو)، قائد السرية بأن وقف طويلاً وعريضاً أمام صوته، فألغى انتفاشه في شأنها.

مـــن ناحـــيتي، لم يتغير أي شيء كما كنت أتوقع وأخاف من توقعـــي، وكـــأن ذلك السؤال الذي باغتّه به، في يوم لدغتي المسكينة، كـــان عن حالة الطقس، أو تحية.. هي السلام عليكم ورحمة الله. كان يزور خيمتنا في حمى زياراته للخيام، قد يسأل عن مقادير الملح التي تثير الدم، قد يمد يده إلى النار، يتناول قرصاً لاسعاً من القمح، يتذوقه، وقد يفلت صقره، يتركه يرعى في العفن والفضلات، ولكن ليس في خصيتي أبـــداً، وقـــد غلفتهما بعشرات الخرق، تحسباً لمكر الصقر. وفي أوقات الـــصلاة، خاصة تلك التي تقرأ آياتها جهراً، كان يزيح سيدنا (مفتاح الفلاح) بخشونة، ويقرأ بصوته الغليظ، قراءة لم تكن تعجبني، ولا أظنها تعجب أحداً.

أخـــيراً عاد القائد الحمّال من مهمته في المدينة، سمعنا صوت خيل تصهل، وحوافر تحفر، وصوت آلة (الكارور) العصية على النفخ، يترنح بأنفـــاس اليمني (جبّار القرنين)، وظننا أنها لغة الحرب ترطن وتتوغل في الرطانة، وخرجنا إلى الساحة التي تتوسط الخيام، وكل يحمل أداة موته أو انتـــصاره. حـــتى نحـــن الطباخون الذين دربنا من قبل، كنا نحمل السيوف والحراب، والذعر.

كانت الساحة مضاءة بفوانيس شحيحة الضوء، كأنها امتصت ما تبقى من ضوء النهار، والآن تدلقه بشح، القائد يقف في المنتصف تماماً،

أخـــضر الـــثوب والعمامة، وبين أصابعه ورقة صفراء مطوية، عن يمينه الـــتقلاوي بـــلا غطرسة ولا صقر ولا سيف في الغمد، واليمني جبّار القـــرنين، مـــا زال يضخ أنفاسه في الكارور، حتى غدا حلقاً منتفخاً، وحـــتى بعد أن تقيأت الخيام كلها، وتجمع قيؤها مكتملاً بالعدة والعتاد في وســـط الساحة.. رأيت حاملي النبال يحملونها بترف، راميي القوس والنشاب، على وشك أن يرموا، المدربين على ثقل السيوف والحراب، تلمع أدواتهم على الأكف، وأولئك الحداثيين ممن تعلموا رطانة البنادق، يجهزون بنادقهم بالرطانة.

- حسنا يا جبّار..

هدر صوت القيادة، صوت قبيلة الفولاني الكبير، وتوقف ضجيج الكارور.

- ليـــست هي الحرب يا أحباب.. ولكن رسالة من سيدنا المتَّقي أعزه الله. أثنوا على المتَّقي يا أحباب. أثنوا على المتَّقي.

بغـــتة هدرت الحناجر بهديرها الذي قهرنا في يوم الغزو، أكثر مما قهـــرتنا الـــسيوف، والحراب، هدر بنغماته ورطاناته المختلفة، بقبائله وشـــرازم قبائله وتضفر ليتعانق، ويتصافح، ويسري في بداية ذلك الليل الغريب، وأكاد أسد أذني حتى لا أسقط:

- أعزه الله.. أكرمه الله.

كانـــت نظرات القائد الآن تتقافز بين المجندين، تعض برهة على وجـــه، وتفلـــته لتعض على آخر، والفوانيس شحيحة الضوء، لا تمنح الملامـــح كاملة، ولكنَّها تمنح الإحساس بوجود ملامح، تابعت نظرات القائد في ركضها، وعدم ركضها، وتخيلتها برهة تتوقف عندي، تعض علـــى وجهـــي أكثر مما عضت على وجوه الآخرين، دقيقة، دقيقتان وعشر، تماماً مثلما حدث في يوم السقوط، يوم هبط الحمّال عن فرسه

وسط الحراب والذعر، ويوم عينت طباخاً برغم مكانتي وقدري، والآن أرتبك أمام ذلك العض الجديد، ولا أدري ماذا سيحدث.

- اقترب يا سعد.

واقتربت. كياني يهتز، وأحاول التماسك، الورقة المطوية تنسل من يد القائد وتمتد نحوي، ولا أخاف لمسها أبداً، ليست جمرة بالتأكيد من ذلـــك الجمر الذي كان يأتي به التركيان أرقم وجاويد، ويخاف الحاكم دامـــير مـــن لمسه حتى لا يحترق ويأمرني بالاحتراق به، ولكنّها بالقطع قصيدة حالمة. قصيدة (ريماس) التي كلها نجوى، وأصوات عصافير تحت أشجار المانجو، أو على حافة غدير.

- اقرأ رسالة المتّقي يا سعد.. اقرأها على الأحباب.

كـــان صوتي نشطاً بشدة، وأنا أواجه الجند، أربطهم إلى صوت المتّقي كما تخيلته، كما رسمه التركيان الرسولان، وأحاول رسمه الآن:

بسم الله الرحمن الرحيم

مـــن الإمام المتّقي، ناصر الحق وحارس الدين، وغارس الخوف في قلوب الواجفين، إلى أحبابه حاملي رايات الجهاد.

نقرئكم السلام، وندعو لكم بتمام الإلفة والوئام، وإنه قد بان ما خفي، وانكشف ما كان مدسوساً، ودخلنا السور لنطهرها من الدنس، ونغرس على أرضها بذور العزة، ونجرجر الكفار وأذيالهم إلى هلاكهم، وقـــد أبليتم أيما بلاء وأحسنتم أيما إحسان، وإننا نبشركم بريح الجنة، ونثق في بلائكم يوم الزحف الكبير، من منا لا يحب الجنة، من منا لا يشتهي بـــنات الحور، من منا لا يود نيل الشهادة. سأزوركم قريباً يا أحباب، أتملى من نور وجوهكم الطيبة، وأدعو لكم بالخير.

ســـلام عليـــنا في الدارين.. هذه الفانية، وتلك التي نشم ريحها، وبئس للكفار وأذيالهم.

انتهت القصيدة الحالمة، وهدرت الحناجر بالرطانات كلها، أعز الله المتَّقي.. أكرم الله المتَّقي. كان نص (أباخيت) المتواضع، بتواضع القرية التي مثل فيها لأول مرة، قد اتسع بجدارة، ويسعى الآن ليمثل على مسارح الوطن كلها. فحت آلة (الكارور) على حلق اليماني، معلـــنة انتهاء الهدير، تشتت المجندون إلى خيامهم، وليلهم الذي قد يـــضمونه نعاســـاً، وقد يضمونه ترفاً في تسلية الورق والحظ، وقد يسرقون منه ساعات بذيئة، ينفقونها في سوءات المدينة التي لن تنقطع عـــنها السوءات برغم كل شيء، شاهدت المصَّاص، نحيلاً ومسكيناً ومقـــوس الظهـــر، يتجرجر نحو خيمته، شاهدت مشرف الغسيل (بـــرهاني)، مدججاً بالنجوم والصقور، يمشي بخيلاء، وأمسك بـــي صـــوت القائد الكبير في لحظة لم أستطع فيها مراوغته والإفلات من حصاره:

- تعال معي يا سعد.. تعال.

لم نكـــن وحدنا في الخيمة الكبيرة هذه المرة، لكن التقلاوي كان هـــناك، والـــيمني جبّار القرنين أيضاً، بحلقه الذي ما يزال منتفخاً من صـــراع آلة الكارور. جلست على أحد بروش السعف المقشرة، كما أمـــرني القائد، أتوقع كل شيء، حتى العودة إلى غسيل برهاني، ولكن لـــيس السؤال عن صلاح حميلة أو سيرة حياتها، ليس هذا ليل البنفسج بلا شك، والخيمة ليست لنا وحدنا، أنا والقائد، ولكنه ليل آخر سأتبع وحله ومرارته، وأرى ما وراء ذلك النداء.

- مـــنذ الآن لم تعد طباخاً يا سعد. ستصبح تابعاً للقائد.. هذه هي وظيفتك الجديدة.. هل تفهم؟

ردد القائد، ويداه الجافتان، تعبثان بمسبحة الصوفيين المنسوجة من ثمار (اللالوب).

لم أكـــن في الحقيقة قد فهمت ولا ظننت إنني سأفهم أبداً، لكن جـــبّار القرنين، الذي كان يبدو وثيق الصلة بالخفايا، وتتجاوز مهماته نفـــخ الكارور، وتفصيل الدروع، وترويض خيل الحرب ذات الصهيل القوي، أفهمني، وبناء على إشارة من القائد.

كانت وظيفة التابع في واقع الأمر، وظيفة ذليلة أخرى، لكنَّها في نظـــر الجهـــاديين، أرفع شأناً من وظيفة الطباخ المفصلة أصلاً لمنهوكي القـــوى، وفتات القبائل، كانت تختص بملازمة القائد في كل لحظة من لحظـــات يقظـــته، تجهيـــز ماء وضوئه، تجهيز سجادة صلاته إذا صلى منفرداً، تجهيز ثوبه الذي سيرتديه، تجهيز أفراحه وأحزانه، ومده بخامات خطـــبه الـــتي قد يلقيها أمام الجنود، وأيضاً كتابة رسائله إذا ما راسل أحداً، ومرافقته إلى داخل المدينة، إذا دخل المدينة، والموت بقربه أو مده بحـــلاوة النـــصر، إذا مـــا قامت الحرب ومات فيها أو انتصر. كانت باختصار شديد، وظيفة خادم، وخادم مطيع، يستيقظ قبل أن يستيقظ القائد، ولا ينام حتى ينام.

لم يكن للأمير عبَّادي، تابع حتى تلك اللحظة، ومنذ أن نـــزحنا مـــن داخـــل المدينة بعد أن تورمت، وسقطت، والجهاديون في كتيبة صـــقور، بكـــل طوائفهم وأمزجتهم وفوضاهم، يتطلعون، يودون لو اخـــتيروا تـــبعا للأمير، والأمير لا يبدو مغرما بأحد، ولم يشر أبداً إلى حاجـــته لـــتابع. كـــان ينجز شؤونه الخاصة بنفسه. وكنت دائماً ما أســـتغرب حين أسمع عن ذلك الطموح، ولم يخطر ببالي أبداً أن أصبح ذلـــك الذي حلم به الآخرون ولم ينالوه. كنت في قمة البؤس حقيقة، أتـــوجس من وظيفة قد تقربني من النار، أكثر مما تبعدني عنها، قد تثير الغيرة والحسد في مجتمع بائس حتى وهو بلا غيرة أو حسد، وفكرت في قريبـــــي مسمى.. عكرمة الضراب، رسول المتَّقي، وإنه من نصب لي

الـــشرك حـــتى أسقط، لكن مسمى ليس حصيفاً في نصب الشراك، لم يـــتعد احتياله لمصلحته، ولا أظنه حتى يعلم بوجودي هنا في قلب النار التي لامسها على صهوة جواد ومضى. فكرت في خميلة التي في قلبـــي، وفي شـــهوة القائد وسبيه، واقتنعت بأنها لم تنصب الشرك حقيقة، لكن الـــشرك نـــصب مـــن خامات رونقها. يريدني القائد الحمّال خادماً ليمتطيني، ليذهب بـــي إلى البنفسج، ذهاب خادم وسيد، لم ينقب في وجهـــي حتى، ليبحث عن ضوء النهار الذي رسمه برهاني كما اعتقد، ولم يـــتأكد إن كنت جهادياً حقيقياً، أم ما أزال عالقاً بأدران النصرانية التي هبت ثورته لجزها من العرق. في خيمة الطبخ كانت ثمة خصوصية، حـــتى لو كانت خصوصية طائر جريح، خصوصية طباخ مهزوم، نعد الطعـــام، ولا شيء آخر، وننتظر الحرب لنموت أو نحيا عرايا، أو نعود إلى السور لنرتق جروحها، وربما يئس أحدنا وتحطم، واختار ميتة زاهدة كميـــتة توما المراهق، ولولا إنني كنت في قلب خميلة، وكانت هي في قلبـــــي، وشهوة القائد الحمّال، لربما كنت كحربـــي، أو مناحي، أو العسكري زمزام، أو المشلول يحي، بعيداً عن النار الحقيقية، لا أقربها.

كنت في حاجة لمن يرجم هواجسي، يهشها بعيداً عني، بحاجة لمن يمنحني صدراً حتى لو كان صدراً بلا عواطف، لأرتمي فيه قليلاً، وبحاجة ماســـة لعقـــرب حقيقي من عقارب الغدر، يغرسه المصّاص في دمي، ويمص باصقا طعم الروح.

قلـــت للقائـــد في داخل أفكاري فقط، إنني لا أصلح، وما طاش قـــولي إلى أبعد من الأفكار، وشاهدت في وسط الخدر والتوهان، جبّار القـــرنين اليمني، يقترب مني، يسلمني سيفاً ودرعاً جديدين لا تشبهان سيوف ودروع الطباخين القديمة المهترئة، وملابس بيضاء رسمت عليها شارة خضراء، هي لا بد شارة التابع التي تميزه.

كنت في طريقي إلى خيمتي القديمة، أستبدل قميصي، وأفكاري، وأبهر البؤس الجديد ببهارات جديدة تشبهه، حين لحق بـــي التقلاوي ديـــدام، كـــان ودوداً إلى درجة لم أصدقها، بارك لي وظيفتي الجديدة باحتـــرام، وابتسم وكانت ابتسامة لم أستطع قراءة ما وراءها أبداً. لم تكـــن القديمـــة الخاضعة، ولا الجديدة ذات السطوة، ولكن أخرى لم اســـتطع قراءتها. كنت على وشك الدخول إلى خيمتي حين مد يده إلى جيـــبه، أخرج زجاجة صفراء صغيرة، عليها غطاء ذهبـــي، غرسها في يدي وهو يردد:

- ريح الجنة.. ريح الجنة يا شيخ.

- 4 -

جهّــزت لي علــى عجل، خيمة صغيرة من قماش كان أزرق داكــناً في أحــد الأيام، وتبخر لونه، بجوار خيمة القائد. كانت في الواقع ملتصقة بالخيمة الكبيرة، بحيث أمكنني أن أعد أنفاسه الغزيرة، أسمــع نحنحته، وأتلذذ بكوابيسه التي كانت ممتلئة بالغزوات ونضال السيوف، والتجشؤ، وسيرة سيدنا المتّقي، أعزه الله وأكرمه، وسمعت في إحــداها اسم (حميلة النعناعة) يتردد بلا شك، وارتجفت، لكنني ألغيت ارتجافي بسرعة، وتماسكت، وأنا أكذب على نفسي، وأحيل نعــناعة الكابــوس، امرأة أخرى، غير حبيبتي التي لم تكن أبداً من فصيلة النعناع. ولكن من فصيلة البنفسج. كان خاتمها ذو الفواريص الثلاث - مربوطاً إلى وسطي بخيط من خيوط (الدوبارة)، أتحسسه في وقت انفرادي بنفسي، وأتأكد من بقائه هكذا قريباً من الأحشاء. تــرى هل انهزمت حميلة بغسيل آخر في بيوت السبايا يشبه غسيل بــرهاني؟.. أم ما تزال تناضل بضعف، ضاخة الكوابيس التي أسمعها وأكــذب سماعها إلى نوم الحمّال؟. كان بلا شك يذهب إلى المدينة كما يذهب الآخرون، بلا شك يقضي ساعات كما يقضون، لكن لا يهمــس أحــد بتسلل القائد كما يهمسون في تسلل الآخرين، ولا كــان ممــنوعاً علــى رجل مثله، يعيش وسط القحط، وكتيبة كلــها رعاع، أن يقضي ساعات من المتعة الصحيحة المعافاة، وسط غنائم غنمها.

في الصباح أجهز ماء الوضوء على الإبريقين الفخاريين، في الظهر والمساء أجهزه، أتأكد من وصول الطعام حارا من خيمة الطبخ، حيث كلف (حربي) السقا بإعداد طعامه بعد أن رحلت. أتحاوم حول الثياب الخضراء المرقّعة، أزيد رقعة وأعمق أخرى بناء على مفردات الزهد، وربما أفردها تحت ثقلي، وأجلس عليها ساعات حتى تبدو ثياب قائد خالية من التجعد. كنت أنظف الدروع من غبارها، أتأكد من حدة السيوف والحراب، بتمريرها على جلدي، لأنجرح. وحين يخرج القائد في طوافه اليومي لنصرة جنوده، وإهدائهم أحلام الموت، وريح الجنة المتخيلة، وسماعهم يثنون على الإمام المتّقي بذلك المدير مختلف الرطانات، أخرج معه، أشاهد الغيرة في وجوه غيورة، وأشم الحسد في قلوب تحسدني في المعاناة. وكان الكثيرون بما فيهم قادة السرايا أمثال (لالو)، و(دهمان)، يقتربون مني خلسة، يتأملون شارة التابع تلمع على صدري وتميزني، ويتنهدون.

كان التقلاوي يرافقنا في ذلك الطواف باستمرار، سيفه في الغمد، وصقره على الكتف، وحوارات عن الكفاءة والولاء، والاستعداد للحرب، دائماً ما تدور بينه وبين قائد الكتيبة.

لم يحدثني الأمير طاسم في اليومين الأولين كثيراً، بدا مشتتاً في تأملي، وتقييم نشاطي وضوء النهار في وجهي، ودائماً مسبحة الصوفيين، تتراقص بين أصابعه.

في اليوم الثالث، وكنت معه في الخيمة الكبيرة، أمزق ثوباً جديداً أرسل من المدينة، وأخيطه خياطة الزهد، رأيت الجمر القديم ينط إلى عينيه بغتة، ثم ينطفئ.. قال:

- اجلس يا سعد..

ولم أجلس، لأن التابع لا يجلس أبداً في حضرة الأمير، كما علمني اليمني جبّار القرنين، ولأن خوفاً داهمني في تلك اللحظة، أن يحدث جلوسي، بقعة معتمة في ضوء النهار، الذي جاهدت طوال يومين ماضيين، أن أبقيه ساطعاً على وجهي وخدمتي. ظللت واقفاً مصلوباً، ويدي اليمنى على شارة التابع، كأني أستمد منها صلابة الوقوف. لا بد ستعود سيرة حميلة مرة أخرى إلى حوارنا، بعد أن كانت ألفاظ كابوس في اليومين الأخيرين. ولا بد أن أعدل في تلك السيرة، حتى لا أعود إلى غسيل برهاني، وقد لا أنجو هذه المرة. كنت أكتب سيرة مترفة في ذهني، وأكتب بسرعة.. تخاف مواء القطط، تخاف بصاق الثعالب، تخاف حتى من ثرثرة الجارات إن ثرثرن، وماشطات الشعر، إن مشطن شعراً. تمشي وهي نائمة في كل ليلة، وقد عثر عليها نفر من شرطة الخيالة ذات يوم، تمشي في ليل المدينة، وعليها ثياب عبدة، وأعادوها إلى بيت ظنوه بيتها، وكان في الواقع بيت لص نهب منها حتى ثياب العبدة، وألقاها عارية في الطريق. لا بأس.. متسخة بشدة، تعشق الحصى والرمل، ولا تنام إلا وقشور ثمار الدوم، مبعثرة على فراشها. كنت أكتب في الذهن، أكتب بسرعة، وفي لحظة لمست الخاتم المخبأ في السرة، بقرب الأحشاء، كأني أعتذر، والقائد يعبث بمسبحة الصوفيين، وحلقه تورم الآن:

- هل حقاً لا تعرف عيوب امرأة كنت خطيبها ذات يوم يا سعد؟

- أعرف يا سيدي.. أعرف جيداً.

رددت، ولمسة أخرى للخاتم المخبأ، تكونت وزالت سريعاً.. أعتذر يا حميلة.. أعتذر يا حبيبتي.. أعتذر بشدة. وإذا ما تعدل المصير ذات يوم، والتقينا في ليل وردي، أو صباح زاه، سأبكي عند قدميك، سأطلب الصفح.

لم يطلب الأمير قائمة بتلك العيوب، كما قدرت واستعديت، لكنه قفز إلى ما وراءها، ورمى باستفسار جديد:

- وهل تظنها ستنصلح ذات يوم يا سعد؟

- طبعاً يا سيدي.. العيوب تختفي بمرور الزمن، والشخص المصدوم من فقد شيء أو قريب عزيز، لم يكن يتوقع فقده، يحتاج إلى وقت طويل لينسى، تماماً كما نسيت أهلي الهالكين.

كانت حصاة ألقيتها في مجرى حوار، قد يظل هكذا راكداً يتحاوم حول جسد الحبيبة التي يملكها الحمّال، ولا يستطيع لمسها، وقد يثور فجأة، يستل سيفاً سنيناً، ويمزقني، لم أنس أهلي أبداً.. لم أنسهم حتى وعناكب الغسيل تلعقني، وروائح الجرذان الميتة تعفن دمي، مريا توموس الهائمة في مطبخها ومملكتها، تعد الفجور اللذيذ، الفتى رزق، ذا الشعر المجعد وابتسامة الأطفال، ومشية العسكر التي كان يعشقها منذ الصغر، ورجائي صاحب الإصبع المفقود، الذي ما أزاح يده اليسرى أبداً من أمام عينيه، ولا ضمها إلى جسده، من يوم أن لسعه كلل المخ. لم أنسهم.. لم أنسهم حقيقة.

- أحسنت يا سعد..

ردد القائد..

- كانوا هالكين بالفعل، عمي وصم، وما نطقوا بالشهادتين.

إذن فقد ماتوا.. مات أهلي بالفعل، ذلك المصير الذي كنت أود معرفته منذ أن انضممت إلى البؤس، ولا أود، الضوء الذي أردته أن يشع، وخفت من إشعاعه، والطعنة التي تحاول الآن أن تزعزع عقيدتي، ولا أود أن أتزعزع. كانوا غنائماً تالفة بلا شك، وسخ غنائم أحرقه الجهاديون في ساحة المجد غير الآمنة، حين لموا الترف النظيف، وأحرقوا الوسخ.. كان أخي رزق عسكرياً متطوعاً، لا بد قاتل ومات عسكرياً،

لكـــن مريا الهائمة. رجائي فاقد الحس والإصبع، هل قاتلا أيضاً؟، هل رفعـــا سلاحاً في وجه أحد؟.. السيناريو اللعين، مسرحية الهمج، حين خرجت عن مسرح (أباخيت) المتواضع في أرضه وجمهوره، وتمثل الآن في كـــل شـــبر.. أحسنت يا سعد.. ولم أحسن حقيقة لكنني نافقت. أحســـست ببوادر دموع، وخفت أن يعتبرها الحمّال عاراً، أو شعيرات ذيـــل عالق بالماضي، فتركتها تتجمد على العين، أو تنحدر داخلها.. لكن الحمّال يلمحها، ولا يزجر:

- لا بـــأس يا سعد.. لا بأس.. أنت الآن في النعيم.. قريب من الجنة.. خذ..

أخـــرج مـــن جيـــبه قارورة من المسك، شبيهة بتلك التي دسها الـــتقلاوي في يـــدي ساعة أن عينت تابعاً، فتحها ورش محتوياتها على وجهـــي وملابـــسي، والآن وقفتي ليست متصلبة تماماً، ولكنّها وقفة كسيح يحاول ألا يبدو كسيحاً.

- لا بأس.. لا بأس يا مبروك.

وأحـــس تلك (اللابأس)، حوار سيف، أو رشقة سكين، وأحسد الحـــاكم الـــراحل، يوسف دامير، إنه مات في الوقت المناسب، وولهان الخمـــري، تاجر الجلد والعظم، إنه غسل حتى جذور المصارين. لم يبق مـــن طعم الماضي سوى طعم حميلة، لكن طعمها الآن مر، ولا أملك حولاً ولا قوة لتغييره.

- قـــريباً ســـندخل الـــسور، أنا وأنت يا سعد.. سأزوجك من المجاهـــدة (ضـــو) التي ستسعدك، ستكون عريساً لواحدة من حوريات الأرض.. خذ..

ورشة أخرى من المسك.. من ريح الجنة التي تخيلها الجهاديون.. ويسرفون في استهلاكها.

كنت لاهثاً، أدفن الحزن مؤقتاً، وأحاول الالتقاط، أعود بذهن جامع الثروة القديم، إلى مدينة السور - أيام أن كانت مدينة، تماماً مثلما فعلت، حين ظهر طلحان الزنديق في رسالة الهوس، واكتشفنا بعد ذلك إنه مجرد رمز. كانت المدينة وبقدر امتلائها بالوسخ والفقر، ووعورة السحنات، تضم حوريات بلا شك، حوريات عشن في قلوب العشاق، وحوريات أقمن في نزف الأغنيات التي رددها (جريح)، وغيره من المغنين الذين كانوا يلمعون وينطفئون. حميلة جماري حورية الحوريات بدمها القبطي، وبنفسجها المشع.. الهندية (ساراما)، التي كانت تقيم في حي (لونا وراجيف) وتخطر في الأسواق في ساعة زحامها فقط، لتصرع المزدحمين، حورية بلا شك.. ماريكار، ابنة تاجر الخمور فندوري، الذي قتل يوم الغزو لأنه أطلق الشهادة أمام وجه السيف، حورية أيضاً، وحتى الملكة التافهة الحبيبة، نديمة مشغول، كانت حورية، إذا راق عندها المزاج، سالت دماؤها الشهرية سلسة، وسقط ثقل العمر..

كثيرات.. كثيرات بلا شك، لكن أيهن ضو؟

أيهن التي كانت عاراً في الماضي، وتحولت إلى ضو؟.. من يا عقلي جامع الضرائب.. من؟

كنت أستبعد حميلة لأنها خارج اللعب، ومسورة بالشهوة الكبيرة، استبعد الملكة نديمة لأنها ضاعت في الحدود، خارج نطاق الرؤية، وربما اخترعت قبراً في العراء، كان وطنها الأخير.. ربما كانت ضو، من البدو الذين يضخون إلى الحياة، بنات حور جلفات بلا رونق، وربما كانت من حطام القرى التي نهب الجهاديون خيرها.. وشرها.. وحورياتها.

كان أكثر ما يحيرني في ذلك الطرح، ليس مقايضة حميلة التي لا بد يرمي القائد، أن أواجهها، وأدخلها بنفسي سلسة إلى حياته، بواحدة

قد تكون حورية في الأرض، وقد لا تكون، ولكن حمل السيف.. حمل الحـــربة، الطعـــن بالسيف، الطعن بالحربة، وريح الجنة الذي يعثر من القـــناني، ويلصق بشهوات الأرض. هل حقاً هي تعاليم المتّقي الذي لا أعـــرف أحداً التقاه حتى الآن، وأتحفنا بوصفه؟، أم خيالات متخيلين، تعـــصب عصابات، ورسائل يكتبها قطاع الطرق في صحراء (شرشر) التي كانت تحكم بالخرق والأثمال، وفتافيت الخبز؟. لا أستطيع التفكير. لا أستطيع التخيل.

أردت أن استفسر من القائد طلسم عن ملامح ضو. عن صوتها، هـــل هو ناعم أم خشن، عن دفئها لو كانت دافئة، وهل أملك خيار رفضها لو لم تدخل إلى قلبـــي؟. أردت أن أسأل عن جدوى الزواج، لرجل عالق في كتيبة محاربة، تنتظر رطانة الحرب بين ليلة وأخرى، وربما يهلـــك، ومـــا جـــرؤت. كانت تعاليم الجهاديين واضحة، وشديدة الوضوح، لا سؤال في شأن قيادي أبداً، ولا إرادة إلا تلك التي يرسمها مـــن خـــول له رسمها. الذي يسأل يرتد، والذي يرتد، قد يغسل بلا رجعة، و لم أكن مستعداً لغسيل جديد.

كـــان القائد يقرأني بلا شك، وأخاله لم يغفل سطراً واحداً، من تلـــك الهواجس التي كتبتها في ذهني، و لم استغرب أبداً كما استغربت من قبل، أن يصبح حامل سفاهات سوق أبـــي جهل، وثقافته الفقيرة علـــى ظهره، قائداً كبيراً في نص (أباخيت) الرهيب.. كان فطناً تحت جمر العينين، وثعلباً خلف صوت قبيلة (الفولاني) المجلجل.

- ستقيم لك هنا في المعسكر، عرساً مجيداً يا سعد، ونمنحك وقتاً تقضيه مع امرأتك كلما سنحت فرصة.. هذا يرضيك يا سعد.

كـــان استثناء صاخباً بلا شك، ذلك الذي أمنحه الآن، استثناء ينتقـــيني من وسط خمسمائة فرد مسعور، كلهم يملكون الجسد ولغته،

ويـــودون قطعاً أن يحيلوا سرقات الليل الملثمة، إلى منح رسمية، تمنح لهم في وسط النهار. تماماً كالماء والخبز.

لن أجادل في الأمر، ولن أغسل بلا عودة.

بغتة سمعنا صوت حوافر لجواد، حفرت حتى مدخل الخيمة، وكان التقلاوي ديدام، بأناقته الصادمة كلها، واقفاً بالباب، ويخبر عن رسول قدم لتوه من قبل الإمام المتّقي. رددنا أنا والقائد.. هدرنا.. أعزه الله.. أكرمه الله، وهب القائد من خدره ومسبحته، ليشاركني وقفتي المصلوبة الكسيحة، ويأذن بدخول الرسول.

لم يكـــن قريبـــــي مـــسمى – عكـــرمة الضراب، كما توقعت، واســـتعديت لمقاومة نظراته ومحاولة قهرها، ورسول المتّقي بلا شك، أرفع مكانـــة مـــن تابع لقائد من قادة الحرب، قد يستبدل في أي لحظة وتلقى توابعه في المزبلة، لكنه كان رجلاً من حي (كف عفريت) اسمه (النصيب)، كـــان فيما مضى جرسوناً عادياً في مقهى (خزي العين)، وواحداً من تلك السواعد التي لمناها لافتداء المدينة، حين قررنا افتداءها. كنت أعرفه لأنني أعرف (خزي العين) جيداً، وأعرفه، لأن أخته (ذهبية)، كانت في يوم من الأيـــام، أجمـــل فتاة خرقاء في مدينة السور على الإطلاق، قبل أن تموت برفسة حمار غاضب، أرادت أن تنتف شعرة من ذيله.

لم يجلـــس (النـــصيب) على أي برش من تلك البروش السعفية، الممـــددة علـــى أرض الخيمة، لم يطلب غداء مشوياً، ولا حساء ممتلئاً بالملح والحبهان، كما فعل قريبـــي عكرمة الضراب، ولا حتى بدت في بطـــنه الـــضامر علامات غازات تعلو وتنخفض بفعل جوع. خاطب القائد مباشرة، بعد التحية:

– يقـــرئكم سيدنا المتّقي السلام، ويخبركم عن نيته زيارتكم غداً إن شاء الله للاطمئنان على استعداداتكم.

- هل جد جديد؟

يسأله القائد، وأخال حلقه يابساً، لأن السؤال لم يكن رطباً، كان جافاً إلى أقصى حد.

- لدينا أخبار عن جنود يأتون من مصر عبر بواخر النيل، ودروب الصحراء، لدعم الحكومة في العاصمة.. لن يصلوا إلينا قبل ستة أشهر على الأقل، لكن سيدنا المتّقي يريد أن تبقى الروح المعنوية روح حرب، كما لو أنهم سيصلون غداً، وقد يأمر بتحرك الكتائب لملاقاهم بعيداً عن السور، ودحرهم في الصحراء.

حيا الرسول قائد الكتيبة مرة أخرى، ومضى، وينط إلى ذهني المرهق بكثرة الوساوس، قول (ودعة المصّاص).. دعنا نستمتع.. دعنا يا صانع الثريد. ترى ماذا سيقول ودعة المصّاص، حين يشرك برفقة زملائه المسعورين، في احتفال عرس سيقام علانية وتحت السمع والبصر، لذلك الذي لم يكن أبداً سارقاً لليل، ولا ملثماً، يضيع خلسة في ما تبقى من وسخ السور.

تلك الليلة لم أنم أبداً، ولا نام القائد عبّادي طلسم، ولا أظن نام أحد آخر من المجندين الذين لمهم (كارور) جبّار القرنين في الساحة الكبيرة، وفتتهم بعد أن أعلموا بالزيارة الميمونة لقائد الجهاد. لم أسمع شخيرا أو كابوساً بطعم الدم والنعناع، ينبعث من الخيمة الملاصقة، وكانت نحنحات متقطعة، أو حبال صمت.

التممت في خيمتي، وظللت أبكي بكاء محاسن الجرداء يوم أن عادت إلى السور بلا عيال، وبكاء الملكة نديمة، حين لبست خاتم الذهب غالي الثمن، لتتزوج من القلب المحطم، وصبغة الشعر، وجاهدت قدر الإمكان ألا يطير بكائي إلى يقظة القائد في الخيمة المجاورة. وفي اللحظات القليلة التي يجف فيها دمعي، ويستجدى المنابع

لتنحلب من جديد، كنت أرسم صورة المتّقي في ذهني، صورة الخيال الذي قد يصبح حقيقة غداً، وقد يظل خيالاً إلى الأبد. أرسمه شيخاً في السبعين، يقود الجهاد بلا عمر، ولكن بقيود صوت فقط.. أرسمه عريضاً وناشفاً وفظ التقاطيع، كعبّادي طلسم، وجبريل لالو، قائد سرية جبّارين، وناحلاً مقوس الظهر، كودعة المصّاص، وأدقق في تلك الصورة التي رسمها الرسام الراحل، (لسام كوستاوي) لمقهى خزي العين في زمن الحرب، وعثرت عليها بين أوراقه، و لم تنقشع عن ذهني أبداً، لعله كان هناك، في واحدة من زوايا الرسم، ولكن لم أنتبه. لعله غارس السكين في تلك القلوب الدامية، أو لعله الشجرة التي كانت تراقب الموت، وأغصانها من حديد.

طفت بالذكرى، على مطبخ مريا الهائمة، أكلت من رقاق الذرة، ولحم ظبي مبهر بجدارة، طفت على إصبع الخاتم الذي سقط في حمى الكلل، وتوقفت عند وجه الصبي ذي الشعر المجعد، والهوس العسكري.. وسمعت صوت مريا يناديني، أن أحذر البرد، والسقوط عن ظهر الفرس.

كان صوت القائد يناديني بلا شك.. يا سعد.. يا مبروك، نهضت ملسوعاً وأسرعت.. كان يقظاً بشدة، وأراد من يشاركه بعض الهواجس، حتى لو كان تابعاً ما زال دمع الذكرى، عالقا بعينيه.

-5-

الصباح رباح، وصباح معسكر كتيبة صقور، صباح بطعم جديد.

منح المجندون وجبات صباحية من طحين الذرة، وأقراص الشعير المدهونة بالسمن البلدي، وشراب (الحميض) الغني بالفتمينات والأملاح، لتنشيط دمائهم. منحوا شارات خضراء عليها رسم صقر، سهر اليمني (جبّار القرنين)، وثلاثة من الجنود، انتقاهم لمساعدته، في تفصيلها طوال الليل، على أضواء فوانيس لا تمنح العين رؤية، ولكن رماد رؤية. منحوا الأصوات في كامل جلجلتها، الهتاف في كامل طبقاته، والثناء على المتَّقي، جمراً يجب أن يظل على اللسان من دون إحساس بأنه جمر. ولأول مرة ظهرت إلى العيان، قصيدة من الشعر المادح، تصف المتَّقي بالزهد والتقوى والورع، وتضعه في مكانه المنشود في الجنة، قيل أنها من نظم اليمني جبّار القرنين، وستلقى في حمى زيارة المتَّقي، وكنت مقتنعاً بإحساسي فقط، بأنها من نظم قريبي مسمى طاؤوس، وأنها المدخل الذي عبر به إلى اسمه الجديد.. عكرمة الضراب، ووظيفته الجديدة، رسول المتَّقي في الأرض.

كانت كتيبة صقور، باستثنائي أنا تابع القائد، والتقلاوي المساعد، والإمام مفتاح الفلاح، واليمني جبّار القرنين، وسرية الطبخ ذات الإنهاك وفتات القبائل، والقائمقام برهاني مشرف الغسيل الوعر، وودعة المصّاص الذي لا يصنف جندياً ولا مهللا ولا مكبراً، مكونة من خمس سرايا، في كل سرية مائة فرد مدربون على مهامهم، سرية حاملي

النبال والأقواس، سرية المحاربين بالسيوف والحراب، سرية الموت التي تقاتل حتى بالحصى والعصي، وبنادق الإفرنج، وسرية (جبّارين)، أقرباء القائد طلسم، حراس بيت الغسيل في زمن الركود، ودالقو الهدير المر، إذا ما جاء وقت دلقه. كان لكل سرية قائد، هؤلاء يضفرهم التقلاوي تحت إمرته، ويتقلص بهم تحت إمرة القائد طلسم. كانت خطة المهرجان قد وضعت بدقة، أن تمر السرايا أمام مشعل الثورة وحامل لوائها، سرية بعد سرية، تستعرض زيها، واكتمالها، واستعدادها للشهادة، وربما يموت أحد أفرادها في حمى المهرجان، إذا دعا الأمر.

مررنا على تلك السرايا التي انتظمت على فحيح الكارور، حين فح بحلق جبّار القرنين، وأبدى القائد الحمّال إعجابه ورضائه التام، وبدا لي في تلك اللحظة، بعيداً تماماً عن لحم حبيبتي السبية، وإنه فصل لمهمة أخرى غير مهمة غزو البيوت الخاضعة في مدينة السور.. هي مهمة الموت. كان يرتدي أكثر ثيابه زهداً، تلك التي مزقتها، ورقعتها بيدي، وأمر عدداً من الجنود بلم بروش السعف - ووسائد الريش الممزقة من خيمته، وتركها مجرد خيمة.. تماماً كخيام عرب (الظلمان) المعروفين برداءة السكنى، ورداءة الترحل، كما قال الرسولان التركيان أرقم وجاويد. كان يرمي إلى ترك انطباع الزهد، عالقا بذهن المتّقي، بلا شك، وربما كان يطمح في منصب أمير أمراء الجهاد، الذي ما يزال شاغراً، لم نسمع عن شخص وضع فيه.

كان ودعة المصّاص، موجوداً في الساحة الكبيرة، منفرداً على مسافة عدة أمتار من إحدى السرايا، يحمل في جيبه عقربا مفرغا من السم، كان قد اصطاده في الليل من أحد الشقوق، وفرغه، ومستعداً لغرسه في لحمه الخاص، ومصه إذا أمر بذلك. وكانت أكثر الفقرات التي حيكت، غرابة، تلك التي حاكها برهاني، مشرف الغسيل الوعر،

حـــين جمـــع عناكـــباً بلا حصر، عبأ سطلاً كبيراً بالقار حتى حلقه، وارتـــدى ثـــياب مرتد متسخ. وقال للقائد الذي بدا مندهشاً من تلك الحياكة..

لا تقلـــق يا سيدي الأمير.. كنت أود أن أغسل نفسي منذ زمن، وجاءت الفرصة.

الـــشمس في اكتمال سطوعها الآن، والتوتر في اكتمال سطوعه أيـــضاً، المـــسك.. ريح الجنة متناثر على كل شبر من أشبار المعسكر، والـــتاريخ الـــذي سينكتب في أي لحظة من لحظات ذلك اليوم، يبدو خاضـــعاً لسيطرة من سيكتبه. لدواته وأقلامه المعبأة حبراً أو المفرغة من الحبر، سنواجه المتَّقي بلا شك، كل الدلائل تؤكد، ممثل نص أباخيت، ونـــص الـــسور والقرى والجبال، وربما نص العاصمة التي ستدك برغم الجنود الذين يتلملمون عبر بواخر النيل، وطرق قوافل الصحراء.. كان فـــضولي الشخـــصي يـــود لقياه، فضول الجند وتوترهم يريد، وودعة المـــصَّاص يبدو لعيني، لا ينقطع عن العبث في جيبه، والتأكد من وجود عقربه الذي قد يدخل التاريخ، حين تفتح بوابة الدخول.

المتَّقي أعزه الله.. أكرمه الله..

الهدير يصرخ، التوتر في الأعماق يصرخ، وحوافر الخيل تصرخ، وحتى الدواب وقطعان الماعز التي ترعى في بقايا الحشيش الخريفي، كان الغبار قد ملأ الجو، غطى على رائحة المسك، غطى على الرؤية..

أثنوا على الإمام المتَّقي..

أعزه الله.. أكرمه الله.

في لحظة لم أعد أستطيع أن أميز بين حلقي وحلوق الآخرين، بين صـــوتي وصـــوت تلك الدابة أو ذلك الفرس.. كان القائد بعيداً عني، الـــتقلاوي بعـــيداً أيضاً، واليمني جبّار القرنين يرفع الكارور إلى حلقه

استعداداً للفحيح وضبط الهرج. اقتحم المعسكر في تلك اللحظة، بستة أحـــصنة، كلها رمادية، على أعناقها غرر بيضاء، وكلها تحمل ملثمين يـــرتدون الأخـــضر المرقّع والعمائم الخضراء، وعلى صدورهم تتراقص مسابح (اللالوب) الصوفية.

الـــتقطت أنفاسي وترنحي، وبدأت أتفحص، أحاول العثور على مجد مميز، أو صلاح غامر، ينط من فوق تلك الأحصنة، ويجلدنا بنوره، كانـــوا كلهم المتّقي.. كلهم المتّقي، ويأتي صراخ (عطايا) بائع الروب والخمـــيرة حين ردده في (خزي العين) قافزاً إلى ذهني.. كلهم المتّقي.. كلهم المتّقي.

كانـــت الأحصنة الآن بملثميها، قد دخلت خيمة القائد طلسم الكبيرة، كأنها قد زودت بخط سير محدد ينتهي هناك. صمت الهدير برهة، وجاء لحن الكارور بطيئاً ومتقطعاً، والأعناق تتمطى في اتجاه الخيمة، العيون تنهش قماشها الذي شققت الشمس بعضه، وتود لو شقته كاملاً. اختفى الأمير عبّادي طلسم في الخيمة لدقائق، ثم عاد ليقف في الوسط، وقفة لم تدل على أرقه وسهره حتى الفجر، أعلن بـــصوت أعرض كثيراً من صوته العريض أصلاً، إن سيدنا وإمامنا المتّقي، في ضيافتنا، ويود أن يستعرض السرايا، ويخاطب الأحباب.. لم يسد أي هرج بالرغم من اقتناعي الشديد، بأن الهرج كان يشتعل في كـــل قلب، والأسئلة تنكتب في كل ذهن.. لماذا لا يظهر المتّقي لأحبابه علناً، ولماذا يستعرضهم من بين الشقوق، ويجلدهم بالصوت من خلف خيمة، ولا يمنحهم نوره الذي يودون أن يمسكوا به، وقد سهروا لهذه اللحظة التي يبدو أنها تخونهم، وأحسها تخونني أكثر من أي فرد آخر.

سرية الموت بقيادة المجاهد حنداق الجدَّر.

وتعـــبر الـــسرية بكامل هندامها، ورائحة الموت التي تنبعث من حلوق أفرادها، وعرقهم، أمام شقوق الخيمة الكبيرة، تستعرض المهارة في فرد العضلات وثنيها، وتقاتل الهواء المشبع برائحة المسك حتى لأكاد أسمعه يتكسر.

سرية جبّارين بقيادة المجاهد جبريل لالو..

وتعبر سرية أقرباء القائد طلسم.. ضاخة للهدير الذي كاد بالفعل أن يذيب الخيمة، ويكشف النور.

سرية راميي القوس، والنبال بقيادة المجاهد دهماني، وتعبر.. وبقية السرايا تعبر، حتى سرية الطبخ الهزيلة تعبر، وقد حمل رايتها العسكري (زمـــزام)، وكـــان شعارها مختلفاً عن شعارات باقي السرايا الخضراء، حيث ارتدت هلاهيلاً فصلت من جلود الماعز وأحذية من ذات الجلود وأشاهد المشلول يحي، زاحفاً في غبارها.

كـــان مشهداً كبيراً ومؤثراً جداً، حين وقف ودعة المصّاص أمام شق كبير في الخيمة، لا بد قد خمن إن عيني المتّقي تتسعان خلفه، أخرج العقـــرب المفرغ من جيبه، غرسه في كوعه الأيسر، والتوى في حنكة، ليمص ويبصق، يمص ويبصق، ملغياً للمستحيل الذي لا جدال فيه، أن يستطيع أي أحد أن يمص أو يلحس كوعه. لم تسنح لجبّار القرنين، أن يلقـــي قـــصيدته، أو قصيدة قريبـــي مسمى المادحة، ولا لبرهاني أن يغتسل بقاره وبراز عناكبه، كما كان يطمح، لأن بيت الغسيل لم يكن في نطـــاق الـــرؤية، ولمحـــته متجهماً، يرتدي هلاهيل المرتد الوسخة، وينـــزوي في ركن بعيد من أركان الساحة.

الكـــارور يفح معلناً بداية خطبة الإمام المتّقي، وتحول الجميع إلى أذن واحدة، تود أن تمتص، وترتبط بذلك الحبل المبارك.. بقصيدة ريماس الحالمة التي سيسمعونها لأول مرة، حية من دون رسائل يتقافز بها الرسل:

بسم الله الرحمن الرحيم

أقــرئكم مني خالص السلام يا أحباب، وأحيي دماءكم الأصيلة وأنـــتم تجــودون بها دفاقة لنصرة الحق، واجتثاث الباطل. وقد أخبرنا وكررنا، إننا لم نقم بثورتنا من أجل دنيا تجرفنا، ولكن للدين، لاجتثات الكفر، وغرس العزة في كل شبر.. من منا لا يريد العزة. من منا لا يود نصرة الحق.. من..

لم يكــن صوتاً كصوتي ولا صوت أبـــي أيام كان يملك صوتاً، ولا صـــوت الأمير عبَّادي طلسم، ولا أي صوت آخر استمعت إليه في حياتي كلها، كان حبلاً غزير الأمتار، شدنا من أعناقنا، ومرغنا في التراب، شدنا مـــن ثيابنا وعرانا، شدنا من رئات التنفس، ولهث بنا، ورأيت المجندين وقد ترنحوا بلا مروءة، والمعسكر الكبير، مجرد علبة من علب الصفيح، يتلاعب بهـــا موج بحر هادر. تحدث عن مغزى الثورة باستفاضة، عن الشهادة التي هـــي أسمى من كل ترف في الأرض، ورسم لكل جسد مشدوه أمامه في تلـــك الـــساحة، نهراً من العسل، يغرف منه، ووسادة من الحرير، يتكئ عليها، وبنت حور مزينة بالصفاء واللآلئ، تنتظره. قال إن الثورة ما زالت ولـــيدة، برغم انتصاراتها الكبيرة، وإنه لا يظهر للعيان لأنه يتبع الرؤيا التي تأتـــيه كل ليلة في المنام، وتخبره أن يقود الثورة في خفاء حتى تنغرس راياتها الخضراء في كامل بلاد الفسق وتطهرها..

لا نضن عليكم بوجهنا طوعاً يا أحباب.. ولكن نتبع الرؤيا.. نتبع الأمر.. حتى يعم الخير.

سلام علينا في الدارين، هذه الفانية.. وتلك التي أرى ملامحها على وجوهكم الطيبة.

انـــتهت رنـــة الصوت، انتهت قصيدة ريماس الأكثر تأثيراً، لكن الحـــبال لم تـــنقطع، ظللنا مضفرين بها، لأكثر من عشر دقائق، نترنح

وتشدنا، ولم نستيقظ إلا بعد أن فح الكارور بالحلق اليماني، وكان فحيحه، مجرد نحنحة هزيلة، إذا ما قيس بالصوت وجبروته. رأيت القائد عبّادي طلسم، يترنح بحبل الصوت، متجهاً إلى داخل الخيمة، ورأيت الأحصنة الرمادية، بغررها البيضاء، وملثميها الخضر تخرج جبّارة، وتحفر في اتجاه البعيد، كان الغبار يكثف ما تبقى من رائحة عطر الجنة، والهدير الذي استيقظ ببطء وبله، يتضفر خلف الأحصنة، يطاردها في الظهر:

أعز الله المتَّقي.. أكرم الله المتَّقي.

كان من بين جنود الكتيبة، وبالتحديد في سرية حاملي القوس والنبال، صبي ذو وجه طفولي مليح، وجسد باسق، اسمه (مقهور)، لم يكن يعرف أحد من أين جاء، ولا دلت ملامحه الطفولية المليحة، عن قبيلة ينتمي إليها، وسط تلك القبائل التي تبعت هوس المتَّقي، وتضفرت بجدائل ثورته. وقد تردد همساً في وسط جنود الكتيبة، إن مقهور حلم مرات عدة، بأنه ابن منسي للإمام المتَّقي، ولد وتربى بعيداً عنه، وقد أخبره الحلم إنه سيجتمع بأبيه في أحد الأيام، وكان من نتيجة ذلك الهمس الذي تمدد، ووصل حتى أسماع القيادة، أن حوكم الصبي، اقتيد بسواعد سرية (جبّارين) الفولانية إلى بيت برهاني، حيث غسل بتوافه الغسيل كلها، لشهر كامل، وخرج نظيفاً ونشطاً في سريته، ينغمس في لعبة الأقواس والنبال، يعذب طيف الحرب كبقية المجندين، ولا يردد إنه حلم بأبوة المتَّقي أو غيره أبداً. وحين عيّنت تابعاً للقائد، وأصبحت أملك ساقين تستطيعان أن تلجا الخيام، وتتنزهان في المعسكر من دون وجل، اقتربت من مقهور. رأيت فيه وجه توما الذي انتحر محطّماً وزاهداً، وخلد شهيداً تزوج بواحدة من بنات الحور، سألته عن ذلك الحلم المخبول، ولم يرتعد، رد في ثبات.. ليس خبلاً

يا مبروك، ولكن المتَّقي أبـــي، وحلمت أيضاً بصوته وهو مثل صوتي.. أنظر.. يمط حلقه ويضخم طبقات صوت المراهقين، ويردد.. من منا لا يحب ريح الجنة.. من منا لا يحب بنات الحور.. من منا لا يود اجتثاث الكفر من جذوره، وأكاد أضحك.. لم أتخيل أبداً قرابة يمكن أن تكون بـــين صـــوته وذلك الحبل الذي صيغ من جدائل الأساطير، كما قال التـــركيان أرقم وجاويد، سألته عن أبيه الذي رباه، قال لم أره أبداً و لم يخـــبرني عنه أحد، عن أمه التي توجعت في ولادته، قال.. اسمها سكينة الهلالـــية كما أخبروني، وماتت أثناء الوجع، عن قبيلته ومن أين جاء.. قال، قبيلة المتَّقي.. قبيلة الرجال الأفذاذ، وجئت منها.

أيقـــنت بهـــوس الصبـــي، وإنه لا شك قد شرب نص أباخيت الـــرهيب، بكـــأس أخرى لم يشرب منها الآخرون، تماماً كما شرب (تـــوما) ملاحة حميلة وبنفسجها، بكأسه الخاص الذي كان يستعيدها عاريـــة ونـــزقة، لم تذكر سيرة المتَّقي قبيلة محددة، ولا زوجة أو ولداً معـــروفاً أو منـــسياً، حتى ذلك الوقت، وما تعدت تلك السيرة حدود نقائه وزهده، وقيادته للجهاد، وكانت أبجديات طاعته معروفة للجميع، وبعـــيدة تماماً، عن حياة قد يكون عاشها بالفعل، قبل أن ينطلق شرساً في نـــص أباخـــيت. اقتنعت بهوس الصبـــي أكثر، منحته ثقتي كاملة، وحذرتـــه من لعق الأحلام غير المجدية، وكان يتأملني بعينين ضامرتين، ويـــردد.. هو أبـــي.. أبـــي بلا شك. وبالرغم من أن معسكرنا كان يـــضم ســـحنات وقبائلاً شتى، إلا أنني لم أعثر أبداً على أحد جاء من أباخـــيت ليضيء لنا ما خفي من سيرة المتَّقي، وأمر مقهور، أو لعلهم كانوا بيننا، لكن لا أحد يود أن يفصح.

في ســـاعة المهـــرجان، وأثناء استعراض السرايا، شاهدت مقهور وركـــزت في مشاهدته. كان عادياً جداً، عبر بقوسه وسهامه كما عبر

الآخـــرون، توقف برهة عند شق الخيمة، ولمحته يهتز برشاقة ويصوب ســـهمه إلى طائر تعس مر في تلك اللحظة بأجواء المعسكر، ويسقطه، لكـــنه تحرك أخيراً، وأكمل العبور.. كنت خائفاً من هفوة، خائفاً من صياح خارج النص، يدخله حلق الصبـــي قسراً في النص، ويحدث ما لا يستطيع أحد تخمينه، لكن الآمر انتهي، أو تأجل حتى خرجت الخيل مـــن خيمة القائد، وركضت باتجاه البعيد. كنت أشاهد وسط دهشتي وهلعي، نظرات الصبـــي مقهور تتبع غبار الخيل، قدميه تتبعان، وصوته صـــارخا بأقـــصى حد للصراخ، لا يردد.. أعز الله المتَّقي.. أكرم الله المتَّقي.. ولكن.. أبـــي.. أبـــي.

في ذلـــك الـــيوم، عقـــدت جلسة طارئة للنظر في أمر الصبـــي مقهـــور، ضمت فداحة القائد طلسم، وغلظة التقلاوي ديدام، ورقة لا تـــشبه حلق الكارور، عند اليمني جبّار الرنين، وحضرتها كتابع يلازم قائـــده في أي لحظـــة من لحظات اليقظة. تصارعت الآراء لأكثر من ســـاعة، تقلـــب الأمر على عدة وجوه، واستسلمت في النهاية لصوت القائـــد الكبير.. ردد ومسبحة الصوفيين، تتراقص بين أصابعه، ونظراته العريضة مثبتة علي:

– دعـــوه لـــسعد المـــبروك.. سيجعله ينسى.. أليس كذلك يا سعد؟

قلت: نعم يا سيدي..

وكـــنت ســـعيداً، برغم تلك المهمة التي لا أعرف كيف أنجزها، وهوس الصبـــي لا يشبه الهوس، كان اتهاماً سافراً لنطفة رجل رمز، لا يـــود أحد أن يعرف أكثر من أنه رمز لا يخضع لتوافه الآخرين. لم يبد الـــتقلاوي ســـعيداً بتلك النتيجة، لكنه امتثل، ولا عبرت ملامح جبّار القرنين اليمانية الوعرة، عن أي انفعال خاص.

أمرني القائد عبَّادي طلسم، ألا أرافقه بقية ذلك اليوم، وأن أترك خيمة القيادة جرداء، حتى الغد، لا تعاد إليها البروش السعفية، أو وسائد الريش، أو حتى أباريق الماء والثياب المرقَّعة. لم أفهم غرضه من ذلك، لكنه بدا سعيداً، وسمعته لأول مرة ينشد، وكان يردد نشيد (السنونوة) الذي يصف التقوى، كفتاة مليحة، بضفائر من ليل، وعينين من عسجد، ولا يردد إلا في لحظات النشوة الكاملة.

-6-

- اليوم سترافقني إلى داخل السور يا سعد.

ألقى بها القائد في وجهي، وكأنه يلقي بلحافين متناقضين في نفس اللحظة، أحدهما معطر بالطيب، والآخر جمر يشتعل.

كـــان ذهابـــي إلى السور بعد تلك الغيبة الطويلة في لجة البؤس وتخوم الصحراء، هو اللحاف المعطر بالطيب، ورؤيتها بائسة ومهدمة، وغاصة بالذكريات القديمة، ذكريات الحياة، هو الجمر الذي يشتعل بلا رحمـــة ويأكـــل الأحـــشاء. كيف يا ترى حال السور، كيف حالها ومعيـــشتها وأحـــياءها، أو رمـــاد أحيائها؟، كيف سوقها، ومقاهيها وأنديـــتها، و(خزي عينها) الفريد؟، من مات، ومن لم يمت؟، وفي أي بـــيت من بيوتها المستعرة بالمكابدات، تركد حميلة التي ما زالت تعذب مخـــيلتي، وتعـــذب نوم القائد، تمده بالكوابيس. قطعاً ستكون متغيرة الطعم.. أو بلا طعم، وقطعاً تسكعي فيها، إن تسكعت، كتابع مسكين علـــى ظهـــر حمـــار منهك، لن يشبه أبداً تسكعي كمسئول عن ثروة الحكـــومة، عن وجوه جمعها وإنفاقها، وعلى ظهر فرس صديق، مفتقد بـــشدة.. هو فرسي العبَّار. المهمة قطعاً لا علاقة لها بالثورة، أو الجهاد، أو لقاء المتَّقي، ولم ترد أي أخبار جديدة، عن الحرب أو جند الحكومة الـــذين يـــتلملمون ويستعدون للقتال، وما حضر في تلك الأيام سوى رسول واحد فقط، وكان رسولاً هزيلاً في أمر هزيل، يحمل رسالة ثناء وشـــكر للإعرابـــي ودعة المصَّاص، كانت معطرة برائحة المسك،

وممهـــورة بختـــم المتَّقي، وارتعد الإعرابـــي الذي من آل بطاح بشدة، حين سلمتها إليه، بناء على أوامر من القائد. كان ودعة قد اقترب من النار بلا شك، حين تسكع أمام شق الخيمة في ذلك اليوم، ومص كوع المـــستحيل الذي لا يمص، والآن يخاف من سرقة الليل والضياع به في أخطـــاء المديـــنة، وألا يستطيع زيارة (حنّو) التي كانت إحدى قوارير (ولهان) المحطمة، نفدت من الموت والتخمة الكاذبة، ومضاعفات مرض (الدامـــوس)، وســـيوف الجهـــاديين، والتم إليها المصَّاص في حمى ليله المـــسروق، حين كان يسرقه برفقة (توما)، والآن يسرقه وحده. كان يبكي في صمت، وأستغرب بشدة من رجل غارق في الحمى الجهادية، معطـــر بريح الجنة، وما زال يعبث بتوافه الجسد، ولدى قارورة محطمة وبائسة.

هي مهمة البنفسج إذن، تلك التي سننجزها أنا والقائد معاً، وقد سمعـــت بـــالأمس كابوساً بطعم النعناع، يصارع نعاس القائد، وحميلة النعناعة كانت بداخله بلا حصى ولا رمل، ولا خوف من القطط، ولا مـــشي أثـــناء النوم، فقد ضخها الكابوس هذه المرة سلسة إلى النعاس. مهمـــة لاســـتمالة المجاهدة ضو، حورية الأرض التي عجزت عن فك شفرتها، وما استطعت أن أكون لها وجهاً ولا جسداً ولا مشاعراً برغم اجـــتهادي الطـــويل. وأقنعت نفسي في لحظة غباء سخيف، إنها حميلة جمـــاري، والقائد يكافئني بها.. ولا أعرف لماذا يكافئني بها. عشت في مـــتعة ذلك الاقتناع لفترة، والخاتم القريب من الأحشاء، يغشني، يردد هـــي.. هي وأزجره في النهاية.. أعود إلى لحظات التبعثر.. لن تكون حميلة حورية الأرض التي ستسعدني أبداً.

في خـــلال تلك المدة التي قضيتها تابعاً للقائد، وبعد زيارة المتَّقي لمعـــسكرنا، وربطنا بحبال صوته الأسطورة، وفكه لشفرة التخفي التي

كانـــت تحيرنا، ذهب عبَّادي طلسم إلى المدينة مرتين، ولم يطلب مني مرافقته، عاد في الأولى مغتماً ويابس التقاطيع، وفرحت من غمه ويباس تقاطـــيعه، مـــن صـــمود حميلة الذي أتخيله، إن كان قد ذهب لعراك صـــمودها، عـــاد في الثانـــية منشرحاً، يردد نشيد (النونوة) المجلجل، وقلقـــت.. خفـــت أن يكون الصمود قد اندحر، لكن لا أستطيع أن أمسك بشيء.

كان تكليفي بأمر الصبـــي المهووس، ابن المتَّقي المزعوم.. مقهور، عبئاً آخر، جاهدت ألا أجعله عبئاً. كنت أستأذن يقظة القائد في أحيان كـــثيرة وأباغـــته في واحدة من خيام راميي القوس والنبال حيث يقيم، خاصـــة حين يأتي التقلاوي، ويتمدد في البروش السعفية، عارضاً آراء فجة، ونظريات في الحرب الجهادية، أكثر بؤساً من نظريات (فاسكو) التي وردت في كتابه السخيف وأسقطتنا، تعيده إلى ذهني، ذلك الفرَّاش القديم الذي كان يعد شاي القيلولة، ويغازل فقيرات المدينة بألفاظ أبناء الـــريف الـــتي كلها فسوق ولعنة، أو حين يبدأ جبّار القرنين، في درس (عظمـــة الخيل)، الذي كان درساً مملاً، يردده اليمني في خيلاء، واصفاً أنـــواعاً من الخيول بلا حصر، واصفاً الحوافر والصهيل والغرر البيضاء ودلالاتهـــا، والرقبة الطويلة ودلالاتها، والقصيرة ودلالاتها، وحتى أكل العـــشب وطـــريقة أكلـــه، والمرض الذي قد يصيب ويفتك. أباغت الصبـــي مقهور، أجره إلى أحد أركان الخيمة التي تؤوي الكثيرين من زمـــلاء ســـريته، وأحاوره بلا عواطف، ودائماً ما أخرج منهزماً أمام الهـــوس.. هـــو ابـــن المتَّقي.. يصر بشدة.. سيحتضن أباه في يوم من الأيام.. يصر أكثر. وقد أوشكت أن أقتنع بأنه ابن المتَّقي فعلاً، وأنجبه مـــن نطفـــة شـــقية أراقها، قبل أن ينكتب زعيماً في نص (أباخيت) الـــرهيب. لم يكن القائد يسألني عن الصبـــي أبداً، ولا كان يلقي إليه

بـأي نظرة حتى ولو عجلى، في حمى تفقده لصلابة الجند شبه اليومية، ويبدو أنه تركه هكذا معضلة، لكن ليست معضلة جسيمة.

- سترافقني إلى السور يا سعد.

- أرافقك يا سيدي.

وأجهز حالي بسرعة، ولم يكن في الحقيقة ثمة حال بحاجة إلى تجهيز، هو الثوب الأبيض بشارة التابع الخضراء التي ما زالت تثير الحسد بين المجندين، وأرتديه حتى في النوم والأحلام. هو صندل من جلد الماعز، ممزق في الأطراف، هو حمار منهك وجربان مستخرج من إحدى القرى المحروقة، خصصه جبّار القرنين لي حين خصص ملابسي، وركوبي وأدوات حربي، وهي في النهاية مشاعر بلا قرار، فصلت لي في سوق (حمزة وابنه)، يوم تبعثرت، والتممت مبعثراً، فقط خاتم الذهب ذو الفواريص الثلاث، المربوط بخيط الدوبارة قريباً من الأحشاء، ما يميزني، ولكن تمييزاً خفياً، قد يعيدني إلى بيت الغسيل، لو خرج إلى العيان.

جهزت حال القائد، وكان تجهيزاً كبيراً، أكثر ثيابه رقعاً وزهداً، مسبحته الصوفية الضخمة اللامعة، وجواده الرمادي ذو الغرة البيضاء والرقبة الطويلة، الذي دائماً ما ترد مواصفاته كاملة في درس جبّار القرنين المكرر، عن عظمة الخيل، باعتباره جواداً عربياً أصيلاً، ولم يستخدمه في المرتين السابقتين، حين جهزت ذهابه ولم أرافقه، واكتشفت وأنا أراه لأول مرة في ساحة الرعي، وأسرجه، إنه (مصبّح)، الجواد الحكومي الذي كان يستخدمه التركي يوسف دامير، في طوافه معي أيام إرهاصات الحرب، وفي نزوة (المزينة)، خليلة الزنج، وسقط عن ظهره، حين انغرس في قلبه السيف. تعرفت على الجواد، وتعرف عليَ، وبكينا في صمت.. أنا أخون دمي الجديد، وأبكي بالدم النصراني

القــديم، والجواد يخون إسراجه لحمل الجهادي، ويحن لسيده الذي رحل.

كان الصبـــي مقهور، قد تسلل خفية من داخل المعسكر، غافل حـــارس ساحة الرعي، وتبعني إلى حيث أحتضن الجواد مصبح وأبكي، ولم ألحظ وجوده، إلا بعد أن أصبح الدمع حقيقة في عيني، وعيني فرس التركي، كان يتأمل الأحصنة بجنون، يتأملها بشبق ويشهق، ويسألني إن كـــنا ذاهـــبين للقاء أبيه، وهل سنأخذه معنا؟. غطيت شهقاته بيدي، وجـــررته إلى خيمته بمشقة، كان ذلك الولد عبئاً حقيقياً، وخفت ألا يعتـــبر معـــضلة عادية إذا ما زاد هوسه عن الحد، وقد يغسل في بيت بـــرهاني مـــرة أخـــرى بلا رجعة، وقد كان التقلاوي موجوداً بسيفه وصـــقره في ســـاحة الخـــيام، ولا بد قد رآني أجرجر الهوس وأحاول تغطيته.

- 7 -

كنا في الطرف الجنوبـــي من مدينة السور، على مسافة ساعة من مـــدخل (بـــوادر)، أحد مداخلها التي أنشأناها مصائد مشتعلة بالنار والحمـــاس، وســـواعد (كف عفريت) وغيره من أحياء المغص، لحصد المتَّقـــي وأتـــباعه، وكانت في الواقع، مجرد خيران ضحلة، عبرها الهدير كمـــا تعبر الخيران الضحلة. على مسافة ساعة من العمار الذي كان، والخـــراب الـــذي أردت رؤيـــته ولم أرد. كان الأمير عبَّادي طلسم، منتـــصباً على ظهر (مصبّح)، فرس التركي الأصيل الذي رافقه في الجد والهـــزل حـــتى سقط، جسده يملأ الظهر بجدارة، وساقاه تتدليان حتى لـــتكادان أن تعانقـــا الأرض، وأتجرجر وراءه على ظهر الحمار المنهك الهـــزيل، تمامـــاً كما تجرجر (ولهان الخمري) خلفي، حين كان جائعاً، وكـــنت شبعاناً، ضائعاً، وأنا ما أزال ممتلئاً بالسلطة والدنانير ومقدرة القـــوي الذي يجر الضعف. لم أكن أملك إحساس جري لفضيحة أو عار، في ذلك اليوم الذي جررت فيه ولهان، لكنني لست موقناً إن كان الأمـــير، يملك إحساسي نفسه، أم يجرني كما يجر العار وتجر الفضيحة. أتجرجـــر، ولا حوار أبداً، لا حوار حتى حين كان يبطئ أحياناً، وألحق بـــه، وأصـــبح في محـــاذاة الحـــوار. أراه يعض على اللجام، ومسبحة الـــصوفيين. ويعـــض على خامات الحديث تحت لسانه، لا يود إفلاتها أبداً. كنت في تلك الساعة أخترع حواري الخاص، الحوار الذي يجري بين القلب وشظايا القلب، أتخيلني لحظة أمام وجه حميلة، لا أذوب فيه

كمـــا كـــنت أفعل في السابق، ولكن أصفعه بقوة، وأشده من ملامحه كلـــها، لأدخله في جلافة القائد وشهوته. أتخيلني مقيداً بالحبال في بيت حـــورية الأرض ضـــو، وتدخلني وتخرج مني وسط الريالة والصياح، والـــدم.. أتخـــيلني أفر، وتركض ورائي السيوف والحراب، ويصرعني الهدير. أرفع وجهي إلى وجه القائد حين أحاذيه، ولا أعثر على مفردة واحدة في كيانه الصامت.

دخلنا المدينة بالفعل، عبرنا الخندق المدفون بالرمل والدم وجذوع الأشـــجار، وذكريات الهبة الكبيرة، عبرنا بالضبط حيث سقط الحاكم دامـــير، وسقط قائد الجيش عرديب، وطاشت لطخة من الدم، حطت على صدر الطباخ (زمزام)، لا تبهت أبداً.. حيث رفع التقلاوي حربة المـــوت في وجهي، وحيث لكزني (العبَّار) فرسي، ولكزته، وفررنا من الحمـــى إلى الحمـــى. ومـــن المـــوت للموت. كان عشرات الملثَّمين، متمركزين هناك، سيوفهم ودروعهم مرصوصة على الأرض، ويطهون ظبـــياً بكامل جلده، وقرونه واتساخ شدقيه. وقفوا بانضباط، حين عبر القائـــد عـــبَّادي طلـــسم، وعادوا إلى طهوهم البربري، حين عبرت. واستغربت.. كيف ينسرق المجندون إلى داخل المدينة، والمداخل محروسة بهذا النهج غير المتسامح.

ســـرنا في المدينة، فرساً وحماراً هزيلاً، قائداً وتابع قائد، وأحسها أرضـــاً أخـــرى، بلاداً لم أبصر النور فيها، لم يعمدني المصري (طوني العفـــريت) فيها، ولا كانت أرض ثروة، قضيت عمري ألمها وأنفقها، ولا أرض حب، أحببت فيها دارسة علم الجمال، حميلة جماري وكنت على وشك أن أشاركها الأنفاس.

كانت الدروب متسخة بشدة، في كل درب رائحة حنظل أو دم، وفي كـــل حفرة من الحفر، صيحة فزعة، أدقق وأتوتر، ألم ما تبقى من

سمات الحضر، أغطي بها العورات، و لم تكن ثمة سمات كثيرة، وتظل العورات مكشوفة.

كنا في حي (ونسة) القديم بلا شك، و لم يكن هو الحي نفسه، كان ممتلئاً بالمحاربين ذوي اللثام والثياب البيضاء، وشارات الجهاد خضراء اللون، يدكون خرائب قديمة، ويشيدون خرائب جديدة على أنقاضها، يرشون الماء في الأزقة والحفر، ولا يستطيعون غسل الدرن عن أرض أصيبت به منذ قرون. هنا بالضبط كان بيت ولهان الخمري، وكانت تجارته في الجلد والعظم والخرائب، وكان نواح البائسات.. (لا تلم يا لائم)، هنا كانت مفيدة الغجرية، تبيع فتافيت آهات للغرباء الذين لم يعرفوها، إلا حين أصبحت عاهة، تبيع فتافيت الآهات.. هنا كان يستوطن مرض (الداموس)، ومرض (حصار الأحشاء)، ومرض (سيبا) الذي يشوه الأجنة، ويستوطن جزء كبير من حصاد الثروة التي كانت تسند المدينة في يوم من الأيام، وفي تلك البقعة التي أراها تردم الآن بالحصى والرمل، ولد طفل صيني، لا يعرف أحد من أبوه، و لم يدخل السور منذ إنشائها كما أعرف، صيني قط، ولا استطاع أحد تفسير تلك الملامح التي فسرها سواح أوروبيون، كانوا موجودين بالصدفة وشهدوا تلك الواقعة. أذكر في تلك الأيام، إن الطفل عرض في وسط السوق الكبير، وثار حوله الجدل، وشك علماء الدين في كونه المسيخ الدجال الذي يظهر عند نهاية الدنيا، ووزعوا الاضطراب في خطب المساجد. وفي النهاية سموه الغريب، ونسبوه إلى قبيلة (الدرواب)، التي لم يكن يضيرها، أن تضم صينياً وسط ملامحها البعيدة تماماً عن ملامحه.

الحوار ما يزال بلا حوار، والقائد لا يحيي أحداً، ولا يرد على تحية من أحد، ولا حتى على أولئك الملثّمين الذي كانوا يقفون باحترام حين

يمــر، ويسترخون إلى درجة التثاؤب، حين أمر خلفه، وحين اعترضت فرسه امرأة عجوز بدم وجسد (فولاني) واضحين، وصرخت يا عبَّادي، يا ولد (تركانة بنت أعوج)، أنا جائعة، ومريضة وعيالي بلا ملابس، لم يفعــل أكثــر من لكز الفرس، وتوجيهها بعيداً عن صراخ المرأة. وما التفت أبداً، والصراخ يرجمه ويرجمني من الخلف.

حــين خرجنا من حي (ونسة)، وسرنا في درب يقود إلى حيث مجلــس المدينة، خفق قلبــي بشدة، الآن قد تعود ذكريات قديمة، وقد تصرع.. قد أرى خيال تحرري القديم، وعزي القديم، ووظيفتي القديمة، وأمــوت أرعــناً على ظهر حمار بلا ظهر. كان مجلس المدينة موجوداً بالفعــل، ولكن حوائطاً فقط، حوائطاً مجيرة بالرماد، وقد كتب عليها، بتوقيع جماعة الذكرى والتاريخ.. كلمة واحدة، هي الضريح.. وتحتها رســم، لم يكن رسماً حقيقياً، ولكن خربشات بالدم.. إذن فما زال في المديــنة بقــية من طعمها القديم، وما زالت جماعة الذكرى والتاريخ تعمــل، حتى لو كان عملاً مختصراً في كلمة واحدة ولو كان رسماً بلا رسم. كنت أتساءل عن مكان المتَّقي، عن بيته الأنيق أو جحره المظلم الــذي يلتم فيه، وسط ذلك الخراب، عن هويته، بعد أن جلدنا صوتاً، ومــضى، وهل رأى عبَّادي طلسم، وبقية الأمراء وقادة الجهاد، وجه ذلك الذي يحركهم؟.. فكرت في مائة فكرة، ولم تصلح فكرة واحدة، لأحبها.. لأتعلق بها.

فجأة خطر لي أن أسأل القائد.. وسألته بالفعل:

- إلى أين نحن ذاهبان سيدي الأمير؟

لم يــرد على سؤالي، بدأت عيناه تتلونان بجمرهما القديم، ملامحه تــضج بجلافة أهله الفولانيين، والتوت مسبحة الصوفيين بين أصابعه، لكز الحصان ومضى، ولكزت الحمار المنهك، ومضيت خلفه.

كـــدت أسقط عن حماري فجأة، حين شاهدت شخصاً أعرفه، وبالـــرغم من يقيني بأنه أبصرني، وامتلأ بملامحي وعاري، وشارة التابع الـــتي تتوهّج على صدري، إلا أنني انتزعت عمامتي عن الرأس بسرعة، لففتها حول وجهي وتواريت مورواة لم تكن أكثر من إحساس بالمواراة، لمـــاذا يصادفني قريبـــي مسمى طاؤوس؟، لماذا عكرمة الضراب الذي كـــان فـــرعاً يابساً في عائلة كلها خضراء، وتيبس العائلة، بل تموت، ويخـــضر هـــو، رســـولاً للمتقي، ومتسكعاً علنياً في المدينة التي تعج بالفوضى والموت وفراق الأحبة، وربما في حلوق المتعة المغتصبة أيضاً، لا يدلـــق الشعر الرخيص، ولكن حبر شهوته. ترجل عن فرسه الأسود، حـــين حـــاذى القائد، أدى تحية عسكرية لا تشبه تحايا العسكريين في شـــيء، ثم الـــتفت إليّ، ونط من حلقه سؤال أربكني، لكنَّه لم يربك القائد:

- هل ستغسلونه في النبع الكبير يا سيدي؟

لم يجـــبه القائـــد أيضاً، عبر على حطام سؤاله، وتحيته العسكرية التالفة، وجعلت أفكر في النبع الكبير، وأولئك الذين يغسلون فيه ولا بد يجيئون بهم هكذا من أطراف المدينة، واستنتجت إنه بيت آخر للغسيل، لا بـــد أكبر من بيت برهاني، ويحوي مصائباً أكبر من مصائبه التي بلا حـــصر، كان مسمى في تلك اللحظة صغيراً في نظري، إن كنت أملك النظر الذي يصغّر أو يكبّر أحداً، لم يكن غصناً أخضر، ولا يابساً، بل لم يكـــن غـــصناً على الإطلاق.. انتزعت لثامي عن وجهي في توتر، أعـــدت العمامة إلى رأسي، وأعطيته وجهي العاري كاملاً ليمتلئ به، وخلته يبتسم، لأن وجهه امتلأ بغتة، وظهرت أسنانه سوداء من أثر تبغ الدردار الخشن الذي كان يمصه في خزي العين، بصحبة الريفيين الذين يشترون قصائده الرخيصة.

لم تكـــن ثمـــة حيلة، أي حيلة، لأرى ما تبقى من حي (كاهير)، حيث كنت أقيم، وتقيم حميلة، وتقيم بساتين الورد والظل، ويقيم جزء كـــبير مـــن ترف المدينة، لأن مسارنا التوى بعيداً عنه، ولا حيلة أيضاً لرؤية السوق الكبير، سوق (حمزة وابنه)، وقد أخبرني ودعة المصَّاص في أحـــد الأيـــام، إنه افتتح مرة أخرى، بعد أن بدأت بعض دماء التجارة تـــسري من جديد، ويتولى أمر البيع فيه، مئات الجهاديين الذين عينهم المتَّقـــي لهـــذه المهمة، سماهم سرية التجارة، ويتبعون لخازن بيت المال، وهي وظيفتي القديمة بلا شك، ويحتلها واحد من أسرة (جبرتي) الفقيرة، اسمـــه العـــريف، وكـــان فيما مضى، بائعاً للذهب المغشوش، وأساور السكـــسك والقـــصدير، في سوق أبـــي جهل الشعبـــي، واختفى في موجة الاختفاء التي سبقت الثورة، وشملت طلسم والتقلاوي، وكثيرين غيرهم.

كـــنت مـــتأزماً بـــشدة، أود أن يلتوي الطريق إلى حيث بعض الذكـــريات، لكـــنه لا يلتوي أبداً، ولا أنكر إنني فكرت في الفرار من تبعية القائد، والاختفاء في أي جحر من الجحور التي كنت أزورها فيما مـــضى، باحـــثاً عـــن رماد الثروة، لكن لم يكن ثمة جحر لا يعرف الجهاديـــون كيف يحفر، وتستخلص أحشاؤه. فطنت إلى وجود كتابة أخـــرى، على حائط شبه متهدم، كانت تمجد المتَّقي، وتضع ثورته في مصاف ثورات الغرب ذي الحضارة والرقي، وثورات بحر البلطيق، التي تحـــرر بإشعالها العبيد، ولم يكن ثمة رسم، ولا توقيع تحتها، يضيفها إلى كتابات جماعة الذكرى والتاريخ التي كانت تزعجنا في الماضي، والآن أحـــن إلى حـــبرها. وقـــد تذكـــرت المصري الانطوائي، مدرس علم الانحطـــاط، وإن كان قد مات، أم ما زال هائماً، يراقب درس أباخيت الرهيب، ينعق حول أذنيه، ويدرس صبيان الجوع والهلع.

كـــنا نتعثـــر داخلين إلى حي أرض الكوثر، الحي الذي أنجبه الفقر، وربـــاه، وكبر معه. وما استطاعت معاول الغزو كلها أن تمحوه، لأنه كان موجوداً في الأصل بملامح غير موجودة، كان ممتلئاً بالنساء والأطفال، وثمة عـــدد من الملثَّمين، يوزعون أجولة من الذرة والقمح، شممت فيها رائحة صهري جماري، ورائحة عتة، من أثر تخزينها الذي أمات التاجر الكبير. لم تكن ثمة آثار لمرض (التخمة الكاذبة) بادية للعيان، ولا بد قد خمد قليلاً في فترة الحمى، لكن قطعاً سيعاود نشاطه حين تنضب الموارد المستلبة، وحين يتلفت الجهاديون فجأة، ليكتشفوا أنهم يحكمون مدينة، لا يحاصرها جيش مقاتـــل، ولكـــن تحاصرها العزلة. كان ثمة مناد يصيح من على ظهر حمار أســـود اللـــون.. أثنوا على الإمام المتَّقي، أثنوا يا أحباب. وتطيش أصوات النساء المنغَّمة، مختلطة بتلعثم الصغار.. أعزه الله.. أكرمه الله، تلقى الأجولة عن ظهور الحمير، وأعز الله المتَّقي، واعترض طريقنا صبـــي بملابس ممزقة في الأكمـــام وقـــندول نيئ من الذرة الشامي يعارك تسوس أسنانه، كان يحمـــل رسمـــاً بالفحم على ورقة صفراء متسخة، يمثل رجلاً غزير اللحية، وكـــبير العمامة، على خده الأيمن شامة عميقة، تستولي على نصف الخد، وقد كتب تحته بخط متعثر.. أعز الله المتَّقي.

أخيراً توقف الركب عند باب من الصفيح الصدئ، لا يختلف عن أي بـــاب آخـــر من أبواب (أرض الكوثر)، أعلاه ثبتت عدة ريشات منتزعة من ذيل ديك، وتحتها كتب.. لا راد لقضاء الله، ولم أفهم معنى ذلـــك الريش، ولا فحوى تلك العبارة الإيمانية، أن تكتب على صفيح باب. ترجل القائد عن فرسه، وترجلت عن حماري أو ترجل عني، لأنه كان قد لهث وسقط من عناء الرحلة الطويلة. هنا يرقد مستقبل غامض بـــلا شك، سأمتطيه طائعاً أو مختاراً، هل هي عروسي، حورية الأرض ضو، من تقطن في هذه الفاقة، يا ترى، أم حميلة النعناعة، وجيء بـــي

لتأديبها وإدخالها قسراً إلى حياة القائد التي تأبى دخولها؟.. من هي فيهما؟.. لو كانت عروسي التي قررتها الفجيعة، لا صعوبة في الأمر.. سأرضى وأتصنع الهيام، وسعادة الدنيا، وأعض على ضوء أخترعه، أعيش به ما تبقى من أيام. ولو كانت حميلة، لا أعرف ماذا سأفعل.. لمست خاتم الفواريص قرب الأحشاء.. سألته.. دلني يا خاتم، وكان مثلي مرتعشاً، وصامتاً إلى أقصى حد.

تنحنح القائد نحنحة كبيرة، مد يده إلى الباب، نقر عليه بقوة، وصوت القيادة متوتر يخرج من جسده العريض:

- يا ضو القناديل.. يا مجاهدة.. السلام عليكم.

وارتحت من لهاثي قليلاً، ريثما انفتح الباب صارًّا ومزعجاً، ورأيت في فتحته الضئيلة، ما خلتها قطعة من الظلام، انفلتت من جسم ليل داج، كانت امرأة بلا شك، مدثرة بزي أسود لا يظهر منه أدنى بصيص، بدأت أحدق في ظلامها، باحثاً عن ثغرة أدخل منها إلى وجه، إلى يدين، إلى قدمين، إلى شعر، إلى أظافر، إلى أي بهرجة أنثوية، وشدَّني القائد من قميصي بقوة، أدار وجهي إلى اتجاه لا شيء:

- تعال يا سعد.. النظرة الأولى لك.. والثانية عليك.

تبعته على حماري المرهق، ولم تكن النظرة التي لي مكتملة، ولا حتى يرقات نظرة أبداً، وأتخيل النظرة التي عليّ، خنجراً عالقاً بظهري، لا يوجع فقط، لكنه ينتزع اللحم، يلقيه في الطريق.

انتهت مهمة ضو إذن، وعلقت فيها كما تعلق الطريدة في شرك، وبقيت المهمة الكبرى، مهمة حميلة النعناعة التي لا يود الكابوس الليلي إفلاتها، لكن إسراع فرس القائد باتجاه الأطراف، طمأنني، إنها ليست مهمة اليوم، ولكن قد تكون مهمة الغد، لو استطعت أن أنجو من وساوسي حتى الغد.

حين اقتربنا من المعسكر، كان النهار يتلاشى، ومفردات ليل البراري، تتجمع، أصوات الكلاب البعيدة، أصوات البوم والذئاب، الأحلام المرهقة، الأحلام المعطرة بالمسك والكوابيس معاً، والغرابة في كل شيء.. وحين دخلنا، شاهدنا الفوانيس شحيحة الضوء وقد أوقدت في وسط ساحة الخيام، سمعنا الكارور يفح بحلق اليمني جبّار القرنين، وكان إجراءً غريباً لا يحدث إلا حين يحدث أمر خارج عن المألوف، لم تكن هي الحرب بلا شك، لأننا عدنا من المدينة و لم تكن أية رائحة لحرب هناك، ولا رسالة من المتّقي، لأن رسائل المتّقي لا تقرأ في غيبة القائد. وواجهنا التقلاوي بالخبر حتى قبل أن نهبط عن ظهر الطريق.. لقد فر الصبي (مقهور)، ابن المتّقي المزعوم، من المعسكر، سرق ثوباً أخضر، وعمامة خضراء، وإحدى شارات الأمير القائد، وجواداً أصيلاً من جياد الحرب، بعد أن طعن حارس ساحة الرعي بمدية، وتلاشى إلى حيث لا يعرف أحد، وكان يصرخ..

أعز الله أبي.. أكرم الله أبي.

كان الجنود قد التموا في وسط الساحة الكبيرة، وغطوا على الضوء الخافت، والحارس المطعون راقداً بين يدي ودعة المصّاص، يئن في صوت مجروح، والمصّاص يلبخه بلبخات نبات (القرض)، محاولاً إيقاف النزيف. لم يتحدث القائد كثيراً حين وقف في مواجهة الجنود الملتمين، تحدث عن الابتلاء، والصبر على الابتلاء بلا إيضاح شاف، وأمر جبّار القرنين، بضخ كاروره، وتفتيت الهلع.. قال للتقلاوي.. الصباح رباح، ولا أدري ماذا كان يعني، وقال لي.. اتبعني يا سعد، وتبعته ليس لأنه أمري، ولكن لأنها كانت وظيفتي. أن أتبع اليقظة، وأتبع كوابيس النوم أيضاً.

-8-

الأيــام التالية، كانت جديدة على معسكر كتيبة (صقور) الغارق في المــضغ والبلع واللهاث والملل، وتعذيب طيف الحرب، بجعله حرباً رثــة، تتــبدى في عراك الأنفس، وصقل السيوف والحراب، وضرب الدروع بعضها ببعض، وترديد أغنيات الحماس الفجة.

فتح فرار الصبــي مقهور، كوة في حائط الجهاد الذي كان يعتبر حــتى تلك اللحظة، درعاً صلباً، وحارساً صلداً ضد نــزوات الهرب، والــتقاعس، إضــافة إلى صوت الإمام المتَّقي الأسطوري، الذي كانوا يــثقون بأنه الحبل الذي يكتف كل شهوة إلى منابعها. وبالرغم من أن مقهور لم يفر من الجهاد، وخوف الموت المحتمل إن قامت الحرب، وإنما فــر بلوثة عقلية كما قدَّرت وأعتقد إن القائد أيضا قدّر، إلا أن مفردة الفرار في حد ذاتها، كانت مفردة لئيمة ومنبوذة، لم يرد قادة الجهاد أن تظهــر أبداً وسط جنودهم، ومن ثم أضيفت إلى مهام سرية (جبّارين)، أقــرباء القائد طلسم، حراس بيت الغسيل، وناثري الهدير يوم يجب أن ينثر الهدير، أعباءً جديدة لم تكن موجودة في السابق، حيث أمروا بأن يتــناوبوا حراسة المعسكر في الليل والنهار، ومنحوا صلاحية أن يكونوا أعمدة طويلة وعريضة، يعلّق عليها كل فار يقتنص، في وسط الساحة، ويغسل أمام الجنود الذين يجمعهم الكارور خصيصاً لهذا الغرض. وعين (جبريل لالو) قائد السرية بالتحديد، عاموداً خاصاً ليعلق عليه مقهور، الــذي أرســل خلــف فــراره نفر من كتيبة الموت، يفقهون الريف

والـــصحراء، وحتى جحور مدينة السور، فقهاً تاماً. لم تكن ثمة ضرورة لإخبار المتّقي بالأمر، وتعكير لياليه التي تقتنص الرؤى والنهج التقي، أو لهاراتـــه التي تحرّك رايات الكرامة في اتجاه انغراسها، كما وضّح القائد، ولا ضرورة لاعتبار الأمر أكثر من أنه أمر محلي خاص بكتيبة من تلك الكتائب العشر المجاهدة، كما وضّح أيضاً. كنت أشفق على مقهور من جـــنونه، أشفق من احتمال موته في الصحراء جوعاً أو عطشاً، إن فر باتجاه الصحراء، أشفق عليه من ملثمي مدينة السور المدججين بالموت، إن دخلها طاعناً في نطفة المجاهد الرمز، وأشفق عليه أكثر، إن أعيد إلى المعـــسكر، وأنا أرى (جبريل لالو)، الطويل العريض، ذا اللحم النيئ، والجلد الخشن، والرطانة الصامتة، يروح ويجيء في ساحة الخيام، ينغرس وتداً لساعة، ويمضي سطلاً ممتلئاً بالعقاب.

كـــان أكثر ما أبهجني وسط تلك التعاسة، إن زفافي إلى المجاهدة ضـــو، قد تأجل، والنظرة التي كانت لي، قد تجد وقتاً أكثر في البحث والتنقـــيب، لـــتفك شفرة الظلام الذي كان يحيط بحورية الأرض تلك ســـاعة رأيتها، أيضاً تأجل ضخ النعناع ومضاعفاته في كوابيس القائد، وكانـــت كلـــها كوابيساً تقية، لا ترطن سوى برطانة الحرب والمجد، ووضع كل أمر في مكانه الصحيح، وأحياناً تأتي مقاطع كاملة من نشيد (النونوة) المجلجل، مختلطة بلحم الكابوس.

تناسيت أمر مقهور، والدنيا مقلوبة من أجله، واحتجت إلى ودعة المـــصّاص الـــذي كان يلازم الحارس الجريح في خيمة صغيرة أنشئت حديـــثاً، وسميت خيمة الشهداء، باعتبار أن الذي يدخلها شهيداً، حتى لـــو عـــاد إلى الحـــياة، وإلى القتال مرة أخرى. كنت أود إشراكه في مـــصابـــي، وما انقطعت صداقتنا أبداً منذ أن خرجنا أحياء من غسيل برهاني. أحدثه عن ضو التي رأيتها ظلاماً، وزفافي الذي تقرر من ذلك

الظـــلام وربما عن خميلة التي تعذبني وتعذب قائدي، ولا أدري في أي جحر من جحور السور، توجد.

دخلـــت خيمة الشهداء للمرة الأولى، وكانت مميزة، على أرضها بـــساط أحمر من سعف الدوم، وفي جوها رائحة المسك عابقة أكثر من أي شبر آخر داخل الكتيبة، ومختلطة برائحة بخور الصندل. كان ودعة نائمـــاً على جنبه، قميصه الأبيض متسخ بشدة، في طرف سرواله مزع ظاهـــر، ومن تحت رأسه الذي بدأ يبيض، تبرز رسالة الشكر والعرفان التي تلقاها من المتَّقي، في ورقها الأصفر، وكان الجريح راقداً أيضاً لكنه مـــستيقظ، جرحه مغطى بالخرق، وثمة ذباب كثيف يشمَّه، وينكش في الخرق، باحثاً عن طعم. هززت المصَّاص برفق، فاستيقظ فزعاً، وكأني سمعـــت اســـم (حنّو)، فتاة ولهان البائسة التي يهواها، يتكون في لسانه الفـــزع. استوى جالساً واستويت، وقدرت أنه كان يحلم بفتاة لم يعد يستطع رؤيتها، ليس بسبب اقترابه من النار فقط، ولكن بسبب الحراسة الجديدة التي قطعاً تحرس سرقات الليل، كما تحرس نهارات الفرار.

كان ودعة المصَّاص لدهشتي الشديدة، قد سمع بالمجاهدة ضو، كما سمـــع بألغاز كثيرة كانت تروى له في ليالي الضياع، بعضها من محاربين كـــان يعـــرفهم سابقاً، أو صادقهم في تلك الليالي بطريقة أو بأخرى، وكانـــوا يـــسهِّلون ضـــياعه، وبعضها من فتيات البؤس اللائي ما زلن يـــتحدين الـــصرامة، ويعبثن في شبق من يغامر ويريد. حدثني عن رقة تـــوما، وفحولة شبابه لأول مرة، قال.. كان ناضجاً وقوياً وغزير الماء، وكـــن يـــردنه كلهن ويتصارعن من أجله، حدثني عن (خزي العين)، الذي كنت بالمدينة و لم أره حين التوى الطريق بعيداً، قال هو الآن ثكنة مفخخـــة، مدهونة بالأخضر ومظلمة، يحرسه مئات الملثَّمين، ويقال إن المتَّقي يقيم بداخله ويحرك الحياة منه.. حدثني عن حي كاهير، الذي ما

يــزال وامــضاً برغم تصدع الكثير من بنيانه، وذبول بساتينه الخضراء وحــي (لــونا وراجيف) الذي ما يزال وامضاً أيضاً وتقطنه عدد من حورياته القديمات، لكن سبايا تحت حراسة خصيان لا يعرف أحد من أين جاءوا، ولم يكن في السور أو أريافها، ذكر لتلك السلاسة أبداً من قــبل، حــدثني أيضاً عن (حاملي السياط) وهم جماعة مقاومة ظهرت بقــوة بعد سقوط المدينة، ولا يعرف أحد من يحركهم أو لا يحركهم، كانوا يظهرون في أي وقت، على ظهور الدواب أو راكضين، يجلدون الجهاديين بسياطهم، ويفرون. قال إن ضو القناديل، كانت اسماً مطروقاً بــشدة، وسيرة تردد باستمرار في كل وقت.. امرأة عنيدة وقاسية، قيل أنهــا جاءت من قرية (أباخيت)، برفقة المتّقي وأتباعه، وتقود جيشاً من النساء الأرامل والعازبات، دربتهن على طحن الحبوب، وغسل الموتى، ومــداواة الجــروح، والتعامل مع جو الحرب، باعتباره جوّاً عادياً لا يستوجب الفزع. كان يحكي وقلبــي يخفق بشدة، ولو كان صادقاً أو تلــك الحكايــات التي سمعها صادقة، فقد علقت في كارثة، كارثة لا أملك عدة الغوص لأغوص فيها، ولا عدة الفكاك لأنفك.. من يستطيع أن يتخــيل ســعادة على فراش امرأة محاربة، من يستطيع أن يتدفأ في صــقيع أنثــى لا تملك الدفء، وما المنطق الذي يسمي هذه حورية؟. والمديــنة لا بــد تغص بغيرها من بنات الحور الحقيقيات. كلمني عن خطــورة الاقتــراب من ضو، وخطورة الابتعاد لو أرادت أن أقترب، حدثني عن محارب مجنون، قيل أفقدته عقله، ومحارب مات، لأنها أرادت أن يمــوت، وأعطــاني عهداً أن يكتم السر، وكان يرد لي جميلاً، إنني كــنت أعرف غزواته الليلية منذ مات توما، ولم أبح لأحد. وخرجت من عنده عازماً على رفض ضو وزواجها، وخدمة القائد بلا مقابل في شــأن عــشقه لخميلة، وقد قال لي المصَّاص، إنه لم يسمع أبداً بذلك

الاسم يتردد أثناء غزوات الليل، لا من فم رجالي ولا نسائي.. وأيقنت إنـــه الحصار.. الحصار الذي يفرض على سبايا محددات، لا يود الكبار أن تزحف سيرتهن، إلى أكثر من عمى وصمم البيوت التي يعشن فيها. قـــريباً سينجلي أمر مقهور بلا شك.. وسنعود إلى ما بدأنه أنا والقائد طلـــسم، ولـــن يحدد هو النهاية.. لن يحددها، لأنني أنا الذي سأحدد. خبطت على أرض خيمتي الصلدة.. وأنا أردد.. لن يحددها.. تراخيت وأنـــا أسمع نحنحته تئز في الخيمة المجاورة.. سيحددها.. سيحددها بلا شك.

في أحـــد الأيـــام، عاد أفراد سرية الموت الذين أرسلوا وراء فرار مقهور، بقيادة رجل اسمه (ناتف)، كان من أفراد السرية المميزين، ومن الـــبدو الذين عاشوا في البادية والحضر معاً. كانوا قد غربلوا الصحراء رملاً وقحطاً، وواحات استثنائية، ووصلوا حتى حدود عرب (الظلمان) رديء السكنى والترحل، وأماكن تجمعات قطاع الطرق، حيث كانت القوافل تجرد من خيرها وشرها، ويخصى الرجال. غربلوا أحشاء الريف وســـفوح الجـــبال، ووديان الرعي، وفتشوا أماكن النار كلها في مدينة الـــسور، حيث يمكن أن يوجد مختل أو يتيم، أو رام للنبال، يحاول أن يسرق نطفة من رمز ويزهو بها، وعادوا بالثوب الأخضر المرقّع والعمامة الخـــضراء، وجواد الحرب الأصيل، والمدية التي طعنت حارساً مسكيناً، و لم يعـــودوا بالـــصبـــي مقهـــور، كنت حاضرا حين التقاهم القائد، واســـتمع، وحـــاورهم الـــتقلاوي وجـــبّار القرنين حواراً مستفيضاً، ورصدت نتيجة اتفق عليها الجميع بلا استثناء، أن يحفر قبر منفرد بعيد عـــن الخيام، وقريب من قبر السفيه ولهان الخمري، تدفن بداخله سيرة المـــرتد مقهور ولا يعود يتذكرها أحد. وقد كان بالفعل، حيث حفر القبر بسواعد نشطة، دفنت ثياب كان مقهور قد ارتداها أو تغطى بها،

دفـــن برش السعف الذي كان يرقد عليه ساعة الرقاد، والقوس الذي كان من المفترض أن يجاهد به، وحتى حواراته التي تحاورها، وابتساماته التي ابتسمها، حذفت من مجتمع الكتيبة إلى الأبد، وأعفي جبريل لالو، قائــــد ســـرية جبّارين، من انغراسه في الساحة كوتد خاص، أو امتلائه بالـــشر، كسطل محتمل للعقاب، لكن مهمة السرية في الحراسة بقيت كما هي، تجاهد في الليل والنهار، محاولة أن تحذف مفردة الفرار اللئيمة المنبوذة، من مفردات الجند وثقافتهم.

كـــان الـــتقلاوي ديدام، هو أكثر الذين تعذبوا بفرار الصبـــي مقهـــور، خاصـــة إنه حدث في وقت قيادته المؤقتة، حين غاب القائد لساعات، بالرغم من أنه لم يفقد أبداً أناقة السيف على الخصر، والصقر أعلـــى الكـــتف، كنت أشاهده في كثير من الأحيان ساهماً، يتطلع إلى ســـاحة الرعي، أو يمد خياشيمه إلى الهواء، يتشممه، كمن يبحث عن رائحـــة معيـــنة، أو يمضي مرتبك الخطى، إلى حيث حفر قبر النسيان وردم، يركل بروزه الرملي بقدميه، أو يتمخط ملوّثاً رمله بإفراز أصفر.

الفصل الرابع

موت ناي الحماس

- 1 -

عـــدنا إلى ليل البنفسج مرة أخرى، إلى كوابيس النعناع، وسيرة المجاهـــدة حـــورية الأرض، وقطعة الظلام التي ما استطعت تمعنها أثناء النظرة التي كانت لي.. عروسي الأكيدة ضو. وما زلت أحس بنظرها الـــتي كانت عليَّ، مثبتة في الظهر، تحز الجلد واللحم، بالرغم من مرور أكثر من شهر، انشغلنا فيه بأمر مقهور وفراره، حتى دفنا سيرته في قبر منسي وانتهينا.

حـــدد موعد زفافي إلى تلك الضو، حدد برغم أنباء تواترت عن اكـــتمال استعداد جنود الحكومة، الذين طعموا بمهارات مميتة، جاءت مـــن مصر والصحراء الغربية، وحتى من بلاد إفريقيا البعيدة، وابتدأوا المـــسير نحو قتالنا، ومحو ثورة المتَّقي التي اعتبرت جريرة إلى الأبد. جاء بـــتلك الأنـــباء أعراب من بلدان الوسط، كانوا في الواقع تجاراً جدداً، طـــرقوا ذلك الباب مؤخراً، افتتحوا قناة للربح مع سوق الجهاديين في المدينة، ومنحوا تصاريح مرور من المتَّقي، تتيح لهم السفر والعودة، وأن يطـــأوا أكثر الأماكن فجيعة وألماً، من دون أن يتعرض لهم أو لتجارتهم أحـــد. وكـــان مـــن بينهم شيخ في نحو السبعين أو أكثر قليلاً، قاحل وشـــديد الـــنحافة، وممتلئ بالنمش في وجهه ويديه، تخصص في تجارة أعـــلاف المواشـــي، وأمدنا بهبة سخية منها، نثرناها في ساحة الرعي، وتـــزاحمت علـــيها القطعـــان. قال إنه مغرم بالمتَّقي إلى درجة الجنون، ومدافع كبير عن الثورة، يعتبر نفسه أحد آبائها، ومستعد للقتال برغم

عمــره، في أي لحظة ينادى فيها بالجهاد. لم أستسغ وجه ذلك الشيخ أبــداً، لم أستسغ لكنته ونمشه، ووضعه لساق على ساق، وحكه لأذنه بــسواك الأراك، وتوصــيفه لمهــنة الــتابع التي أمتهنها، وأحس بذلها ومهانتها، بأنها مهنة رقي وإخلاص، ولو كان ما يزال صغيراً في السن، لتبع أقل المجاهدين شأناً، واستمتع بخدمته. لكن ما أفزعني حقيقة، وأعاد إلى نفسي هلعها القديم، هو اسمه الذي نطقه في فخر من دون أن يسأله أحــد.. فقــد كان يدعى طلحان.. نفس الاسم الذي وصم زنديقاً، وورد في رسالة المتَّقي الأولى أيام إرهاصات الغزو.

مــن بين الأسئلة المتعددة التي طرحت على أولئك الأعراب، من قبل الأمير طلسم أو التقلاوي ديدام، أو جبّار القرنين، واستفسرت عن الــتجارة والربح، وأفضل السلع التي تدر الدنانير وسط ذلك الكساد العــام، كــان ثمة سؤال عن معنى أن يوضع ريش منتزع من ذيل ديك على باب، وتكتب تحته، عبارة لا راد لقضاء الله، وقد كان هو الشعار الــذي شــاهدته على باب ضو، وسأله القائد لدهشتي الشديدة، وما ظنــنت أبداً إنه لغز علق بذاكرة الجهادي، ويبحث له عن إجابة عند أعراب تجار، يحمل أحدهم اسم زنديق.

أثنى العجوز طلحان على الإمام المتَّقي، أعزه الله.. أكرمه الله، من دون مناسبة حقيقية للثناء عليه، وضَّح.. إن من واجبنا الثناء على سيدنا وإمامنا وقائد ثورتنا، من دون أن يطلب أحد إيضاحاً.. ردد في النهاية:

- هــذا بكاء رجل لا يستطيع البكاء علناً لخوفه من السيف، إن كــان على باب رجل، وسباب امرأة عقلها في مكان، وقلبها في مكان آخر، إن كان على باب امرأة.

- ولماذا تقول ذلك؟

سأله القائد.. وقد بدا منبهراً.

- ليس أنا من يقول ذلك يا أمير.. ولكن هذان السيدان..

أشـــار إلى رأسه، وكان مزدحماً بشعر أبيض من نهار أبيض، وإلى فمـــه، وكان كهفاً مهجوراً، بلا ناب ولا قاطع ولا ضرس، ولا حتى لعاب يبل الكلام حين يخرج.

كـــان الأمر كله غريباً، بل غاية في الغرابة. أن يسيطر أعراب من الـــبدو علـــى التجارة، يمتلئون ويستفرغون والبادية تشتعل، والحضر يـــشتعل، والحرب ليست في الأفق البعيد، ولكن في الدرب الذي يقود إليها. أن يمنحوا صكوك مرور من قائد الثورة، وبينهم شيخ يحمل اسم زنديق رمز، وثق في رسالة مهووسة، أن يعلق شعار رسم على باب من الـــصفيح، قـــد يعني شيئاً وقد لا يعني، بذاكرة جهادي مشغول بأمور عدة، حتى ليسأل عنه بهذه الغرابة.

كـــان القائـــد قد تنحنح، مرر مسبحة الصوفيين بين أصابعه بـــبطء، ولا بد كان يفكر في تلك التي عقلها في بيت الصفيح، في أرض الكوثر، وقلبها في مكان آخر لا يستطيع معرفته. رماني بنظرة كـــبيرة وأنا أقدم شاي الضيافة للتجار الذين كانوا مسترخين على بـــروش السعف ووسائد الريش، يكملون أحاديث الربح والثروة، رماني بنظرة أكبر حين تنفّض التجار من استرخائهم، ركبوا قافلتهم التي كانت إبلاً وحميراً، ومضوا، وذهب التقلاوي وجبّار القرنين إلى خيمتيهما:

- لم تقل رأيك في ضو يا سعد.

- لا بأس.. بالرغم من..

لم يدعني أكمل، وقد عزمت على أن ألوم النظرة التي كانت لي، لأنهـــا لم تعطني شبعاً ولا حتى رماد شبع، ألوم النظرة التي كانت عليَّ لأنهـــا افترســـتني وأحـــس بوخزها ما يزال في ظهري.. أخبره إنني لم

أنصف، حين لم أر شيئاً، وأنصفت المرأة حين رأت وشبعت. عيناه في قمة الاشتعال.. وصوته فولانياً خالصاً:

- لا تقـــل برغم يا سعد.. ولكن قل على بركة الله.. على بركة الله، سنـــزفك إلى ضو. سنقيم لك عرساً مجيداً. اذهب..

طردني من اتباع يقظته، وما ملأت إبريق وضوئه بعد، وما مزقت ثـــيابه ورقّعـــتها كمـــا أفعل دائماً، ولا بدأت أحكي له حكاية الولد (الفـــولاني) صـــرحي عبد الخير، الذي ألقى بنفسه في بئر مظلم غاص بالعقـــارب والـــثعابين وحكايـــات الجن، لإنقاذ فتاة بدوية اسمها (أم عكش)، ظلت عالقة لأكثر من عشرة أيام، بعد أن ألقى بها والدها في ذلـــك البئر، في لحظة جنون، حين سألته عن الفرق بين مغص الرجال ومغص النساء. كانت قصة قديمة سمعتها من دون أن أعرف إن كانت حقيقـــية أم لا، أدخلت إليها اسم الولد الفولاني، أي الذي من قبيلته، وأدخلت القصة كلها إلى وظيفة التابع، وأنفش بها القائد متى ما أراد أن ينتفش.

كان يسألني دائماً:

- وماذا فعلوا للأب الملحد؟

أقـــول.. طردوه من القرية، وما قبلت أي قرية أخرى باستقباله.. ومات جوعاً وعطشاً في الصحراء.

- يستحق ذلك.. والفتاة أم عكش وصرحي عبد الخير؟

- تزوجا يا سيدي. وعاشا سعيدين.

قـــد يسأل عن الفرق بين مغص الرجال ومغص النساء، وقد لا يسأل، ولم أكن في الحقيقة أملك إجابة لو سأل، وقد يبتر القصة في أي موضـــع من مواضعها ولا يدعني أكمل، وأيضاً قد يطلب ترديدها عدة مـــرات في نفس الليلة، وقد شعرت في الآونة الأخيرة، إن تلك القصة،

قـــد وصلت في مللها إلى ما وصل إليه درس جبّار القرنين، عن عظمة الخـــيول ورشاقتها، وكنت أنوي استبدالها بقصة جديدة. وفكرت في نـــصوص كثيرة، منها نص مرعب، عن شيخ جهادي أحب حورية من بـــنات الأقباط، حتى إذا غدا سلساً في فراشها، سلخت رأسه وألقت بالجلد للكلاب، وخفت أن أروي ذلك النص حتى لنفسي.

كـــان لا بد من الحصول على إذن من الإمام المتَّقي قائد الثورة، لإتمـــام الـــزواج، ذلك إنه يتم في كتيبة محاربة، ووسط رجال زوجوا مقـــدماً مـــن حـــوريات السماء، حتى قبل أن تنشب الحرب الكبرى ويستـــشهدوا. لم أكـــن أعرف وسائل الإقناع التي سيسوقها القائد في ذلـــك الشأن، لكن قطعاً، لديه وسائله، وقد يستخدم عقيدتي القبطية السابقة، وهشاشة إيماني، وإنني قد أصير أكثر تعلقاً بالجهاد، حين أزوج في الأرض قبل السماء.

لم يكـــن لكتيبة صقور في الواقع، رسول معين لنقل الرسائل إلى المديـــنة، ذلـــك ببساطة، إن الكتائب المحاربة المتمركزة في الأطراف، كانـــت تتلقـــى الرســـائل من المتَّقي ولا ترسل إلا نادراً، وقد كلف الـــتقلاوي ديدام، مساعد القائد، شخصياً، بنقل ذلك الأمر إلى المتَّقي، وكانـــت مرته الأولى التي يغادر فيها الكتيبة منذ عسكرت في موقعها، ولم يكن من عشاق السبايا كما عرفت، ويبدو قانعاً بحورية السماء التي عقـــد عليها قرانه في تلك الليلة الغريبة المهووسة التي كنت غارقاً فيها حـــتى انـــتهت. شاهدته عابساً وغير راض، يداعب صقره في خشونة ويـــتلمس سيفه بين لحظة وأخرى، والتزم في النهاية لأن لا مناص من الالتزام، ويملك القائد طلسم، صلاحيات عزله وغسيله، وتمزيقه، وحتى تفاصـــيل ردته، ودفنه منسياً بالقرب من مقهور وولهان الخمري. كنت أتمنى ألا يقبل المتَّقي، أتمنى أن يعود التقلاوي حافياً وأعرجاً، ومجرداً من

السيف والصقر – وثياب الرقع، وبصحبة سرية خاصة لاقتناص القائد طلسم، وأخذه ليغسل في النبع الكبير، وأنفد من ذلك الزواج القسري، لكن ذلك لم يحدث أبداً. غاب التقلاوي ديدام في المدينة لعدة ساعات فقــط، وعـــاد يحمل بشرى الموافقة، وإن الإمام المتَّقي ليسره أن يقوى إيمان مهتد جديد، ما دام الزواج يقويه.

ذلـــك اليوم ركضت سيرتي متبوعة بالمغص، بين جنود الكتيبة، حاملـــي الجسد نفسه والغريزة نفسها، ولكن بزفاف مؤجل. اعتبروني صـــاحب حـــظ وحظوة، وأعتبر نفسي عكس ذلك، لوى الطباخون، زملائـــي القدامـــى، وجوههم بعيداً عني حين زرت خيمتهم، قدم لي العـــسكري زمزام، حساء بطعم الطين لا يمكن شربه، وسألني المشلول يحـــي، عن عروسي وكيف التقيت بها، و لم أعطه تفسيراً لأنني لا أملك أي تفسير. هي نظرة كانت لي ولم تشبع، ونظرة كانت عليَّ وشبعت بـــلا شك. لكن المصَّاص لم يكن حانقاً، ولا صاحب ضغينة صغيرة أو كبيرة، حين زرته في خيمة الشهداء، حيث يعالج جريحه الذي لا يشفى برغم كل الجهود التي يبذلها في شأنه. احتضنني بقوة اجتهد فيها جسده النحيل، وقدم لي هدية كان يخبئها في حفرة تحت وسادة نومه لتقديمها إلى شـــخص مـــا، ولعلها فتاة ولهان (حنّو) التي لم يعد يستطيع زيارتها واحتضانها. كانت هديته ثعباناً غاية في الضخامة، حنطه بأوراق نبات (العشر) المخلوطة بوبر الإبل، ولفه في أوراق صفراء متسخة.

كـــنا في يوم مبارك من أيام ذي الحجة، حين أقيم طقس الزواج، لـــيس علـــى مسرح (يوتوبيا) الأنيق، ولا خزي العين الفريد، حيث طـــارت أغنية الحمام بصوت المغني (جريح)، و لم تحط، ولا أي مسرح آخـــر رسمـــته أيـــام كنت أرسم الأحلام، وأوقعها بضحكات حبيبتي الضائعة. كانت في معسكر أجرب مخنوق بالدسائس، وشهوة السلطة،

وأصـــوات قطعان الرعي، والتواء حنك المجاهدين، وعبوس تقاطيعهم، وطيف الحرب المعذِّب في العراك الزائف، وأناشيد الحماس الجلفة.

جلـــس الشيخ مفتاح الفلاح، إمام مسجد السور القديم، حيث أمـــره القائـــد أن يجلس ليعقد القران، قدم له رضى شفاهياً، هو رضى موكلته المجاهدة ضو القناديل، ودرعاً رخواً ليس من دروع الحرب، هو المهـــر الذي قبلت به، قدم له بصمة إبهامه لأنه كان نصف أمي، يقرأ ويكـــتب بـــصعوبة، وتوقيعي كسعد المبروك، وليس ميخائيل رجائي القـــديم. لم تكن أصوات الجنود حماسية أو حتى مهضومة وتقترب من الحماس، حين اصطفوا في الساحة الكبيرة، غنوا نشيد (النونوة) المجلجل عدة مرات، ونشيد (ستر النساء) الذي يعتبرهن عورات واجبة الستر، وقـــيل أنـــه من تأليف اليمني جبّار القرنين، وأيضاً شممت فيه رائحة قريبـــــي مـــسمى طاؤوس، أو عكرمة الضراب، وإنه بلا شك أحد الـــبوابات الـــتي عبر بها إلى حياته الجديدة. نحرت عدة تيوس إفريقية جلـــبت مـــن ساحة الرعي، وشوي لحمها على عجل بواسطة مجندي ســـرية الطـــبخ، وقدّمت للنصيب، رسول المتّقي الذي جاء مشاركاً، ويحمل رسالة تهنئة، عصيدة خاصة صنعت من ألياف نبات (الحميض) الحلـــو، بعـــد خلطها بالعسل وقشور النبق، ولا تقدم إلا لعلية القوم. رشـــوني برائحة المسك، ريح الجنة، وحملت عن الأرض بسواعد سرية جـــبّارين القوية، طافوا بـــي على القبر الرمزي للمرتد(مقهور) والقبر الملـــوث لولهان الخمري، حيث بصقت بقرف، وعلى قبر الشهيد توما، حـــيث ابتـــسمت وزغردت، وعلى بيت الغسيل، حيث كان ينتظرني القائمقـــام برهاني بزيه العسكري كاملاً، ورميت على البيت حفنة من التـــراب النظـــيف، كناية على أنني لن أدخله مرة أخرى أبداً. لم تقم مـــسابقة جر الحبل المعروفة في الأعراس البائسة، لأن القائد خاف على

قـــوى جـــنوده من الهدر، والحرب على الأبواب، ولا سمح لي بإلقاء كلمـــتي في الاحـــتفال، لأن صوتي يجب أن يظل طرياً وكاملاً، وممتلئاً بمفردات النشوة، وأنا أزف إلى بيت الصفيح.

كان من بين الطقوس التي أعدت، وكان طقساً معروفاً في زيجات الوطن، حتى أكثرها بؤساً، أو أكثرها غنى، أن أختار رفيقاً من أعضاء الكتيـــبة، يمـــضي بـــي إلى بيت عروسي، يسلمني إليها ويعود، وقد اخترت ودعة المصَّاص بلا تفكير. كان صديقي الوحيد في تلك المحنة، وكنت أمنحه فرصة أن يرى المدينة علناً من دون ليل مسروق، وأخطاء ملـــثمة، وفرصـــة أن يـــرى بائسته حنّو، إن وجد فرصة لرؤيتها، بدا المـــصَّاص مغتـــبطاً، ويصفر في انتشاء، لكن اغتباطه لم يستمر طويلاً، وصـــفيره تقطـــع علـــى حلقه، وقد ركب نفر من سرية الموت بقيادة (حـــنداق)، جـــيادهم القوية، ورافقونا.. كانوا يحرسون يومي العسل الـــذين منحا لي من قبل قائد الكتيبة، ولا بد يحرسون أخطاء المصَّاص التي كان من الممكن أن يرتكبها، وقد عبد له الدرب.

- 2 -

ريـــش الديك أعلى باب الصفيح الصدئ، في حي أرض الكوثر، لكنه ملون بألوان قوس قزح الذي يتكون بعد مطر خريفي غزير.

لا راد لقـــضاء الله، مكتوبة الآن بخط (الرقعة) الأنيق، وأضيفت إليها نفحة إيمانية أخرى.. إن بعد العسر يسرا.

وكما لم أفهم القضاء الذي لا راد له، ولم يبهرني تفسير العجوز طلحـــان، حين ألقاه بعد الثناء على المتَّقي، وبهر به الحاضرين كلهم، لم أفهم العسر الذي كان، واليسر الذي يحدث في حياة صاحبة البيت التي لا تعـــرف عن عريسها الذي زفت إليه، سوى تزكية من قائد في قلبه غـــرض وفي جـــسده شهوة مزرية، ونظرة ألقتها عليه ذات يوم، لتلم بتفاصـــيل جسده فقط وليس تفاصيل روحه. عنيدة وقاسية، وصلبة، وتـــدرِّب النـــساء على لغة الموت، وهلع الحرب باعتباره حياة يومية سلـــسة. جاءت من قرية أباخيت في داخل النص الرهيب، برفقة المتَّقي وأتباعه، ولا ماض آخر يعرفه أحد. تتدثر بالظلام كاملاً، ولا وجه أو يـــد أو شعر، أو أظافر، أو دلع أنثوي.. يا إلهي.. كان الشرك محكماً بـــشدة، وثمـــن خميلة البنفسجية، أو خميلة النعناعة، أو خميلة التي أكاد أفـــزع مـــن ســـيرتها، وأعدت خاتمها إلى حفرته العميقة قرب الخيمة الممـــزقة، مخافـــة أن أنكشف ساعة عريي، إن تعريت، أقسى من فقد الـــسلطة والـــبريق والأهـــل، والفرس العبَّار، وأقسى من جو الكتيبة، والطبخ، وتبعية القائد.

كنت أرتجف وما يزال الشتاء بعيداً.. أحس بالنبض عاصفاً في عنقي، وجنبي وأطرافي، أمد يدي إلى الباب، وأعيدها، والتفت إلى الوراء، لأشاهد عيني (حنداق)، قائد سرية الموت، ضيقتين إلى أقصى حد، وفيهما لهب، ووِدعة المصّاص على حماره الأجرب، ووجهه باتجاه الأرض يمص طينها وغبارها. يمص روحها ويبصقه.

- ادخل يا تابع وخلصنا..

يزجرني حنداق المجدَّر، أو حنداق الحجر، كما أسميه في سري، الرجل الذي يقود سرية لا تعرف العواطف، ولا تقدر إحساس مهزوم، يجابه هزيمة وراء هزيمة، والرجل الذي قيل أنه نبع من منطقة جبل (الكردوس) في أقصى جنوب السور، حيث الذئاب تسلية للأطفال الصغار، يلعبون بلحمها وعظامها، والأسود التي تستوطن هناك، مجرد دمي، يتبارى الرجال في سلخ أنوفها وتقليم أظافر افتراسها، كان مؤهلاً بشدة لزجري، وزجر كل مرتعش، تنتفض يداه في ليلة عرس.

- ادخل يا تابع القائد.. ادخل..

لا ينطق باسمي حتى، أو لعله ينطقه في سره متبوعاً بالبذاءة، كأن يقول.. أدخل يا سعد الكلب، ولا يمهلني لألم قليلاً من الثبات أدخل به، وأحس برغبة في القيء، ورغبة في الفرار، ورغبة في ضخ سائل مقرف من تحتي، ولا التفت مرة أخرى، مخافة أن أرى لهب الموت في عينيه وعيون جنوده.. اقرأ.. لا راد لقضاء الله.. وامتلئ إيماناً بالقضاء، ذلك الذي أوصلني إلى هذه اللحظة، اقرأ.. إن بعد العسر.. يسرا.. وأفكر في يسر ربما لا أعرفه، وينتظرني بالداخل، وأطرق على الباب مستعيراً طرقة القائد طلسم ونحنحته وطريقته في التنويه..

يا ضو القناديل.. يا مجاهدة.. السلام عليكم.

تلك اللحظة بالذات، والباب ينفتح محدثاً صرير الأبواب الفقيرة، حدث ما لم يتوقعه أحد. وجدنا أنفسنا فجأة بين لهيب من السياط الجبّارة، كانت تنهمر علينا كالمطر، ومن أيد سريعة حتى لا تكاد تميز لها لحماً ولا عظاماً، وأدركت على الفور، إنهم المقاومين، حاملي السياط الذين ذكرهم المصَّاص، حين حدثني عن السور حية وميتة، آلمني ظهري بشدة، وجرَّتني يدان قويتان إلى داخل بيت الصفيح بسرعة، والتفت خلفي، لأشاهد ودعة المصَّاص، لا يمص روح الأرض، ولكن يركض بحماره الأجرب، وحنداق قائد كتيبة الموت، لا يتقهقر، ولكنه يتقلب في الهواء، ويقهقه، وأسمع طرقعة متتابعة، كأنها أصوات أعناق تكسر، أو مفاصل تتآكل أو دروع من الخشب، يعذبها سيل. أغلق الباب خلفي بنفس الصرير الفقير، وأنا لا أفكر الآن في ضو، وغموضها، ومفاتيح عريها، وكيف أدخلها وأخرج منها، ولكن في صديقي ودعة، وإن كان قد نجا، أو شققت السياط لحمه. وكان أكثر ما يحيرني أن تنشط تلك الجماعة المجنونة، في وضح النهار، والسور مأوى للسيوف والحراب، والموت بكل أشكاله وألوانه، وأن تأتي في تلك اللحظة بالذات، لتواجه حنداق وجنوده الذين لم يسموا سرية الموت عبثاً. أردت أن أستأذن قطعة الظلام التي جرتني إلى الداخل، أطل من الباب لأرى ما انتهى إليه الأمر، لكني سمعت صوت حنداق يصرخ.. تدريب جيد يا رجال، ومن خلفه صوت المصَّاص، لا ناعم ولا خشن.. يهنئني بالزفاف مجدداً، ويتمنى لي يومين سعيدين في ضيافة العسل، ثم خيم الصمت.

الآن أنا ملقى على الأرض أمام عروسي المجاهدة، وظهري يؤلمني قليلاً من لسعة السوط التي تلقيتها. ثمة غرفة مرتبة بعناية، يبدو أنها أعدت لتكون مخدع عسل بلا شك. سرير من الخشب منسوج بحبال

الــدوم، علــيه بــساط من المخمل بلون أحمر، جرّة صغيرة ملونة من الفخــار، عليها ماء أو عصير لا أدري، طعام في عدة أطباق موضوعة على طاولة من الخشب الجيد، ورائحة لصندل محروق تمنح المكان طعماً شبقاً. انتفضت لأقف أمامها، لا أعرف خيط البداية، ولا ما هي البداية أصلاً، ما هو المطلوب مني، وما هو غير المطلوب مني، وهل أحدثها، أم أنتظر أن تحدثني، وما تزال سوداء ومظلمة، بلا وجه ولا شعر ولا يدين ولا أظافر، ولا دلع أنثوي.. يا إلهي.. يا إلهي. كنت أقترب من الثامنة والثلاثين وقد بدأ شعري يتلون بلون الرماد، شببت مراهقاً في خرائب حي (ونسة)، أدلق فوران المراهقة وسط العفن والنشوة المخترعة متى ما استطعت، وموظفاً انقطع عن تعاطي النساء الخرائب، واعتبرهن مصدر ثروة، حين عين مسئولاً كبيراً وفخماً، وفي النهاية عاشقاً يلون الأحلام في أمــسيات فتاة أرستقراطية، حتى سقطت المدينة وسقطت الأحلام، لــيأتي واقــع الطــبخ المرير والتبعية الأمر، والزفاف القسري.. القرار السيادي، بلا حب ولا أهل ولا فكاك..

قطعة الظلام تنتظر.. أم أنا الذي أنتظر؟

بغــتة اقتــربت العروس مني، أمسكتني من كتفيَّ المرتعشين، وأجلــستني على السرير المخملي برفق، كانتا يدا حمى تلك اللتان مــستاني، يــدا حرير أحسست به حريراً بالفعل، بالرغم من ثياب الــتابع الثقيلة التي أرتديها، وزفوني بها إمعاناً في توثيق الزفاف، بأنه زفــاف تابــع مــسكين، لا رجل حر يقرر وينفذ. بدأت أتأملها والــسكون على أشده، والضوء يأتي مستطيلاً ومتعرجاً من شقوق بــاب الصفيح، وكوة صغيرة في جدار الطين. إن بعد العسر يسرا، أرددهــا في ذهني، وأبحث عن اليسر.. ما أشد حاجتي إلى اليسر في تلك اللحظة.

كانت العروس الآن تتجرد من الظلام قطعة قطعة.. تتجرد على مهل، انتزعت العباءة السوداء، وألقتها على أرض الحجرة، واستطعت أن ألم بتفاصيل صدر أرعن ولاهث، ليس صدر فتاة أبداً، ولكنه صدر امرأة، تفاصيل بطن ضامر حتى لكأنه لا بطن، وسرة بيضاء ثقِبت في الوسط، وثبت على ثقبها خاتم من ذهب، تفاصيل وركين ممتلئين، عليهما آثار زمن مضى، لكنَّها لم تمحو لمعاناً تلمعانه، وليونة تخيلتها، وحين نزعت غلالة الوجه أخيراً، وألقتها أمامي، بدت فارهة وأسطورية، وتافهة وحبيبة إلى كل قلب. كانت الملكة الغجرية نديمة مشغول، مخترعة الأوطان، حتى لو لم تكن توجد أي فرصة لاختراع وطن.

- 3 -

- إنها قصة طويلة.. طويلة جداً يا سعد المبروك.

صوتها المائل ذو التعرجات لم يستقم أبداً، وإلقاؤها لخصلات شعرها الليلية على الخد وسحبها، هو ذاته الإلقاء والسحب أيام خزي العين الفريد، في نقطة تجمع مواصلات الريف، على ضوء الفوانيس المتراقص، ووسط انبهار الريفيين، وتحرش السابلة، وعشق مجنون لعسكري متقاعد كان يأتي بشعر مصبوغ، وقلب محطم. تخاطبني بسعد المبروك، وكأنها تخاطب اللحظة الراهنة، تخاطب الوطن الجديد الذي اخترعته، ومن خامات لا تخترع منها حتى حفرة في وطن. وعلى العكس مني حين لم استسغ اسمي، وهو ينطق بصوتها المتعرج، بدت لي راضية تماماً، وتستسيغ صوتها والاسم الذي نطقه.

كانت الآن تستر عريها الذي أحاول جاهداً أن أمحوه من عينين امتصتاه في لحظة ذعر، وشوّهه الذعر، أحاله إلى تفاصيل همجية لواحدة من لوحات الراحل العظيم كوستاوي، جعلت الصدر اللاهث، ورماً مهلكاً وخبيثاً، الوركين برغم لمعانهما، عودين يابسين لشجرة تبلدي ميتة، البطن الضامر، ثدي بقرة انقطع عنها اللبن، وخاتم الذهب الذي ينغرس في السرة، ويضخ الشبق، مجرد عنكبوت أسود من عناكب الغسيل، في بيت القائمقام برهاني، جعلتني أشاهدها، كحق من حقوق عريس في ليلة زفافه، والآن أمحوها كجريرة اقترفتها. تلتم في قميص رخيص من أقمصة الكستور التي كانت تباع في سوق أبي جهل القديم، بلا أكمام ملونة،

ولا تطريز على الحواف، ولا لهيب أحمر عند فتحة الصدر، ولا أستطيع أن أفهم، هل هي امرأة تريد وصالي في تلك اللحظة؟، أم مجرد ساكنة جديدة في نــص أباخيت الرهيب، مثلي تماماً، تتبع القضاء والقدر. لا راد لقضاء الله، تلــك الجملــة الإيمانية التي في أعلى الباب، لم تكتب عبثاً بلا شك، وتفــسير طلحــان العجوز، لم يكن تفسير تاجر بدوي لم أحبه، ولم أنبهر بتفاســيره، ولكنه تفسير السيدين الذين ذكرهما.. بياض الشعر.. وكهف الفــم القاحل.. امرأة عقلها في مكان وقلبها في مكان آخر. عقلها في نص أباخيت الرهيب، وقلبها في السور القديمة، وربما في خزي العين الذي كان ذات يــوم خــزي العين. إن بعد العسر يسرا، وقطعاً كان سيدا طلحان، ســيقولا كلاماً كثيراً عن ذلك العسر واليسر الذين أضيفا.. وبالرغم من أنــني كنت من أشد معجبــي المِلكة نديمة مشغول، وأعتبرها امرأة فريدة، جعلت للسور نكهة ومذاقاً، إلا أنها لم تكن حوريتي التي انتظرتها كل تلك الــسنوات، لم تكن من أعددت لها أحلام العرس في مسرح (يوتوبيا)، ولم أكــن أتوقع أبداً أن تكون هي ضو القناديل، تلك التي أبرَّني أو قايضني بها القائــد، وحين استعرضت حوريات مدينة السور، وجرجرتهن إلى الذهن في محاولــة فــك الشفرة، أسقطتها بجدارة، باعتبارها سقطت يوم عبرت الحدود، وضاعت خارج الرؤية، بل أسكنتها قبراً في العراء، باعتباره وطنها الجديــد.. لا تمت في الحرب حتى نلتقي.. نطقتها في حمى وداعي في مبنى مجلــس المديــنة، وفــرَّت، وكانت تعني بأنها اخترعت حياتها، وتطالبني باختراع حياتي.

– قصة طويلة يا سعد المبروك.

تلقي بشعر الليل ناعماً على خدها وتسحبه، ولا وجود لفساتين اللهيب الزرقاء والحمراء، ولا تبغ الدردار الخشن، ولا عشق ضرير مثل عشق البكباشي، ليذوب في تلك اللحظة.

كانت قد عبرت الحدود في ذلك اليوم، حافية ومغطاة وناقمة، لم يعقها خندق محفور ولا نار تشتعل، ولا جندي مدجج بالحماس، ضاعت لأيام في الصحراء ومساقط المطر ومجاري السيول، تشم الموت ويشمها، لكنَّها لا تلين أبداً.. وعثر عليها الجهاديون صلبة وقوية، واجهتهم في ثبات، وأعلنت أنها ضو القناديل، أخت الثورة التي جاءت من مكان بعيد، وقد حلمت بها قبل اندلاعها بسنوات، وإنها تريد لقاء المتَّقي لبيعته، وتسلم راية المرأة المجاهدة، في ثورة لم تذكر إرهاصاتها وجود نساء بداخلها. كان ضو القناديل، هو الاسم الذي جرى على لسانها في تلك اللحظة، ولا تدري من أين جاءها، وكان اسماً متوافقاً مع الثورة، وضد الموت.. أليس كذلك يا سعد؟

تغطي العين بالشعر الليلي الغزير، وتكشفها، ولا عاشق يذوب ويتلاشى.. وأطرد شبح ذكرى البكباشي صبير من ذهني.. أخاف أن أكونه في تلك اللحظة.. أن أسقط سقوطه المرير.

ساقوها إلى حيث بذرة من بذور الهلاك.. إلى حيث الخيمة الشبيهة بخيام عرب الظلمان، رديئي السكنى والترحل، وحيث لا بد كان الرسولان التركيان أرقم وجاويد، مربوطين إلى حبل أسطوري، في يوم من الأيام.

جلدها المتَّقي بصوته كما جلد الآخرين، ربطها بالحبال التي تربط، ولا تحل، موضِّحاً نهج الثورة وغايتها، وحتمية وصولها حتى العاصمة لاجتثاث الكفر من جذوره، وتطهير الأرض، لم تسأل عن بلدها أو قبيلتها، وكانت قد فكرت في قبيلة وبلد تضيفهما إلى اسمها الواقي عند الضرورة، وسلّمت في النهاية راية خضراء وتعاليماً معقدة ولقباً كبيراً.. ومخصصات جعلتها عميدة لنساء البؤس اللائي رافقن قصة أباخيت من منبعها، أو انضممن للقصة أثناء سرحانها في القرى

والـــوديان ومنابت الرعي التي احترقت، تعلمهن كيف يطهين الثورة، كـــيف يـــوقدن نارهـــا، ويخلطـــن مقاديرها، وكيف يعشن شامخات ووعرات، حتى لو شبت النار في أحشائهن.

- هل كان الأمير عبَّادي طلسم هناك؟

- هو وكثيرون غيره.

- وهل تعرَّف عليك؟

اســـألها وأستغرب.. وأنا على يقين من أن لا أحداً يخطئ صاحبة خـــزي العـــين أبداً، وما بقي أحد في المدينة والريف المجاور، لم يدخل ذلـــك المقهى الفريد، ولم ينل ضحكة أو ابتسامة، أو أشرك في فجور القولـــون العصبـــي والإمساك المزمن، والدورة الشهرية المتعسرة، حتى لو كان حمّالاً مغموراً في سوق أبـــي جهل الشعبـــي.

الآن تمـــد يديها إلى شعرها الليلي المتأرجح، تعقده بشريط ملوث وبـــلا لون، كان ملقى على الأرض تحت السرير، تلتقط عباءة الظلام المخيفة، تظلم بها، تلتقط دثار الوجه، تظلم به أكثر، تضخ صوتاً خشناً وغريباً من حلقها لا يشبه صوتها المتعرج، تخاطبني به:

- الآن انسني وتعرّف علي من جديد.

وكـــان رداً بلـــيغاً، لأنني لم أتعرف عليها حين رأيت ظلامها لأول مـــرة يوم جاءت لوداعي في مجلس المدينة، ظلامها الثاني، وأنا بـــصحبة القائـــد أثناء النظرة التي كانت لي، ولا ظلام اليوم، وأنا عـــريس أزف إليها بجلافة حنداق ومجندي فرقة الموت. لكن كانت ثمـــة بقعة معتمة ما تزال، أن توصف واحدة من حوريات الأرض، وتـــدخل في صفقة طرفها الآخر جميلة حورية الحوريات، ولا أحد يعـــرف تفاصيل وجهها أو جسدها.. وكانت تقرأني بعمق.. لأنها التقطت تساؤلي، وردمته:

- لا تستغرب يا سعد.. كل مجاهدة في ثورة المتّقي حورية، حتى لو كانت محاسن الجرداء أم العيال السبعة. لو كانت (فتافت) ذات وجه الجـــرذ، لو كانت حنّو صبية الخمري البائسة. هنا لا يوصف وجه ولا قوام ولا دلع أنثوي، ولكن يوصف نور يحيط بالمرأة.. يجعلها حورية.

تبقي على ظلامها قليلاً، وأنبش فيه محاولاً العثور على النور، ولا أعثـــر، وتزيله مرة أخرى وأعثر من دون نبش. لم أكن جهادياً خالصاً بلا شك، ولا أظن غسيل برهاني كان ناجحاً.. كنت أفكر..

أكلنا من الطعام الذي كان مرصوصاً على مائدة الخشب أمامنا، كـــان شهياً وناضجاً ولكن لا أحس بطعم نضوجه. أحس لحظة بأنني كـــنت محظوظاً، حين لم أزف إلى حورية جرداء تحتلبني وتحتلب يومي العـــسل حتى آخر قطرة، ولحظة أخرى، برداءة الحظ، لأنني زففت إلى امرأة مشتهاة، وقد أسقط في الشهوة خائناً لأخرى، لا أملك حتى الآن من ريحها، سوى خاتم مسكين كان مربوطاً بقرب الأحشاء، والآن في حفرة عميقة في معسكر البؤس.

لم يكـــن مـــن المناســـب أن أسألها عن سبايا، أو مخلفات حرب نظـــيفة، أحـــشر في وسطها حميلة البنفسجية، ولا بدت راغبة في جر الحديث إلى تلك الدهاليز، كنت أتأملها وأفكر، فتاة الغجر حين تخترع الـــوطن، حـــين توظّف جهادية في ثورة المتّقي، وتجيد ملء الوظيفة، كجـــزء مـــن دثار الوطن. لكن هل تصلح موظفة في ذلك النص حتى نهايـــته؟، أم هو مجرد دور تلعبه حتى تعثر على دور جديد، أو تعود إلى وطـــنها القديم.. خزي العين. وقبولها الزواج من رجل تعرفه، وتعرف تفاصـــيل قلـــبه كلها، هل كان أيضاً جزءاً من دثار الوطن؟، أم فقرة خـــارج الـــنص وأدخلت إليها صدفة. أتأملها وأفكر، أراها تتأملني، وأحسها تفكر.

سقطت قربها على سرير العسل، في أول الليل، تماماً كما سقط العسكري المتقاعد صبير، ذبابة في مرق يغلي، فقط بلا علة من علله الكثيرة، وبذاكرة تعرَّفت على حرارة الأنثى بامتياز، لكنَّها ادعت الغباء، لم ألجها في ذلك اليوم ولا اليوم التالي، ولا أي يوم آخر من تلك الأيام التي كانت ستمنح لي من قبل قائد الكتيبة كلما سنحت فرصة. ذلك إن نديمة انكشفت. يخبرني حنداق المجدَّر، قائد سرية الموت الذي ما يزال برفقة عدد من جنوده، يحرسون عسلي، بينما نفر آخر حاصروا المصَّاص، جرَّدوه من بوادر أخطائه، وعادوا به إلى المعسكر. يخبرني بصلف، وبلا أي حد أدنى للعواطف إن صاحبتي انكشفت. كشفها صبيها الجرسون (ترتر)، الذي اختطفه أبوه أثناء إرهاصات الغزو، عطَّره بالمسك، وذهب به إلى منبع النار، وهو يصرخ.. يا كافرة.. يا ملحدة. عرفها حين حام حول بيتها الفقير في الليلة التي سبقت زفافها، وسمع عطاسها المميز، الذي كانت تحرص دائماً على خنقه بيدها كلما أحست به، وكانت تلك الليلة نائمة، وكان العطاس كثيفاً وحراً، ليسمعه متحاوم ليلي مثل الصبي ترتر. انتظر يوماً آخر، يصادق اكتشافه ويخاصمه، يود أن يفصح، ولا يود، إلا أن صرعه الإفصاح، فصرخ في وسط عدد من المهابيل كانوا يسنون سيوفهم على حجر.. ضو القناديل.. ليست ضو القناديل.. ولكنَّها صاحبة خزي العين، نديمة مشغول.

الذي حدث..

يخبرني حنداق المجدَّر، الذي أعلم بالهوس كله حين استأذنوه أمام الباب، قبل خلعه، يخبرني بلا أي حد أدنى للعواطف، بلا فزع ولا رحمة، ولا مقدرة أن يكون راوية عادلاً لأحداث ليس طرفاً فيها.. الذي حدث إن عدداً من معارفها، أو زبائنها القدامى استجابوا لصرخة الصبي ترتر..

بـــدأوا يلمون تفاصيل المرأة القديمة، يرسمونها على الظل الأسود الذي يقود كتيـــبة النـــساء، يعلّمها ملح الحرب، ومقادير طهوها، وشاهدوه عشرات المرات باعتباره ضو.. يلمون ويرسمون حتى رسموها كاملة، بشعرها الليلي الـــذي تلمـــه وتبعثره، بفجورها وضحكاتها، وإمساكها المزمن، ودورتها الشهرية المتعسرة، وحتى تبغ الدردار الخشن، الذي ما انقطعت عن تعاطيه، إلا حين انسلخت عن المدينة، وضاعت وراء الرؤية.

فاسقة ومرتدة وزنديقة..

علمت النساء الفجور

تدعي التقوى وهي مرتدة.

اغسلوها في النبع الكبير.

كانت الآن لقمة جديدة أطعمت لحناجر الهدير، في مدينة السور التي ما برحها الموت أو الهدير أبداً، منذ حوصرت وسقطت.

كـــان عـــدد من الملثّمين بغتة معنا، عشرات السيوف معنا، وفي ســـرير العسل الذي كنا نتقاسمه جافين، لا مبتلين بالرعشة. لم يتركوا فرصـــة للمـــرأة أن تغطي وجهها وشعرها المدلوق، وما انكشف من عـــريها المشروع، وجرّوها لينة، ملّت اختراع الأوطان واستسلمت. لم أكـــن هـــدفاً لتلك الغزوة، فلم يسألني أحد، ولا أحدث صراخي، أو قميص التابع الذي رفعت شارته في وجوههم أثراً.

كانـــت آخـــر نظرة ألقتها عليّ، تلك التي خلتها نظرة مبتسمة وشـــبعانة، تتجشأ من عينين واسعتين، وآخر نظرة ألقيتها عليها، حين ربطـــت إلى ظهـــر حمار أجرب، إحدى ساقيها تنـــزف بلا انقطاع، والأخـــرى مورّمة بفعل إجهاد وحشي، ذهبت نديمة مشغول، إحدى العلامات، كما تذهب أي عاهرة ملوثة، كما يذهب أي وسخ يكنس على عجل.

ظللـــت أبكـــي، ولا يعطف علي حنداق، أستجير باسم المتَّقي، واســـم القائد طلسم، أصيح بهما، ولا أسمع سوى الثناء عليهما، ينبعث من حلوق سرية الموت. وصدى الثناء يرتد من حوائط البؤس والفزع. كـــنت بلا مروءة حين حملني حنداق، وضعني على ظهر حماري الهزيل ومـــضى بـــي، ألتفت، فأرى عبارة القضاء والقدر، ثابتة أعلى الباب، حـــتى وهو ملقى على الأرض، وعبارة اليسر الذي يعقب العسر، ثابتة أيضاً، وألمح عدد من الصبية، يظهرون فجأة من أحد الأزقة، يقتحمون بـــيت العـــسل الفقير، وأخالهم يعربدون في أطباق الطعام التي كانت مرصوصة على مائدة الخشب.

- 4 -

عـــدت إلى معـــسكر كتيبة صقور بائساً ومحطّماً، وبلا معنويات أصـــلاً، لترتفع أو تنخفض. أزالني حنداق المجدَّر من على ظهر حماري الهزيل، أمام خيمة القائد، كما يزيل صمغاً متجلطاً عصياً على الإزالة، وكان طوال الطريق، يرطن بلغة جبل (الكردوس) البعيد، أو يصيح في رفاق يعرفهم، ويصادفهم في الطريق، أو يردد نشيد (النونوة) المجلجل، الذي يصف التقوى كفتاة مليحة، بفم من مرمر، وضفائر من عسجد، ولا أعـــرف لماذا يردده. وخلال عبورنا لأحياء المدينة باتجاه الأطراف، كـــنا نلمـــح الحياة إما صاخبة وإما خامدة، إما فوراناً في الشوارع أو صمتاً مطبقاً في بيوت الفقر والجوع. وفي أحد الدروب الملتوية، واجهنا قريبـــــي مسمى - عكرمة الضراب، رسول المتّقي، هذه المرة أيضاً، كـــان على حصان رمادي مرتفع، وتلمع شارة الرسول الخضراء، على صـــدر زيـــه الأبيض النظيف. وعلى خلاف القائد طلسم، استجاب حـــنداق لتحيته.. السلام عليكم، فردها كاملة، وعليكم السلام ورحمة الله وبـــركاته. اغتـــبط من التهنئة الحارة التي ساقها له، بكسر أعناق حاملي السياط الملحدين الذين كانوا يعبثون بمقدَّرات الجهاد، ويدعون للفتـــنة في مدينة مجاهدة، واغتبط أكثر حين اقترب من أذنه، وردد في صوت منخفض لكنه مسموع.. قد تمنح رتبة الإمارة قريباً وتعين قائداً لإحـــدى الكتائب. تركه حنداق يترجل عن فرسه، تركه يقترب مني، تـــركه يدغدغ جنبـــي بأصابعه، ويقهقه في ترف، ولم ينهره حتى بعد

أن أمسكني من كتفيَّ المرتعشين، رجَّني عدة مرات بالدوار، وقهقهته عالية لا تنخفض، وحين اقترح غسلي في النبع الكبير، ردد حنداق..

- لا ضرورة لذلك يا أخي.. لقد غسلته الأيام.

كنت بلا مروءة، لكن المروءة تجيء حين تستدعى، وحين ينشط جنود الدم الذين أعلمني المصَّاص بأمرهم في أحد الأيام، وجدت نفسي فجأة أهب في وجه مسمى، أبصق على شارة النفاق التي يرتديها، وأشده من قميصه النظيف، ألقي به ذاهلاً ومتخبطاً على أرض الطريق الملوثة، ليغرق في الروث والمياه الرطبة.. لم أكن أبالي ولا حسبت حساب النبع الكبير الذي لا بد موجود وقريب جداً، لم يضحك حنداق، ولم يغضب، ولم يقل شيئاً، اعتبرها كما يبدو جريرة عادية من بائس مكسور الخاطر، نهبت عروسه في ليلة العرس، وربما اعتبرها عتاباً طقسياً جرى بين قبطيين قديمين في نص دخلاه قسراً.. ابتعد بموكبه الذي يضمني، وبقية مجنديه الذين كانوا يراقبون الموقف بلا ملامح، ورسول المتَّقي يتنفض من الروث، ويقفز إلى ظهر جواده المرتفع ويمضي.

لم يكن القائد عبَّادي طلسم، موجوداً في خيمته الكبيرة حين أردت أن أدخلها، وأخبرني جبّار القرنين الذي وجدته يتحاوم هناك، وآلة الكارور في يده، كنزير شؤم، وحلقه يتشوق لضخها، إنه استدعي إلى المدينة على عجل، وذهب بصحبة رسول جاء يحمل أمر استدعائه، وخمَّنت إنهم يشركونه في مصير الغجرية التي زوَّجها لتابعه، وقد يسأل بمرارة، وقد لا يسأل عن ماضيها الذي يعرفه، ويعرفه كل ساكن في مدينة السور، أو زائر لها، حتى لو كان حمّالاً مغموراً في سوق أبي جهل الشعبي. لم يسألني جبّار القرنين عن شيء ولا أظنه كان يعرف، والمأساة كانت ما تزال ساخنة، لم تبرد ولم تحمل إلى الأطراف بعد.

تجرجـــرت من أمام خيمة القائد متجهاً إلى خيمة الشهداء، حيث أتوقع أن أرى ودعة المصَّاص، يتفانى في علاج جريح لا يود أن يشفى ويعـــود للكتيـــبة وحراسة ساحة الرعي، ولا يموت، ويدفن بجوار توما شـــهيداً حقيقياً، وليس محتضراً متمسكاً بالحياة في خيمة رمزية. كان الـــنهار قـــد تلاشـــى تقريباً، ارتسمت حمرة المغيب على أفق البؤس، وتعالـــت نحنحة جندي يستعد ليؤذن لصلاة المغرب، وقد كان الآذان جـــزءاً من فروض المجندين، يتعاقب عليهم في جدول مكتوب بتنسيق اليمني جبّار القرنين.. عثر علي التقلاوي ديدام، وأنا أتجرجر، كان في لوحته المعهودة، لوحة السيف في الخصر، والصقر أعلى الكتف، لوحة قطعاً كان الرسام كوستاوي سيضيف إليها قرني ثور، أو ذيل طاؤوس أجـــرب لو رسمها. حياني باحترام مبالغ فيه، وكان ذلك سمة لمستها في تحاياه منذ عيِّنت تابعاً للقائد، ولا أعرف مفهوم التقلاوي لتلك الوظيفة التي كانت وظيفة ذليل يستحق أن يصفع حين قبل أن يتقلدها. سألني عـــن ســـر عـــودتي المبكرة، وإن كنت قد مللت حورية الأرض بهذه الـــسرعة، و لم يكن يعلم إن فراش العسل كان جافاً بلا رعشة، وانتهى كما تنتهي الحروب القذرة، كنس كما يكنس الوسخ. رأيته يخرج عطر المسك من جيبه، يرشه في وجهي، وسمعته يردد.. لا بأس يا سعد.. لا بـــأس.. خذ، وكانت لا بأس خنجرية أخرى، شبيهة بتلك التي تلقيتها حـــين عـــرفت بموت أهلي، تنفذ إلى أحشائي، تمزقها، ورائحة أشمها قسراً، لأن التعاليم صيرتها رائحة للجنة.

قلـــت.. سأصلي منفرداً يا سيدي، لأنني متعب، و لم يقل شيئاً.. تركني متجهاً إلى بروش السعف التي فرشت للصلاة، ورأيته ينضم إلى مـــشرف الغسيل برهاني، ولا بد يحدثه بأمر المرتدة التي كشفت وهي عروس جافة في فراش جاف.

كـــان المصَّاص راكعاً عند قدمي الشهيد المحتضر، الذي كان الآن تحـــت وطـــأة الحمـــى، يتأوه بنشوة، ويتحدث عن بنت حور اسمها (جرجـــرية)، لا أدري إن كانت بنت حور فعلاً، أم واحدة من بنات ماضـــيه، جرجـــرتها الحمى إلى فراشه المسكين. يقول.. قبلي سماهيل يـــا جرجرية، قبليه يا حورية، وقد كان اسمه سماهيل بالفعل، وأخبرني المـــصَّاص مرة، إنه واحد من أبناء قبيلة (بني شكر) البدوية، أقرباء (آل بطاح) وأنسبائهم، وعين حارساً لساحة الرعي، لأنه عاش راعياً وسط رعـــاة، وأتقـــن لغـــة القطيع، وحلب اللبن، ويعرف الشاة التي تصلح لإكـــرام الـــضيف، والشاة التي تصيب المصارين بمرض (الزفر). وكان ينتقـــي التـــيوس الفحول، يلقح بها الإناث الملتهبات، وكان يمكن أن يتـــضاعف القطيع في عهد إشرافه على ساحة الرعي، لولا مدية مقهور التي أحدثت بالكتيبة ضرراً بالغاً حين طعنت موهوباً مثله. وبالرغم من أن المـــصَّاص لم يخبرني بذلك، إلا أنني كنت واثقاً بأن سماهيل كان هو مـــن يـــساعده – يمده بالدواب التي ينسرق بها إلى ليل المدينة، حيث الضياع، وحيث حنّو صبية الخمري البائسة.

كـــدت أبكي وأنا أستمع للتأوه المعذب، لتوسل سماهيل أن تقبله جرجرية، أن تضمه، والمصَّاص لا يفعل شيئاً.. لا يوقف الهذيان الجنسي عـــند لحظـــة الموت أو لحظة الحياة، فقط يعجن لبخات نبات القرض، ونبات زنبق الصحارى، وقشور أشجار التبلدي الخشنة، يلصقها بجرح وســـيم ونـــزق، وينتظر. وكان قد ترك مجنداً آخر يقوم بتلك المهمة، حين رافقني إلى المدينة في موكب الزفاف، وعاد ليواصل مهمته.

طالعني باندهاش حين ظهرت أمامه فجأة، نهض من ركوعه أمام المحتـــضر وكله أسئلة مستفسرة، أجبت عليها بالدموع، وارتميت على صدره النحيل الذي بالكاد كان يسعني. كنا نبكي معاً.. أنا أبكي على

الملكـــة نديمـــة التي لم تكن حوريتي، ولكنَّها علامة كبيرة من علامات الحـــياة، تـــستحق البكاء، وهو يبكي على (حنّو) صبية الخمري التي يهواها، ويتخيل لها الآن، مصيراً قاحلاً شبيهاً بمصير الملكة نديمة، حين تسقط في أيدي صانعي المصير القاحل.

قلـــت للمـــصاص.. اعتبرني شهيداً، ودعني أصيح بكوابيسي في خيمـــتك. و لم يكن يملك تلك الصلاحية أبداً. قلت له إلدغني بعقرب مـــن عقاربك، ومص روحي كما مصصت روح توما، و لم يكن يملك عقـــربا، لا طافحاً بالسم ولا مفرغاً منه. رأيته يمسح دموعه في وجل، يـــستعطفني بعينيه الضيقتين، اللتين قلَّص البكاء مساحتهما، أن أرحل، ولا أود الـــرحيل، لا أود الانفراد بكوابيسي في خيمتي الجرداء، وأود حين أبكي في لحظة البكاء القادمة، أن يضمني صدره النحيل في هيكله، الواسع في تعاطفه.

- لعلهم يغسلونها فقط.. وتعود.

كان يخاطبني بالصوت الذي فقد خواصه القديمة، حين كان لا ناعماً ولا خـــشناً، هو الآن خشن إلى أقصى حد. ولا أزداد إلا هلعاً وإلا يقيناً، إنهـــا هلكـــت حتى قبل أن تفارق بيت الصفيح، وتربط إلى ظهر الحمار الأجـــرب، قـــدماً تنــــزف، وقدماً مورمة بفعل إجهاد وحشي، كانت تستسلم في وهن، وكان الأطفال يقتحمون غرفة العسل، يلمون غنائمها.

ارتمـــيت على برش السعف بجوار المحتضر الذي كان الآن خامداً، ويقطـــر من فمه المبتسم، لعاب أصفر.. لا بد كان لعاب حوريته التي ضـــمته وقبلته أثناء رعشة الحمى، كان المصَّاص مرتبكاً بالفعل، يخرج بين لحظة وأخرى، يتفقد الخارج الذي غرق في الظلام والخواء، ويعود يسألني بعينيه الضيقين أن أرحل، ولا أستجيب، حتى حين منحني نباتاً أخـــضر، أخـــرجه مـــن خرقة متسخة كانت في جيبه، قال قد يهدئ

روعـــك يـــا سعد.. وفي لحظة البكاء التالية التي جاءت أشد عنفاً من السابق، لم يكن يمنحني صدره النحيل لأغرق فيه، كان يرخي أذنيه في توتـــر، يقول.. صوت الكارور يا سعد.. صوت الكارور.. ولم يكن صـــوت الكـــارور في الحقيقة، ولكن صوت حشرة زنانة من حشرات الليل، كانت تتحاوم حول أذنيه.

لا بد أنه كان منتصف الليل، حين جاء التقلاوي وجبّار القرنين إلى خـــيمة الـــشهداء لتفقدي بعد أن عاد القائد من مهمته في المدينة وسأل، لأن رائحة البراري كانت أعنف، وصراخ غيلانها الأسطورية، كـــان على أشده. لم أكن نائماً، ولا كان المصَّاص ولا الجريح الشهيد سماهـــيل، الذي كانت حورية الحمى بداخله للمرة الثالثة في ذلك الليل الـــذي لا ينتهي. كنت أسمع تأوهات اللذة، أسمع جرجرية.. سماهيل.. الـــضم، اللـــثم، نشيد النونوة، وربما إضافات أخرى، مثل نهر العسل وكـــيف يغـــرف، أرائك المخمل، وكيف يتكأ عليها، وأكاد ألمح وأنا أحـــدق فـــيه، على ضوء فانوس مترافص، جمعاً من الولدان المخلدين، يرصـــون مائـــدة عشاء فخمة. دخل التقلاوي أولاً، وكان ناقصاً، بلا ســـيف ولا صـــقر، ولا جلافـــة. تـــبعه اليمني جبّار القرنين لا يحمل (كـــاروره) المـــشؤوم، ولكن فانوساً صدئاً شحيح الضوء. وقفا عند رأسي وانتصبت واقفاً، وانتصب المصَّاص، وأرى وجهه النحيل مرتعباً، وعينيه الضيقتين تتحاومان، ولا تحطان على شيء. كان بلا شك خائفاً مـــن مـــساءلته عن استضافتي في خيمة الشهداء، ولم أكن شهيداً لائقاً للاستـــضافة في تلـــك الخـــيمة المميزة. أخبراني برغبة القائد في رؤيتي مـــتجاهلان ارتباك المصَّاص، وما كنت راغباً في رؤية أحد، ودمي ما يزال يتعارك بجنوده، ومنظر الدم والورم والضياع، لا يفارق عينين رأتاه وشبعتا من رؤيته. لكن اللوائح هي اللوائح، والغسيل البرهاني لا يعرف

لغـــة العواطف، والقلوب المجروحة، وما دام الأمير طلسم يريدني، فهو يريدني.

كانـــت الخيمة الكبيرة مزدحمة بالهياكل، الأمير في ثيابه الخضراء المـــرقّعة، ومسبحة الصوفيين، تخب بين أصابعه خبّاً، النصيب، جرسون خـــزي العين القديم، أخو الجميلة الخرقاء ذهبية، ورسول المتَّقي الآن، متكـــئاً على إحدى وسائد الريش، وشارته الخضراء شاحبة في الضوء الهـــزيل، العجوز طلحان، تاجر أعلاف المواشي البدوي، الذي يحمل اسم زنديق، موجود أيضاً، ولم أعرف سبب وجوده في ذلك الليل، وفي معـــسكر زاره مرة ليفسِّر لوحة القضاء والقدر، ويبهر الحاضرين، لكن أغرب اتكاءة، كانت اتكاءة حنداق المجدَّر، قائد سرية الموت الذي لا تـــسمح له اللوائح، برغم وظيفته الجسيمة، أن يمر مجرد مرور أمام تلك الخـــيمة القيادية، تذكرت همس قريبـــي مسمى في أذنه ساعة أن عبرنا الـــسور عائـــدين، وخفت أن يكون قد سمي أميراً بالفعل، ليضيف إلى بهـــارات الجهـــاديين طعمـــاً مرّاً جديداً. وفي ركن بعيد من الخيمة، شـــاهدت هيكلاً نحيلاً لرجل ملثم بوشاح من التيل الأحمر، على رأسه طاقية من السعف الملون، ومن صدره تتدلى سلسلة نسجت حباتها من أسنان التيوس. عرفت فيما بعد، وحين دققت النظر، إنه المجنون الشهير مخلـــوف، وقـــد اهتدى إلى معسكرنا، باعتباره منبع أخشاب النار التي يـــبحث عـــنها، ليصنع سفينة نوح، ولم يكن بالإمكان كنسه من أي جحـــر ينحـــشر فـــيه، لأنه كان يحمل صك عفو واحترام من المتَّقي، باعتـــباره أحـــد الذين رفع عنهم القلم. تماماً كالصبـــي غير المحتلم، والنائم غير المستيقظ.

جلـــس التقلاوي وجبّار القرنين قريبين من جلسة القائد طلسم، وظللـــت واقفاً متصلباً حتى بعد أن أمرت بالجلوس، كنت أتبع التعاليم

الـــتي زوَّدني بها جبّار القرنين يوم سحبت من خيمة الطبخ، وعيِّنت في وظيفتي الجديدة. تلك التعاليم التي تأمر التابع بأن يظل واقفاً في حضرة قائده، حتى وهو في لحظة حداد أو موت أو مصاب بطعنة سيف.

الذي حكي في تلك الجلسة، وضخَّته الحلوق الطرية واليابسة معاً، كـــان كـــثيراً، والذي خرجت به وزاد في ألمي واحتمال أن أسقط من وقفـــتي المتصلبة، كان قليلاً. فقد اعتبرت حادثة اختطاف المجاهدة ضو القـــناديل من بيت عسلها في حي أرض الكوثر، ونحر عنقها بالسكين، وإلقائهـــا في (بركة الشيطان)، التي كانت فيما مضى، سرداب ساحة المجد غير الآمن، واستغلت لدفن وسخ المدينة المكنوس بعد الغزو، جريمة خرجت عن تعاليم الجهاد الحقة، نفذها متهورون ورعاع لم يؤمروا بها أبداً.. قيل إن المتَّقي دمع صوته، وهو يرثيها بقصيدة سماها (موت ناي الحماس)، و لم يكن شاعراً من قبل، أشار إلى إن الماضي القديم كان قد امَّحى بالحاضر الجديد، وصاحبة خزي العين القديمة التي جاءت كأخت للثورة، وحملت راية المرأة، تعلم أخواتها أمور الدين والدنيا، قد غسلت نفسها بنفسها، وأنا على ذلك شهيد، لكن لا راد لقضاء الله، وما نملك من أمر أنفسنا شيئاً.

الخلاصة..

حـــنداق المجـــدَّر، لم يسم أميراً في الواقع، ولكن اتكاءته تلك في مكـــان ممـــنوع، كانت اتكاءة شاهد استأذنوه قبل أن ينـــزعوا الباب ويدخلـــوا، اتكـــاءة راوية بلا عواطف، راوية غير عادل شاهد المأساة كاملـــة، من دون أن يظن إنها مأساة، وفي جبل الكردوس حيث نشأ، كانت المرأة تذبح ببرود، لأنها طبخت عصيدة (الكول)، والزوج يريد عـــصيدة (المرس)، في ذلك اليوم، وتأتي غيرها لتصنع المرس على نفس النار، ولا أحد يبالي.

رسول المتّقي، النصيب، جاء يحمل تعزية سخية، وعرضاً من قائد الجهاد بأن أحكم إن كنت أريد (دية الدم)، باعتباري زوجاً للمغدورة، ووليّاً لأمرها، أم أريد العفو، وهو خير الإيمان.

طلحان العجوز، لم يرسله أحد في الواقع، ولا كان مؤهلاً ليرسل في ذلــك الشأن، ولكن كان متحاوماً في المدينة يبيع ويشتري في سوق الجهاديين، وسمع بالمأساة ساعة انتشارها المرير في السوق، وجاء بسيديه الحكيمين، الشعر الأبيض، والفم القاحل لإبداء النصح، ولم يرد القائد طــرده، لأن هــباته من العلف لساحة الرعي، لم تنقطع أبداً، يرسلها بانــتظام، ولأن الثــناء على المتّقي لا ينقطع أبداً عن لسانه، حتى وهو يستخدم ذلك اللسان للعق الشفتين أو تقليب الطعام.

مخلوف المجنون، مجنون فقط.. يحمل صك عفو واحترام.

الــتقلاوي ديدام مساعد القائد، يملك صلاحية التواجد حتى في الأحلام، وجبّار القرنين، قريب من الخفايا، ومنسق للصغيرة والكبيرة، في مجتمع الكتيبة البائس المحدود.

الخلاصة..

ذهبت الملكة التافهة الحبيبة نديمة مشغول بلا رجعة، وذهب خزي العــين الفريد، حتى لو عادت السور التي نسيتها الحكومة العاصمية، أو تناســتها، أو تخطــط لتحريــرها، لا أدري. لم تكن ثمة ضرورة لتلك الجلــسة الليلية، تحت ثقل الكآبة، ولا لسيدي طلحان الحكيمين، ولا لــرواية حنداق غير العادلة، أو روايتي المضطربة الخائفة.. لقد عفوت.. ممسكاً بخير الإيمان، وتلك النظرة الشبعانة التي تجشأت في وداعي، كأنها كانــت تطالــبني بذلك.. عفوت، وكانت سخرية عظيمة، أن أبكي حورية لم تكن حوريتي في يوم من الأيام، وأعفو عن جلادها وأنا واثق تماماً، إنه لم يكن الجلاد الحقيقي، ولكن الأمر برمته، نص رهيب كان

يمكـــن أن يمثل وينتهي في قرية أباخيت، لكنه الآن خرج عن السيطرة. حتى عن سيطرة المتَّقي.

سمعـــت القائد يهنئني بقوة الإيمان التي انتقيتها، والتي لا ينتقيها إلا مؤمن حقيقي.. سمعت طلحان العجوز يثني على المتَّقي، ثم يحتج بشدة علـــى قـــبولي العفـــو بسرعة، ومن دون أن يبدي رأيه ورأي سيديه، وشاهدته يشير إلى شعره وفمه، والقائد يسكته بلطف، والمجنون مخلوف ينـــزع لثامه وملابسه، وطاقية السعف وسلسلة أسنان التيوس، يهزهز عورته في توتر، ويسأل عن خشب النار حتى يصنع السفينة، وأظلمت عيناي وخلتني أسقط فجأة في بئر سحيق.

- 5 -

لم تكــن هي خيمتي الصغيرة الجرداء، تلك التي أفقت فيها، ولا خيمة القائد الكبيرة المرتبة، ولا خيمة الشهداء التي تحوي جريحاً متلذذاً محتــضراً، ورائحـــة مسك نفاذ وبخور صندل، ولكن خيمة أخرى لا أعــرفها و لم أشاهد تفاصيلها من قبل. كانت صغيرة ومنخفضة، ومن قمـــاش أصفر كئيب وممزق من ذلك النوع الذي يستخدم للوقاية من المطر، ويقتنيها الأعراب عادة، حيث تساعدهم على الترحل في أزمان الخريف. كان الوقت عصراً كما أعتقد، لأن شمساً خابية، كانت تطل بــنورها عــبر الشقوق الواسعة للخيمة، ولأن نسمة ليست باردة ولا حارة، كانت تأتي لتلفح الوجه من حين لآخر.

كـــان طلحـــان العجوز لدهشتي الشديدة، باركاً بالقرب مني، يتنفس في سعادة، يشير إلى رأسه، وفمه الكهف، ويخبرني بفخر بعد أن تأكـــد من استيقاظي، وأثنى على المتَّقي ثلاث مرات، إنه أعادني للحياة مـــرة أخـــرى بعـــد أن مـــت، وشبعت موتاً، بفضل هذين السيدين العظيمين، الذين أرشداه إلى عرق للحياة في عنقي، ظل يدلكه بما تبقى من طاقة العمر يوماً كاملاً حتى استعاد وظيفته.

تلـــك اللحظـــة، وبرغم تشوشي وانطفائي، وإحساسي بالعطش الـــشديد، اســـتطعت أن ألم كـــل كره أعرفه، أوظفه في ازدراء ذلك الـــبدوي الـــذي أعـــادني للحياة، إن كان صادقاً، وكنت أثناء هبوط حواسي في البئر السحيق، في خيمة القائد، قد استطعت أن ألم ابتسامة

ما، ابتسم بها، ابتسامة شبعانة تجشأت بها، وإحساساً مترفاً باليقين بأنني قــد تخلــصت مــن كــل أعبائي، تخلصت من تبعية القائد وشهواته وكوابيسه، من حب خميلة البنفسجية، من توتر القلب وهو يعشق وهو لا يعشق، والأهم من ذلك كله، تخلصت من وطأة الحرب، حين تقوم الحرب وتشردنا من جديد. وكان أشد ما يحيرني في الأمر، أن ينغمس بــدوي في التجارة، والبدو الذين عرفتهم طوال حياتي أثناء تجوالي في مــناطقهم أو قدومهم للمدينة، ليسوا تجّاراً أبداً، وإنما أصحاب رعي، وأن يــنغمس في الطب والشفاء، ولا سمعت به الأمراض من قبل، كما سمعــت بــودعة المــصّاص، وأن يقيم في كتيبة معذبة بطيف الحرب، تنتظرها وتستعد لها، ولم يكن محارباً ولا حتى غبار محارب، ولن يكون. بــدوي يحمــل اسم زنديق وصك مرور من المتّقي إلى كل بقعة فيها فجــيعة أو غليان دم، ولكن ليس صك مرور إلى قلبــي العليل أبداً. ســأرفض بقاءه معي حين أكون قادراً على الرفض، سأعثر على عرق الحياة في عنقي وأوقفه بأصابعي.

كــنت أتخيل قصة طويلة ستروى ذات يوم في خيام البدو، في تلك الأصقاع التي كنت أزورها بحثاً عن رماد الثروة، قصة الحكيم الــذي أعــاد إلى الحياة قبطياً مهتدياً، وتابعاً لقائد من قادة الجهاد المهمــين، بعد أن مات بالفعل. أتخيل ختم المتّقي على صك المرور الأصفر، وكيف يستخدم هناك باعتباره صك مرور إلى الجنة، وربما توصــف جلــسة متخيلة ضمت العجوز بقائد الجهاد، وتدلق فيها أوصــاف، لم يــشاهدها أو يــصفها أحد حتى الآن. كان طلحان العجوز، هو مهووس المسنين بلا شك، (مقهور) المسنين، ذاك يدعي بنوّة المتّقي ويحلم بها، وهذا يدعي أبوة الثورة، ويؤكدها بالثناء على المتّقي، حتى لو لم يذكر المتّقي.

فجأة أحسست بالشوق الشديد لصديقي المصَّاص، تمنيت لو كان هو الذي داواني وأعادني للحياة، وليس ذلك العجوز المهووس، ساعتها كنت سأحب الحياة، لأنها عادت بعد اجتهاد من صديق أحبه ويحبني. لكــن ماذا كان مرضي الذي سقطت به تلك السقطة المفاجئة؟.. ماذا كان يا صاحب السيدين الحكيمين؟..

يـــثني علـــى المتقـــى.. أعـــزه الله.. أكرمه الله.. ويشير إلى السيدين:

- كان ورم النفس يا تابع القائد.

- ورم النفس؟

كـــان اسماً شبيهاً بالتخمة الكاذبة، ذلك المرض الذي فتك بأحياء الفقـــر كلها، واقترب من أحياء الثراء والنعمة، أيام إرهاصات الغزو، وصـــلف الـــتجار، وتجلط السلع الضرورية في المخازن، قلبته في ذهني المـــتوعك عـــدة مرات، ولا تذكرت إنني سمعت به من قبل. أن تتورم المـــصارين بغازاتهـــا الكثيفة وتنفجر، تتورم قدم الملكة الحبيبة التافهة، بالإجهـــاد الوحـــشي ســـاعة أخذها للذبح، تتورم الخباثة في الجسد، وتصبح ورماً خبيثاً، ولكن كيف تتورم النفس؟

كـــنت بلا وعي مني، قد منحت العجوز سكة للرغي، لم تجهدني فقـــط، لكـــنَّها كـــادت أن تميتني من جديد.. كان يثني على المتَّقي ويحكـــي.. ورم الـــنفس مرض قديم في هذه الأنحاء، جاء مع رحلات الأوروبـــيين المستكشفين ومن تبعهم من الأوغاد الزناة، وتبدأ أعراضه بضيق التنفس وزوغان العينين، ورعشة اليدين، ثم الغيبوبة التي قد تؤدي إلى المـــوت أو الـــشلل التام، وهو لا يصيب إلا الكفار فقط، ولعلك المؤمن الوحيد الذي يصاب به.. إنها معجزة.. و..

اسكت.. اسكت أرجوك يا شيخ..

وجـــدت نفسي انفض الوعكة بجنون، وأهب راكضاً إلى حنكه العجـــوز الذي يضخ الكلام مبتوراً بلا أسنان ترممه، ولكن يكاد يفهم حـــتى عـــند أكثر العقول غباء.. لن أخرج أبداً من لائحة برهاني، إذا تـــرددت كلمة الكفر والكفار في مكان يسمعها ويعاود روايتها، حتى تـــصل إلى سمع القيادة، أموت بإيقاف عرق الحياة في عنقي، ولا أعود للغـــسيل، وقـــد رمـــيت عليه حفنة من التراب يوم زفافي المنحوس، أرجـــوك.. كنت أستعطفه بضراوة، ناسياً كرهي الذي لمته من كل مـــصائب الدنيا، لأكرهه به. لا تقل ذلك يا شيخ طلحان.. لا تقل.. وفي اللحظـــة التي سكت فيها عن الضخ، وبدا مستعداً لسماعي، بينت له ما لم يكن يعرفه من أمور الكتيبة وتعاليم الجهاد، وقد انحشر في النار غشيماً ومهووساً.. وضَّحت له معنى الشبهة والاشتباه والمشتبه في أمره، وكـــيف ضاعت عروسي الحورية يوم زفافها، بسبب تلك الكلمات، قلـــت له إن الغسيل لا يقتل مرة واحدة، ولكن مائة مرة، ولكي أزيد من هلعه، وأعجل برحيله عن ذلك المعسكر، أخبرته إنهم يغسلون حتى الثـــرثارين العجائز، والذين فقدوا العقل، والعميان والطرش، ويمكن أن يغـــسلوا حتى الأحلام لو طالتها الشبهة، وصك المرور الذي يحمله من الإمـــام المتَّقـــي ويـــزهو بحمله، ربما يعفيه من القتل بالسيف، والطعن بالحـــربة، والرمـــي في النار التي تشتعل، ولكن ليس الغسيل بالعناكب والجـــرذان الميتة، وشد الأماكن السرية حتى تنخلع، وكنت مستعداً لأن أخلع قميصي، أريه آثار ضب الصحراء الذي عشعش وتناسل في جحـــر أنـــشأه في عظمي الفقاري، مستعداً لأنـــزع سروالي، أريه خـــصية مـــا تـــزال بحجم قلة الماء، لأخذه سراً إلى حيث دفن ولهان الخمري، ودفنت متعلقات المرتد مقهور الذي ادعى بنوة المتَّقي، وطعن حارساً للرعي وتلاشى.

لم يكن طلحان العجوز يعرف بيت الغسيل بالرغم من أنه أشرك سيديه الحكيمين في محاولة اكتشافه، وظنه مرحاضاً مخصصاً لوسخ القادة الكبار، حين شاهد بنيانه، و لم يكن قد اقترب من برهاني كثيراً، وكان في نيته أن يصادقه بقوة، ويقاسمه الربح، حين اعتقده تاجر سلاح فولاني، يتجول في معسكرات الحرب، كنوع من التسلية.

كان العجوز قد حمد، ولعله تذكر كلمات أفلتت من فمه ذات يوم في وجود صانعي القرارات، وتعتبر شبهة قد تؤدي لغسيله، شاهدت سيده الفم ينفتح وينغلق، سيده الشعر الأبيض، كأنما ازداد بياضاً، وسيديه معاً كأنما أصيبا برصاصة لم تمتهما، لكنّها أصابتهما بالدوار. و لم أرحمه، اخترعت له قصة، حشرت فيها اسماً لعجوز غسل ذات مرة لشهرين كاملين في بيت برهاني، لأنه كان يثني على المتّقي وشم الحاضرون ريحاً، اشتبهوا بأنها خرجت من تحته، وخرج من الغسيل كسيحاً، ربط على ظهر ناقة، عوت به في الصحراء.. و لم يسمع به أحد بعد ذلك. إنه باهل يا شيخ.. ألا تعرفه؟.. وكان من قبيلة ثعلبان التي تقيم أقصى شمال السور.. ألا تعرفه؟

والواقع إن باهل الثعلباني، كان بدوياً تعرفت عليه أيام وظيفتي السابقة في تقصي الثروة، وكان قاصًّا للأثر، يتتبع حتى آثار غازات البطن، ويخبرك إن كانت ستخرج، أم تبقى في البطن مغصاً، ومات منذ عامين بالحمى وليس من شيء آخر.

ذلك اليوم، تخلصت تماماً من وعكة العجوز طلحان، الذي اكتشفت بأنه هو من نصب تلك الخيمة الصفراء الممزقة، بجوار خيمة الطبخ، ليقيم فيها، وكان قد أتى بها من مدينة السور، حين انحشر حكماً غير مدعو في أمر موت الملكة. قلت شهيته للكلام، وبدا مرتبكاً وربما خائفاً، مد يده اليمنى إلى أذنيه، قرصهما بعنف، وحاول أن

يمسك لسانه الجاف، ويقرصه أيضاً. رفع نعليه المصنوعين من جلد شاة مرقطة، نفضهما مراراً أمام وجهه، وحين جاء التقلاوي وجبّار القرنين، وصحباني إلى خيمة القائد حتى يراني حيًّاً من جديد، ذهب معنا. وكان ذهاباً فقيراً برأس منكس، وعينين زائغتين، ترتميان على بيت برهاني الذي كان يطل برأسه من خلف خيمة التقلاوي لحظة وتنسحبان. جلس بعيداً قليلاً عن القائد، وجلست بحكم مرضي الذي منحني إعفاء مؤقتاً من وقفة التابع المتصلبة. لم يكن المجنون مخلوف موجوداً، ولا بد ذهب حين لم يعثر على أخشاب النار التي ستصنع السفينة، وقد يعود في أي وقت ليبحث عنها مجدداً، وكان مشرف الغسيل برهاني موجوداً بالصدفة، مدججاً بكامل زي القائمقام، ويحكي عن جندي من سرية راميي القوس والنبال اسمه (ورورار)، حاول الهرب من المعسكر، ويغسل منذ شهر كامل بكل طرق الغسيل، من دون أن يشع منه نور.. والقائد يحثه على استنباط ذلك النور بأقصى سرعة، لأن الحرب قد تقع في أي لحظة، ونحتاج إلى ورورار بيننا، فقد كان ولداً بارعاً ويجيد الرمي، كما لا يجيده أحد.

دوى الصوت العريض للقائد عبَّادي طلسم، وكان يوجهه إلى طلحان العجوز، متجاهلاً وجودي:

- كيف استطعت مداواة سعد المبروك يا شيخ طلحان؟

لم يثن على المتّقي أبداً، ولم يشر إلى الشعر والفم الكهف، وكان رده اجتهاداً مقتضباً، يضع كل كلمة في مكانها من دون بتر..

- داواه رب العالمين أيها الأمير.. وما نحن إلا وسائل.

- أحسنت يا شيخ طلحان.. لكن كيف تعلمت مهنة الطب؟

لمحت شبح ابتسامة على فم القائد، وكان أول شبح ابتسامة أمسك به على فم ذلك القائد الخشن من يوم أن انضممت إلى كتيبته

طـــباخاً وتابعـــاً، حمّال سوق أبـــي جهل القديم، الذي عاد من غيابه أميراً.. وأتبعه أنا جامع الثروة وابن جامع الثروة.. كان يريده أن يشير إلى رأســـه وفمه بلا شك، لكن العجوز لم يفعل.. هي رعدة ارتعدها وحكـــة لرأسه، حكها، وغمغم في صوت خفيض وأيضاً مرتب، كأنه يخشى أن يصير شبهة إذا ارتفع به أكثر، أو بعثره أكثر:

- لـــيس طِبَّاً في الواقع أيها الأمير.. ولكن تخاريف بدو.. تصدق حيناً.. وتخيب أحياناً.

- تواضعت كثيراً يا شيخ..

ردد القائـــد، الذي كان ما يزال تحت انبهار تفسيره القديم، لمعنى الـــريش وكلمة القضاء والقدر أعلى بيت الغجرية، حتى بعد أن ذهبت الغجـــرية، والواقع.. لم يكن تواضعاً ما ضخه الشيخ باقتضاب، ولكن خوفاً لن يستطيع القائد أبداً أن يعرفه أو يعرف أسبابه.

جـــيء بقهـــوة حارة من خيمة الطبخ، حملها العسكري الطباخ زمـــزام، شـــربها جرعة جرعة، من دون ثناء على المتّقي، جيء بالغداء الـــذي كان شاة كاملة، سلقت بأظلافها وجلدها على النار، أكل منه مـــن دون ثناء، تشعب الحديث عن التجارة في زمن الحرب، وتحدث بجمـــل شحيحة، عن الأعلاف باعتبارها تجارة ليست رابحة تماماً، وقد يتركها ويعود إلى مضارب قبيلته، يعاود رعي الإبل، ويساند الثورة من هـــناك، وحين أذن لصلاة المغرب، وناشده الأمير أن يؤم المصلين لأنه أحد آباء الثورة الكبار، تقهقر إلى الخلف، مفسحاً المجال للشيخ مفتاح الفلاح، الإمام الرسمي للكتيبة، وهو يردد..

- لا يمكن.. ومفتاح العلم والفلاح بيننا.

في الـــيوم الـــتالي كنت قد استعدت نشاطي كاملاً، وعدت إلى خـــيمتي القديمـــة، وتبعـــيتي للقائـــد وتجهيز وضوئه وثيابه، واحتلاب

كوابيسه. استطعت التجول في المعسكر من دون أن أترنح، وزرت خيمة الطبخ لأتلقى العزاء من زملائي السابقين، الذين مضى حسدهم وتلاشت غيرتهم تماماً، حين عدت إلى المعسكر أرملاً من زواج لم يدم سوى عدة ساعات. عرجت على خيمة الشهداء ليراني المصَّاص حيًّاً، ويمنحني صدر البكاء النحيل، وأيضاً لأسأله إن كان قد سمع بعرق اسمه عرق الحياة، ينبض أو يتوقف عن النبض في عنق أحد. كان المصَّاص موجوداً بطبيعة الحال، غارقاً في لبخات النباتات، يعجنها ويلصقها على جرح لم يتغير لونه ولا عمقه ولا تغيرت رائحته النزقة أبداً وقد مضى عليه زمن ليس بالقليل. وكان الشهيد سماهيل يغلي بالحمى اللذيذة التي باتت إحدى سمات مرضه، لا يقبل أو يضم (جرجرية) هذه المرة، وإنما حورية أخرى، اسمها (العازة)، أخبرني المصَّاص، إنها ربما تكون العازة، ابنة شيخ قبيلة آل شكر، حيث ينحدر الجريح، وكانت دميمة وعجفاء ومتسلطة، لم تحب أحداً، أو يحبها أحد أبداً، لكنه غير واثق. لم يكن قد سمع بعرق الحياة من قبل، وأخبرني وهو يمد يده ويمسك عضلة متصلبة على عنقي، إنه ربما يكون هنا، تحت هذه العضلة، لكنه غير واثق أيضاً. لم يبد رأيا في طب طلحان العجوز، وكان قد رآه غباشاً كما رآه بقية الجنود الذين لا يستطيعون الاقتراب من حيث كان يجلس ويثرثر.

في وقت الظهر بالضبط، الوقت التي تسود فيه الشمس مانحة ظلالاً هشة للخيام البائسة، وساحبة أي لفحة من هواء قد تلفح، كانت ثمة ناقة تجهَّز على عجل، توضع عليها تلك الخيمة الصفراء الممزقة، وعدة أغراض أخرى، من بينها خرج الزاد الذي يحتوي في العادة، على تمر وعسل وأقراص ذرة يابسة، ويعتليها طلحان العجوز، فاراً من وهم الغسيل الذي رسمته له، ولا بد أقلق منامه وعجل بذلك الرحيل، رأيت التقلاوي بكامل لوحته.. لوحة السيف والصقر، واليمني

جـــبَّار القـــرنين، يودعانه عند ساحة الرعي، وأشرت له بيدي مودِّعاً، لكنه لم يلمحها. كان متعجلاً بشدة، ورأيت نعاله التي من جلد الشاة المرقطة تسقط من علو الناقة، ولا تبرك الناقة ليلتقطها.

الفصل الخامس

توترات أخرى

- 1 -

عدنا إلى سيرة النعناع مرة أخرى، وبعد مرور أكثر من شهر على انطفائها، أو تعليقها إلى أجل غير معروف، بسبب أيام حزني وحدادي الـــتي احتـــرمت كما يبدو من قبل القائد الكبير، لكنَّها كانت عودة مبعثـــرة في الواقـــع، بعثرهّا مستجدات أخرى حدثت في تلك الأيام، وكانـــت بعيدة عن التوقع وقريبة منه في نفس الوقت. فقد أصبح أمر وقـــوع الحـــرب بيننا وبين الحكومة العاصمية في حكم الوشيك، وقد ازدحمت خيام الكتيبة، والكتائب الأخرى، ومدينة السور، وما جاورها مـــن القـــرى والأرياف، بآلاف النازحين الذين قدموا من قرى ومدن الوسط، فارين من احتمال الحرب، ويصفون جيشاً جبّاراً قوامه عسكر نظـــيف ومـــرتب، يتـــرحل في تلك الأماكن ويقضي على الأخضر والـــيابس، لم يـــشاهد أحـــد ذلك الجيش في الحقيقة، لكن الإحساس شـــاهده، الخبرة في التقصي شاهدته، الطيور عكست رحلاتها المعتادة، الجراد بدا هزيلاً وبلا لحم، والأمطار شحَّت على غير العادة. كان بين أولـــئك الـــنازحين، مـــزارعون صلدون، ورعاة قطعان حفاة، ونساء وأطفـــال، وشـــيوخ مسنون، بعضهم حصد غلاله على عجل، وجاء يحملـــها على ظهر راحلته، وبعضهم لم يجد حتى راحلة تحمل الأسى، فجـــاء يحمله ماشياً. كانوا يستجيرون بالمتَّقي وثورته، يطالبون بالنصرة ولا يدرون أين النصرة، لا يسخطون علناً على تلك الثورة التي ساهمت في أزمـــتهم، لكـــن السخط كان واضحاً في بصاق النظرات، وهمجية

السلوك، وتساؤلات بأصوات خفيضة من عدد من النساء المسنات، والصبيان الذين خنقوا مراهقتهم، ونزحوا.. تساؤلات عن معنى الثورة، والبلاد كلها خير، والخريف لا ينقطع إلا نادراً، والبهائم ترعى وتدر اللبن، وأولياء الله الصالحون، مدفونون في كل شبر من الأرض، ويحرسون الناس.

الظلم والطغيان يا شيخة..

الكفر والإلحاد يا أمي..

المستعمر اللئيم وأذياله الخبيثة يا ولدي..

يتفانى الأمير عبَّادي طلسم في الإيضاح في ساحة الخيام الممتلئة الفائضة بالعرق واللهاث، والتساؤلات، ولا تفهم الأم معنى الكفر، ويوجد رمضان شهر اليمن والبركات، والشيخ (المديد)، وضريحه الذي يشع نوراً، والحج الذي يتوفر لمن استطاع إليه سبيلاً، لا يفهم الصبيان معنى اللؤم والخباثة، وبيوت القرى مفتوحة على مصراعيها لا تصد أحداً، وعادات السر تمارس في كل وقت، لا يرجمها أحد.

فحيح الكارور من حلق جبّار القرنين، لغة تلم الجنود حين لا بد أن يلتموا، ولا تستطيع حتى أن تلم شعراً منكوشاً على رأس امرأة، ولا بكاء مدلوقاً من مصارين طفل، أو دمعاً سخياً يسيل على خد شيخ. أعلنت حالة الطوارئ، بمعاونة رسل المتَّقي الذين كانوا مبعثرين في كل معسكرات الكتائب، النصيب جرسون خزي العين القديم، أخو ذهبية الخرقاء الجميلة التي ماتت برفسة حمار، قريبي مسمى – عكرمة الضراب، صالح الخزندق، بائع الترمس القديم في ساحة المجد القديمة، آخرون لا أعرفهم و لم أسمع بهم، يجيئون بالرسائل التي تعد بالانتصار قريباً وغرس الراية الخضراء في قلب منبع الكفر، ويرحلون بوصف لغة عصية على الوصف، وبالنسبة لمعسكرنا، معسكر كتيبة صقور، فقد

نصبت على عجل، تلك الخيام البدوية الصفراء التي جيء بها من السور علـــى ظهور الدواب، نصبت على مسافة بعيدة نسبياً من خيام الجند، وتم إيـــواء النـــساء والأطفال، والذين بلا مروءة من كبار السن فيها، وبفراسة اليمني جبّار القرنين، تم انتقاء عدد كبير من أولئك النازحين، باعتـــبارهم مشاريع مجاهدين يمكن أن يساهموا في انتصار الثورة، عين بعـــضهم حرّاساً لعورات أهلهم الحريم، حتى لا يسعى إلى كشفها أحد مـــن الجـــنود الممتلـــئين بالغرائـــز والرغبة، والمقيدين إلى بنات حور مؤجلات، وبعضهم تم تدريبهم على عجل، وحشروا في وسط السرايا، مقاتلـــي مـــوت، أو راميـــي أقواس ونبال، أو حتى طباخين يرأسهم العـــسكري زمـــزام، في حـــين ظلت سرية جبّارين، حاملة دم الأمير الفولاني، نقية لم يحشر في دمها دخيل، بالرغم من ازدياد أعبائها، حيث لم تعد الحراسة أمراً سهلاً، وبالقرب من معسكر الجفاف روائح أنثوية، حتى لو كانت روائح جدات، أو بنات صغيرات، أو أمهات مذعورات وبـــلا طعم. كنت ألمح جبريل لالو، قائد سرية جبّارين، وقد طال إلى علـــو شجرة تبلدي صارمة، تطالع الفوضى في صمت ولا تتنهد، ألمح حنداق المجدَّر، قائد سرية الموت، يعارك الهواء بيديه، وأكاد أسمع صوت الهـــواء يتكسر، واقترح القائمقام برهاني، على القائد أن يمده بمساعدين جـــدد ينتقـــيهم هـــو من بين أولئك النازحين، ويوسع من رقعة بيت الغـــسيل حـــتى يماثل النبع الكبير، لأن الفوضى في العادة منبعاً شرساً للـــشبهات وبيـــته المتواضـــع، لا يستطيع تحمل العبء، وكان أن بدأ المجندون بالفعل في إضافة ملاحق جديدة لبيت الغسيل، وانتقى برهاني صبيين فارعين، شاهدهما في ساحة الرعي، يغافلان الحارس الجديد الذي خلف الشهيد سماهيل، يذبحان حماراً مسكيناً، يشربا من دمه، يصنعا من أحشائه كرة مملوءة بالقش، ومن عظام ظهره عصياً يجلدان بها القطيع،

عيَّنهما مساعدين لا جدال في صلاحيتهما لتلك الوظيفة. وكانت أكثر الأمـور صـعوبة، تلك التي واجهت الكتيبة، حين اكتشف عدد من المتلصصين وسط أولئك النازحين، شهيداً بجرح نـزق، يتلذذ بالحمى، ويعاشـر الحـوريات، في تلـك الخيمة المميزة برائحة المسك، وبخور الـصندل. هجمـوا على لبخات المصَّاص النباتية، وخرقه التي تغطي الجـرح، وبدأوا يعبون من السائل الأصفر القاتم الذي ينـز بكثلفة - يلحسون منه، ويمسحون به على وجوههم وأجسادهم، كنوع مميز من البركة لا يتوفر كثيراً، بينما الشهيد سماهيل، غارقاً في فراش جرجرية، والعـازة، وصـابرة وأم جدائل، يضفر رعشة تلو أخرى، وما لبث أن تـبعت أولئك المتلصصين، بعض النساء المسنات، ونساء شابات عقرن عـن الإنجـاب برغم زواجهن الطويل، كن يتمسحن، ويسألن سائل الجرح الأصفر في توسل، أن يهبهن العيال. كان المصَّاص مذعوراً كما أخـبرني بعد ذلك، نشف ريقه وتسارع قلبه، وكادت تتحطم إحدى ضـلوعه مـن عراك النازحين وإبعادهم عن الجرح، وكان أن زودت خـيمة الشهداء بعد ذلك بحراسة دائمة من أفراد سرية جبّارين أيضاً، والـذين وعـد الأمير قائدهم جبريل لالو، بزيادة عددهم، حين يلتقي بالملـك زكريا أبو كلام، زعيم الفولانيين الذي يجاور المتَّقي في مدينة السور، كمستشار عرقي، يفهم في القبائل وأمزجتها.

كان مسمى طاؤوس - عكرمة الضراب، هو من أتى يحمل رسالة المتَّقي التي وضَّحت التغير الكبير في استراتيجية الثورة، هبط من حصانه الرمادي المرتفع، شارة الرسول تلمع على صدره، وقلم الشعراء خلف أذنـه، طالعني بضغائن كبيرة وهو يحدث القائد، وهو يحتسي الشاي، ويأكل من لحم الخروف المشوي، لكنه لم يقل شيئاً. كانت الأوامر قد صدرت لكل الكتائب المتمركزة في الأطراف بالتحرك في اتجاه الوسط،

لملاقـــاة الجيش الحكومي القادم، ودحره و لم غنائمه وسبــــي نساءه إن كـــان فـــيه نـــساء، بيـــنما تبقى كتيبة صقور التي ننتمي إليها، ويقع معسكرها قريباً من مدخل بوادر الأكثر طرقاً، والذي لا بد موجود في خرائط الحكومة العسكرية، عيناً ساهرة، تحرس السور من كل متسلل قـــد يتسرب من الجيش الهالك ويقترب. وقد استقبلت حلوق الكتيبة، ذلك الأمر بالهدير والهتاف، وأعلنت كل السرايا بلا استثناء، وهي تلتم في الـــساحة الكـــبيرة على فحيح الكارور، استعدادها التام لتولي تلك المهمـــة الـــتي كلفت بها، وأصبحت كلمات الثناء على المتّقي، هديراً عاديـــاً، تسمعه في كل لحظة، وكان يذكرني بطلحان العجوز الذي فرّ خوفاً من ذلك الثناء بالذات، ولا بد كان سيساهم بشدة في إيقاده، لو لم أزين له سكة الخوف والرحيل.

تلـــك الأيام ذهبت مع القائد طلسم إلى مدينة السور مرّة، عبرنا الخراب والشوارع المتأججة، وشاهدت أحبار الذكرى والتاريخ تكنب المـــوت بكثافة أكثر، وقد أضيفت رسوم جديدة، بعضها يتخيل المتّقي شيخاً بظهر محني وبعضها يتخيله طفلاً في المهد، على فمه بصقة كبيرة وابتـــسامة شـــيطان، لكن سيرة الملكة نديمة لم تكن موجودة لدهشتي الشديدة، ولا بيَّنها رسم وهي بلا عنق تموت في بركة الشيطان. توقفنا عند خزي العين المظلم، المفخخ بالحراسة والمدهون بالأخضر الزرعي، كمـــا وصـــفه المـــصَّاص، وبكيت سراً وأنا أتذكر سيدته، وريفييه، وجرسوناته، وفوانسيه ذات اللهيب المتراقص، والبكباشي صبير بشعره المـــصبوغ وقلبه المحطم، وأغنية اسمها الحمام، طارت ذات يوم ولن تحط إلى الأبد.

كـــان حوش المقهى مزدحماً بالدواب، أحصنة وحمير، وإبل عليها غـــبار سفر، وعدة رجال يحملون شارة التابع الخضراء على صدورهم،

محنـــيون بجوار حميرهم وكأنهم يغازلون الأرض. أمرني القائد بانتظاره خارجـــاً ودخل مسرع الخطى، واقتربت من أولئك الأقزام أتأملهم في تعاطـــف، وأجـــد نفسي ارتمي بغتة على صدر اليهودي عوزي إيزاك، تاجـــر الـــذهب الكبير الذي تحول الآن إلى (ساكن المجذوب)، ويعمل تابعـــاً لقائد إحدى الكتائب المرابطة في أماكن أخرى حول المدينة. لم نـــستعد أي ذكـــريات، لأن لا ذكريات كثيرة تجمعني بذلك التاجر المنهزم، ولكن قطعاً تحدثنا في همس عن مدينة السور القديمة، عن حميلة جمـــاري ووالـــدها وأم إيليها التي انتحرت بالسم قبل قيام الثورة بزمن طويل، وفندوري تاجر الخمور الذي ضاع، وأشياء أخرى تلاشت ولن تعـــود. كـــان القـــادة بـــلا شك في حضرة المتَّقي، يتغذون من نهجه ويؤسطرونه، وكنا في حضرة الخراب، نرثيه في همس.

كـــان القائـــد عبَّادي طلسم، قد تضخم بوحشية غريبة في تلك الأيـــام، خاصة حين عاد من لقائه الأخير مع المتَّقي، بدأت كوابيسه، تـــضخ هـــزياناً كثيراً، عن تعيينه أميراً عاماً للجيش، يتبع له كل أمراء الجهاد، وقد كان المنصب شاغراً حتى الآن لم يسم أحد ليشغله، سمعته مـــرة في أحد الكوابيس الليلية، يتحدث مع المتَّقي شخصياً، يسميه أبا حمزة سيدي، وكانت المرة الأولى التي أسمع فيها بكنية المتَّقي، إن كانت هي فعلاً كنيته، وليست من اختراع حلم مجهض. يقول سمعاً وطاعة أبا حمزة سيدي.. قبلت إمارة الجيش أبا حمزة سيدي.. سأكون عند حسن الظن.. آتيك برأس الإنجليزي رمز الإلحاد. تلك الليلة أرخيت أذني حتى القاع، أمتص بتوتر، أحاول الحصول على تفاصيل أخرى للمتقي، ربما تقفـــز إلى جسم الكابوس، ولعله يكون أحد الذين عرفتهم ذات يوم، هاجـــر إلى أباخيت، تعلم الزعامة، وتضفير ذلك الصوت الحبل، وعاد رمـــزاً، لكن القائد اندحر فجأة للأسف.. قال.. يا نعناعة.. لا تمشي

أثناء النوم يا نعناعة.. انصلحي يا بنية.. انصلحي.. وحين نطق باسمي.. سعد المبروك، كاد عِرق الحياة في عنقي، يتوقف مرة أخرى ليس هلعاً، ولكن سروراً، حتى لو كان سروراً غائماً استقيه من كابوس.. كان يحشرني كشاهد على عرسه من حميلة النعناعة.. وأكثر من ذلك.. كنت ولي أمرها الذي يبارك الزواج، لأنها كانت بلا ولي للأمر بعد أن هلك أولياء أمرها الفعليون، فقد فهمت بأن حميلة النعناعة، لم تكن سبية تطأ رغماً عنها في ليالي اللذة الهمجية، ولكن امرأة حرة عرض عليها الزواج، وتأبى قبوله بشدة. لم أكن في الحقيقة ضليعاً في علم النفس، ولا كان ذلك العلم المعقد، ثقيل الدم، مادة يدرسها المعلم جبير في مدرسته القديمة، لكني أسمع كثيراً عن العقل الباطن، ويوصف بأنه أكثر صدقاً من العقل ساعة وعيه، وتمنيت فعلاً أن يكون عقل الحمّال الباطن في تلك اللحظة صادقاً وشفافاً وأكثر ثراء من عقله الذي عينني طباخاً وتابعاً ذليلاً بالرغم من مكانتي الرفيعة التي يعرفها، وزوجني بحورية لم تكن هي حوريتي. تذكرت طلحان العجوز الذي أخرسته بلا رحمة، تذكرت سيديه الحكيمين، وإنهما كانا سيرصفان لي الحقيقة، لو لم أعجل بذلك الرحيل.

في صباح اليوم التالي كنت كالمجنون، خرجت من خيمتي، والقائد ما زال يحلم، تسللت إلى خيام النازحين الجدد، أسأل واحداً واحداً، إن كان قد رأى عجوزاً متهدماً على دابة في ظهرها قماش أصفر، إن كان قد التقى في لجة الفرار بسيدين حكيمين، شعر أبيض، وفم قاحل، وكان النازحون يصفون كثيرين يحملون تلك الأوصاف، بل كان في خيام الإيواء التي نصبت للمسنين، مئات يشبهون طلحان في كل شيء، لكنهم لم يكونوا طلحان العجوز أبداً، كانوا خامدين وجائعين، أسيادهم الشعور البيض والأفواه القاحلة بلا حكمة، ولا ثناء على

المتَّقـــي. فجـــأة تذكرت واحدة اسمها (جناحان)، كان قد لفت اسمها نظري حين سمعته لأول مرة، وما كان اسماً متداولاً أو غير متداول أبداً، كانـــت أكثر النازحين شبهاً بالعجوز، ويمكن أن تكون هو، لولا حناء كثـــيفة قهرت بها الشعر وحوَّلته إلى نار، فيما ظل كهف الفم طلحانياً خالـــصاً. أخـــذت أبحث عنها وسط تلك الفوضى، حتى عثرت عليها وكانـــت بالقرب من كانون مشتعل، تدفئ يديها الخشنتين بالرغم من أنـــنا كنا ما نـــزال في فصل الصيف، وقلت للتقلاوي الذي شاهدني أجرجـــرها بعـــيداً، حين كان يتفقد النازحين، إنني شممت فيها رائحة فطنة، وأريد تلقينها تعاليم الجهاد، فلم يقل شيئاً، ابتعد وصقره يتسلى بخصيتي طفل عاري، يرجهما ببطء وهو يتهزهز.

أول ســـؤال وجهته للعجوز جناحان حين جلسنا في مكان بعيد، كان عن الفرق بين مغص الرجال ومغص النساء، السؤال الذي طرحته (أم عكـــش) على والدها، وأدى إلى إطعامها لبئر العقارب والشياطين قـــبل أن ينتـــشلها الولد الفولاني صرحي عبد الخير، ويقودها إلى عش الـــزوجية.. لا أدري لماذا وجهت إليها ذلك السؤال بالذات، لكن قد يكـــون الأمـــر فضولاً مني لمعرفة الإجابة التي لم يقلها الأب، ولم تقلها القصة. لم تثن على المتَّقي حين فتحت فمها الكهف.. رددت:

- مغـــص النساء ينتهي بنـــزول الدم.. ومغص الرجال يبدأ حين ينـــزل الدم.

كـــان صـــوتها هو فعلاً صوت طلحان ذا الجمل المبتورة المرقَّعة، وكان ردها سلساً تمنيت لو سمعه الأب، وسمعته أم عكش، وسمعه القائد عـــبَّادي طلـــسم، الـــذي لا يمل سماع تلك القصة، بمجدها الفولاني المختـــرع، ممـــثلاً في الولد عبد الخير. بداية مشجعة يا أمي جناحان.. وأكمل ردمها بأسئلة الفطنة:

- ما الفرق بين مطر الشمال ومطر الجنوب؟
- مطــر الــشمال يأتي بالخير، ومطر الجنوب يأتي بالمرض الذي يقضي على الخير.

كلام طيب أيضاً، وأعرف من خبرتي التي لمتها من الأرياف أيام كـــنت أجمـــع الثروة، إن أمطار الشمال ورياحها تساهم في اخضرار الـــزرع، وإدرار اللبن، بينما تلك التي تأتي من الجنوب غالباً ما تكون رياحاً جافة تقضي على المحاصيل.

- متى يكون الرجل في أشد حالات صدقه؟
- حين يكون نائماً يا ولدي.

أمسكت بالرد (الجناحاني)، كما أمسك على ريح تتحاوم أسفلي في وســـط مجتمع غاص بالشم، كنت أريد ذلك الرد بلا شك، أريده لأصـــدق بـــه الكابوس الكبير، أصدق إمكانية أن تعود جذوة الحب لتـــشتعل من جديد في حطام قلبـــي الذي أزعم بأنه أكثر قلب تحطم مـــن جراء نص أباخيت.. صحيح إنني اعتنقت الدين الذي جاء يحمله النص قسراً، ليتحول داخلي بعد ذلك إلى إيمان حقيقي وفهم لا يود أن يفهمـــه أولئك الذين دخلوا النص وخرجوا عن السيطرة، لكن للقلب أيضاً تعاليمه التي لا أعتقد إن الدين يمنعها..

شـــكرت جناحان العجوز بشدة، و لم أمنحها شيئاً لأنني لا أملك شـــيئاً، جرجـــرها إلى كانونها المشتعل، ويداها ترتعشان لا أدري من الـــشيخوخة، أم من برد لم يكن موجوداً، قلت للتقلاوي ديدام الذي كـــان يراقبني من بعيد تاركاً صقره يتسلى بعري الأطفال، إنها لم تكن فطنة أبداً يا سيدي، وكانت في لحظة خرف عظيم، وأرهقتني بالأسئلة الكـــثيرة عن أسماء رجال ونساء، كانت تتخيلهم يجلسون قربها. ولكي لا يـــضيع خيط البنفسج الذي أمسكت به مرة أخرى بعد طول هجر،

أسرعت إلى حفرة الخاتم المدفون خلف إحدى الخيام الممزقة، نبشتها وأنا أتلفت في حذر، وعدت بالخاتم مربوطاً مرة أخرى بخيط الدوبارة، على البطن قريباً من الأحشاء.

كانت بي رغبة شديدة للقاء المصَّاص، ودائماً ما تأتي تلك الرغبة حين يستجد جديد.. ماذا كنت أفعل، لو لم يكن في الكتيبة صديق غريب مثل ودعة المصَّاص؟

كان في لحظة استراحة حين اقتحمت خيمة الشهداء، يمط ظهره ويستعيده، يمطه ويستعيده، كأنه يحاول تعديل ذلك التقوس الذي يمسك بالظهر.. شهيده ذو الجرح الأزلي، خامد ولا بد خرج من حمى ورعشة، واسترخى هو أيضاً. جلست بجانبه، وبدأت أمط ظهري وأستعيده، والمصَّاص لاحظ تشوشي، وتوقف عن استرخائه، كان يمنحني صدره النحيل، لكني لم أبك.. فقد كان في داخلي أمل، ويلتصق ببطني قريباً من الأحشاء.. أمل.

- 2 -

استيقظت مذعوراً على فحيح الكارور، وخلته يفح داخل حلمي الذي كان جميلاً وناعماً، ومستمداً لبهاراته الخاصة من تفسير جناحان، أو الأنثى طلحان العجوز كما سميتها، والذي أعاد الخاتم إلى بطني قرب أحـــشائي.. ومـــنحني الكثير من الأمل.. في أن يعود بعض من الزمن القـــديم. لم نكن وحدنا أنا وحميلة داخل الحلم، لكن كان برفقتنا ولد يـــشبهني كثيراً، وفتاة تشبهها حتى في الابتسامة، ورمشة العينين حين ترمشا، وفي داخل بيت مريح في حي (نسمة) الذي كان تحت الإنشاء حين باغتنا الغزو وأمات حي نسمة وكل النسائم الأخرى. وكنت قد اشـــتريت في الحي أرضاً، أردها عشاً لاحتضان المستقبل. فح الكارور بـــضراوة.. وتلفتـــنا أنا وحميلة، وانـــزعج الصغيران.. بدآ يصرخان، واستيقظت لأسمعه حقيقة وليس أصداء حلم.

كانـــت تلك غفوة الصباح التي أغفوها ويغفوها القائد ومساعد القائد، وكل المجندين داخل الكتيبة، والتي تعقب صلاة الصبح وتستمر حـــتى تصيح الشمس بضيائها عالياً، تنادي على المعذبين لطيف الحرب أن ينهـــضوا مـــن أســـرة النعاس، ويعذبوه في تلك التدريبات التي لا تنتهـــي.. القفز إلى أعلى من قامة الخيام.. نطح الرؤوس. سن السيوف علـــى الـــصخور المدببة، حك الدروع بعضها ببعض، وترديد أناشيد الحمـــاس الفجـــة. كان المعسكر ضاجاً حين خرجت من خيمتي، وقد ازدحمت الساحة الكبيرة بالمجندين الذين نهضوا على عجل، كما نهضت

ولا بــد كانــوا يرعون داخل أحلام شتى، كما كنت أرعى، وبعض النازحين الجدد ممن بدأوا يفهمون لغة الكارور ويطيعونها، يترنحون من خــيام الإيواء ويقتربون. شاهدت القائد عبّادي طلسم يقف في الوسط كالعــادة، بجانــبه الــتقلاوي ديدام كالعادة وجبّار القرنين يضخ ولا يستريح حتى بعد أن غدا وجهه حلقاً متورماً، ومشرف الغسيل برهاني مــدججاً بالزي الذي لم أعرف أبداً إن كان زي قائمقام حقيقي شب وترعــرع في الجيش، أم زيًّا كاذباً يرتديه أحد الدمويين. تاجر سلاح فولاني يتجول في معسكرات الحرب كنوع من التسلية، ما أغبى ذلك.. لقــد كان طلحان غشيماً في ذلك التفسير، برغم ما قدمه من تفاسير مبهرة.

كــان ثمة رسول قد قدم من المدينة في تلك اللحظة، وبيده ورقة صــفراء مطــوية، لم يكن من الرسل الذين نعرفهم، وتعودنا حتى على رائحة جيادهم وغبارها، وأصوات حوافرها وهي تحفر، لكنه كان صبياً يافعــاً، وذا صــوت متعــرج وشديد النعومة قيل إنه ابن أحد القادة المهمــين. كــان اسمه (كملان)، وشد إليه الجميع حين فض الرسالة الصفراء.. قصيدة ريماس الجديدة، وابتدأ يقرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم

مــن الإمام المتّقي خادم الدين، ومروِّع المنافقين، والحادب على العــزة والكرامة في كل شبر من أشبار الأرض، إلى أحبابه المجاهدين في كل مكان.

أما بعد

وإنــه قــد تحركت جيوشنا لملاقاة الملحدين والزنادقة والذين في قلــوبهم مــرض، لنحر رقابهم، وسبيهم، وإعادتهم شرازم كما كانوا دائماً، فقد رأينا أن نهتدي بالنهج السليم، والطريق القويم، ونتبع الرؤيا

التي تأتينا باليقين، ونجعل على رأس تلك الجيوش من يصلح لها طريقها لـــو اعوجت، ويرسم لها الخطط التي تحتاجها في هذا الوقت العصيب، قائـــداً لـــه قلب أسد من أسود الفلا، ووثبة نمر من نمور الأحراش، لا يخاف الوغى ولا يرهب كثرة الملحدين وكلهم غثاء سيل.. وإننا لم نجد أصلح ممن هو من صلبنا، وتربى على الخشوع والطاعة، والبلاء الحسن، وكلكـــم شهيد عليه حين يلتقي الحق بالباطل، ويمحو بجبروته الباطل، ويكـــتب الحـــق. يا أحباب.. قد عيَّنا الأمير مقهور المتَّقي، ابن سكينة بـــنت عبد الله القروي، الهلالية، سليلة الحسب والنسب، يرحمها الله، قائـــداً عاماً للجيوش، تستوجب طاعته التي هي من طاعتنا وطاعة رب العالمين.

سلام علينا في الدارين.. هذه الفانية وتلك التي نشم ريحها، وبئس للكافرين والملحدين حتى تقوم الساعة.

الـــذي حـــدث بعـــد ذلك لم يكن أمراً هيِّنا أبداً، ولن يكون. شـــاهدت الأمـــير عبَّادي طلسم، يترنح في وقفته العريضة أمام الجند، الـــتقلاوي ديـــدام، يترنح أكثر وقد طار صقره بعيداً واهتز سيفه في الغمد، آلة الكارور، تفح وحدها مصدرة صفيراً متقطعاً، بعد أن ضمر حلـــق جبّار القرنين وتصلب، وكأن النجوم تساقطت من زي مشرف الغـــسيل بـــرهاني، حيث بدا لي مجرد جندي عادي، بلا زي مميز ولا صـــلاحيات ولا حتى هيئة تاجر فولاني يتسلى في معسكرات الحرب. كـــان المجندون في حالة ذعر غريبة، يقفون تارة ويجلسون تارة أخرى، ويحكون رؤوسهم أو أرجلهم، ولا بد تذكروا قبراً منسياً لمرتد، حفروه بسواعدهم، ودفنوا في نسيانه أمثال ولد مهووس، ولا بد تذكروا كلاماً كثيراً قالوه أو استياء بلا حصر استاءوا به، أو ضحكات أطلقوها شماتة وســـخرية.. أضاء أحدهم فوانيس الساحة كلها، والشمس مشرقة في

كامل الضياء، وبدأ الذي عليه دور الآذان في ذلك اليوم يتنحنح، ليؤذن للظهـــر، والظهر ما زال بعيداً. وحده الثبات كان مرسوماً على وقفة أولـــئك النازحين الجدد، ممن فهموا لغة الكارور وخرجوا من خيامهم، الـــذين لم يـــسمعوا أبداً بولد مجنون اسمه مقهور، يعيَّن الآن قائداً عاماً للجيوش مقروناً بأبوة القائد الرمز، وأمومة سكينة بنت عبد الله الهلالية، ذات الحسب والنسب.. يرحمها الله.

الـــذي حـــدث لم يكن أمراً هينًا، ولن يكون كذلك، وفي خيام راميـــي الأقواس والنبال، ذكريات اقتلعت وأهينت، وبجوار قبر السفيه ولهان، قبر رمزي مهان تتمخط عليه الأنوف وتطارده الأفواه بالبصاق، وداخـــل بيت الغسيل سيئ السمعة، عناكب وجرذان وضفادع لئيمة رضـــعت من دم المتَّقي وارتوت. وما زالت آثار جبريل لالو حين كان وتـــداً منغرســـاً أو سطلاً ممتلئاً بالعقاب موجودة في تلك الساحة. كنا نتـــراكض كالمجـــانين، بما فينا قادتنا الذين لم نر ركضهم أبداً من قبل، حفـــرنا القـــبر الرمزي بسرعة غريبة، استخرجنا رماد هلاهيل أكلتها الأرض، أعـــدناها إلى المعسكر معززة مكرمة، ملفوفة في قماش أخضر مـــرقَّع، والأيدي تتلقفها في جنون، محاولة امتصاص بركة لا بد توجد فـــيها، أزلنا آثار المخاط والبصق بأيدينا العارية، ورششنا رائحة المسك المخلـــوط بالصندل بكثافة، وبدأ البعض يرددون نشيد النونوة المجلجل أمـــام القبر، ولا كانت توجد نشوة كاملة أو ناقصة تستوجب ترديد ذلك النشيد.

كـــان الشهيد سماهيل الشكري، صاحب الجرح النـــزق الذي لا يبرأ، في لحظة حمى ورعشة جديدتين، حين دخلنا خيمة الشهداء، لعنه كل من استطاع أن يضفر لعنة، أو يمتلك لساناً وعراً في تلك اللحظة، كافـــر وزنديق، ولا يمت للشهادة بصلة، ولا يستحق أولئك الحوريات

اللائـــي كان يعاشرهن طوال تلك المدة، جرجر المسكين من ارتعاشه ولحظـــة النـــشوة تقترب، ليحل ملطخاً بالعار والصفعات، في إحدى الغرف الجديدة التي أنشئت من الشوك، في بيت الغسيل، وتحت إشراف الـــصبيين الملعـــونين الذين انتقاهما برهاني ليساعداه في مهمته، بعد أن تـــضاعف الـــشر بقدوم النازحين.. كنت بجانب المصَّاص، حين أزيل جـــريحه بـــتلك الفظاظة، وأغلقت خيمة الشهداء مؤقتاً، حتى يدخلها شـــهيد حقيقي، رأيت المصَّاص يفتح فمه ويغلقه عدة مرات من دون صوت، أسنانه زرقاء عابسة، وجسده ضئيل جداً كأنه جسد مستلف، استعاره من طفل.

كـــنت أراجـــع ذكرياتي الشخصية مع مقهور في هلع وأنا أقف مترنحاً في وسط الساحة، بعد أن انتهى أمر سماهيل. تلك الذكريات التي تكوَّنت حين كنت أشرف على إصلاحه بأوامر من القائد، عثرت على نوافذ مشرقة في تلك الذكريات، ذلك حين منحته ثقتي الكاملة ليتدثر بها ويطلب نصحي وإرشادي في أي وقت، وأيضاً على بقع معتمة ربما أضيع بسببها، ذلك حين نهيته عن لعق الأحلام البائسة، والالتفات إلى شؤون الجهاد، وابتأست بشدة. ورأيت (ناتف)، فرد سرية الموت الذي أرســـل برفقة آخرين، لتقصي فرار مقهور وجلبه حيَّاً أو ميّتاً، يقترب مني.. كان صدغاه غائرين حتى العظم.. وجسده بلا مروءة.. ردد..

كنا نؤدي واجبنا يا سعد.. أليس كذلك؟

بعـــد ســـاعتين تقريباً، كان كل شيء قد انتهى. أعيدت سيرة مقهور المتَّقي، إلى مجتمع الكتيبة كاملة وأكثر من كاملة، سيرة رصدت الـــشجاعة والـــتفاني، والـــبراعة النادرة في القتال، بالرغم من أن قتالاً حقيقـــياً لم يكـــن قد نشب حتى ذلك الحين. سيرة تحدثت عن طيبة القلب، وحلاوة المعشر، والالتزام بتعاليم الجهاد كاملة من دون نقص،

ومــا كان خروجه من الكتيبة في ذلك اليوم، فراراً من الجهاد أو تحت تــأثير لوثة عقلية، ولكن تلبية لصوت الرؤيا الذي ناداه، وألح عليه في الــنداء، وما طعن ذلك الحارس الزنديق الذي حاول إعاقته عن التلبية، إلا لأنه رأى فيه وجه كافر مرتد يستحق الطعن.

ذهــب رسول المتّقي الصبــي، ذو الصوت المتعرج، حاملاً الرد بالــسمع والطاعــة لأوامر سيدنا المتّقي ولقائد جيشه الجديد، واجتهد جبّار القرنين في خيمته، محاولاً أن ينظم قصيدة يرددها في مدح مقهور المتّقي كما أشاع وسط الجنود، وتصبح جزءاً من إرث الكتيبة وربما من أناشــيد الــثورة كلها، وظهرت في ذلك اليوم موهبة غريبة على أحد المجــندين في ســرية راميي القوس والنبال، حيث كان مقهور في أحد الأيام، استعار ورقة ودواة من جبّار القرنين، ورسم وجه مقهور محاطاً بهالات من نور.

لم يترك لي القائد طلسم، فرصة الانفراد بنفسي قليلاً في خيمتي، لأعــد المكاســب والمخازي كلها، وأتبين موقعي جيداً تحت مفاجأة مقهور، أو اقتحم عزلة المصّاص الذي أصبح عاطلاً ومعزولاً تماماً، بعد أن سرق مريضه الصديق كما كان يسميه، وطارت رعشات الحوريات الــتي كانت تؤنس وحشته كما أخبرني، ناداني مباشرة بعد أن انتهت المعمعة الطارئة، وعاد الجنود إلى تعذيب طيف الحرب، أو ركوب إبلهم وجــيادهم لمراقبة حدود المدينة بحثاً عن المتسللين الذين قد يفرون من الجــيش الهالــك ويقتربون، كما كلفوا.. كان وجهه أصفر، مضفراً بالأســى، وظهره قد انحنى قليلاً، معيداً إلى ذهني المتوعك، ظهر الحمّال القــديم في ســوق أبــي جهل الشعبــي. لم تكن مسبحة الصوفيين تتراقص بين أصابعه كعادتها.. لكنّها خامدة تماماً على إصبعين خامدين.

- اجلس يا سعد.. هذا أمر.

وجلست منصاعاً للأمر الذي ألغى وقفة التابع المتصلبة.

ساعتان بلا حوار بيننا، إلا ذلك الذي اقرأه في النحنحة وملامح الوجه حين تتغير، مرة إلى جمر ومرة إلى صفاء نادر، ليردد في النهاية.. نفس الجملة التي رددها ناتف، فرد سرية الموت:

- كنا نؤدي واجبنا يا سعد.. أليس كذلك؟

- نعم يا سيدي.. بكل تأكيد.

مساء ذلك اليوم، لم يكن ثمة كابوس، لا صغير ولا كبير.. لأنه لم يكـــن ثمـــة نوم في الخيمة الكبيرة التي يقطنها قائد لم يكن يقظاً بسبب حلم مجهض في قيادة الجيوش فقط، ولكن بالخوف على قيادة قد تسقط مغشياً عليها، إذا ما هزها مقهور المتَّقي.

-3-

بـــدأت الأخـــبار تأتينا تباعاً، ونحن الآن أولياء الأمر الوحيدون، لأطـــراف مديـــنة السور وحراس لمداخلها الأربعة بعد أن ذهبت بقية الكتائب للقتال بناء على تعليمات المتَّقي، يمشط الجنود المستنفرون تلك الأطـــراف صباح مساء ويعودون بخيبة الأمل، فلا مرتد هالك فر من موت الوغى وأتى ليموت موتاً أسوأ، ولا متسلل يحاول أن يلج المدينة، لتكسر عنقه بواسطة أفراد سرية الموت، مكسري الأعناق، وقد أضيفت عناصـــر فولانية جديدة إلى دم سرية جبّارين، بعد زيارة قام بها القائد للمدينة، وتبعته فيها. كانوا يشبهون القائد، ويشبهون جبريل لالو قائد الـــسرية، ويمكـــن أن يكونوا أوتاداً للغسيل وأسطالاً محتملة للعقاب، ودالقي رعب غير محدود في أي وقت.

كـــان رســـل المتَّقي الذي ما زال مقيماً في المدينة، ينتظر اللحظة المناسبة للرحيل لاحقاً بجيوشه في مشوار فتحها، لا ينقطعون عن المجيء، يحملون رسائل النصر التي تصف جيش العدو بالشرازم، وجيش الجهاد الذي يقوده الأمير مقهور، بالجيش الذي لا يقهر، قيل أن العدو يتقهقر إلى الـــوراء، والنصر يطارده في القرى والأحراش التي يحتمي بها، وقيل سيعود عدد من المنتصرين، يجرون خلفهم أسرى الإلحاد الذين سقطوا، ليحرقوا علناً في مدينة السور عبرة لمن يعتبر، وقد كانت تلك الأخبار، تـــشعل المجندين الذين صنفوا أنفسهم درجة أقل، تشعلهم بالغيرة، حين كلفوا بحراسة المدينة، وحرموا من لقاء بنات الحور المشتتات في ساحة

الوغى، وقد استعدوا لهن حتى بتنظيف الأسنان بعيدان الأراك الخضراء الطـــرية، وتضفير الكلام الغزلي الذي كانوا يتبادلونه همساً فيما بينهم، وقد تجرأ حنداق المجدَّر، قائد سرية الموت مرة، على إيقاف القائد أثناء مرورنا الذي أصبح يومياً على خيام الجند، وأماكن تعذيبهم للحرب.. قـــال. لست حارساً يا سيدي ولكني مقاتل موت سأقدم الكثير حين أشـــرك في الحرب، وكانت قفزة جبّارة قفزها أمامنا، تكسر على أثرها الهواء المشبع بالقلق والتوتر. ونتيجة لذلك، استثني حنداق شخصياً من الـــبقاء في الكتيبة جهادياً مؤجلاً، سلمت قيادة سريته للمجاهد ناتف الـــذي كـــان ما يزال مشوشاً في أمر مقهور، وأرسل إلى الوغى فرحاً ونشطاً، ويردد نشيد النونوة المجلجل، حتى خرج عن نطاق الرؤية على ظهر حصانه القوي.

كان الجريح سماهيل الشكري ما يزال مقيماً داخل بيت الغسيل، لم تخـــرج جثـــته التي كان الجميع يتوقعون خروجها في يوم من الأيام وجهـــزوا لها القبر الضيق المتسخ، وكل توابعه المقرفة، ولا أحد يعرف مـــاذا يدور بالداخل وما هي أخبار جرحه النـــزق، وحورياته اللائي كـــان يعاشـــرهن في لذة الحمى، وبرهاني لا يفصح، والصبيان اللذان عيـــنهما لغسيله، لا يفصحان، ولكن تبدو على وجهيهما آثار سعادة كبيرة حين ألمحهما أحياناً يتمشيان في المعسكر، أو يتسليان خارج نطاق الغـــسيل، بنصب فخاخ للصيد قرب المعسكر، ولا صيد أبداً في ذلك البؤس.

كـــان المجـــندون داخل الكتيبة، ينتظرون أولئك الأسرى الزنادقة الـــذين وصـــفوا في الرسائل المتعاقبة على أحر من الجمر، جهزوا لهم البـــصاق الذي سيبصقونه، المخاط الذي سيتمخطون به عليهم، وأيضاً قـــبوراً ضـــيقة ممتلئة بالحصى والقار وبراز العناكب، بالقرب من قبر

الــسفيه ولهـــان، إذا ما منحوا فرصة إبادهم داخل المعسكر، وليس في المدينة التي يحكمها الموت الكبير.

لم أكن شخصياً مؤقناً من تلك الأخبار، ولا تذوقتها بحلاوة كما تـــذوقها الآخرون، لكني احتفظت بتذوقي في سري، وكنت على يقين من أن الحكومة لو أرسلت جيشاً بالفعل، ويقاتله الجهاديون الآن، فلن يكـــون جيشاً هينًا يسمح لواحد مثل حنداق المجدَّر أو غيره أن يتلوى ويكـــسر الأعناق بتلك البساطة، ولكن لا بد من مدافع ثقيلة ورصاص حي، ومفخخات من المعدن الصلد، ترسل النار، وتتكسر على معدنها الــسهام. وكـــان أكثـــر ما يقلقني أن توصف مدينة السور في خطط العسكريين الحكوميين، بالمدينة (صفر)، ذلك المصطلح الذي قرأته مرة في كتاب فاسكو العسكري، حين استعرت نسخته من القائد عرديب أيـــام إرهاصات الغزو، ويعني المدينة الميتة، أو المدينة التي لن ينجو من نارهـــا أحد حين تطأها أقدام الجيش المحارب، ويعتبر ساكنوها كلهم أعـــداء حتى لو لم يكونوا كذلك.. قد تسلم البيوت ولا تحرق، تسلم المـــباني، ولا تهدم، ولكن لا يسلم أحد. كانت حميلة ما تزال بنفسجي وحـــوريتي، وتقـــيم في بيت مجهول داخل المدينة ولا أريد أن تضيع في الصفر.. إذا ما اعتمد خطة لدى الحكوميين.

في أحـــد الأيـــام زارنا الأمير مقهور المتَّقي، وكانت مفاجأة لا أعرف إن كانت سارة أم مميتة، و لم يكن أحد، قائد أو جندي يتوقعها، والجميع يعلم إنه يقود الثورة في مستنقعات بعيدة، يوجه الجنود ويخطط لهـــم، و لم يجرؤ أحد حتى في السر، على سؤال نفسه عن تلك الطريقة الـــتي وصـــل بها إلى المتَّقي وأثبت بنوته التي صيرته قائداً كبيراً وهو في عـــرف القادة الكبار، مجرد صبـــي. دخل المعسكر بغتة برفقة عشرات الملثَّمين في أحد النهارات، لم يعط فرصة للكارور أن يفح ويجمع الجنود

لاستقباله، وللقائد أن يرتدي زهده المرقّع جيداً ويستقبله، وللتقلاوي أن يرتسم لوحة فيها صقر وسيف، وجدته أمامي وسط ساحة الخيام هكذا فجأة وتجمدت، وازداد رعبي حين شاهدت خلف موكبه، رجالاً بيضاً وسمراً، وعراة الصدور، مضفرين بحبال غليظة من سعف الدوم حول أعناقهم، على أجسادهم آثار دم، وفي وجوههم هلع لا بد ارتسم يوماً ورافقهم طوال أيام الطريق. لم يكن هو مقهور القديم الذي دفنا سيرته في قبر النسيان بلا شك، ولكن مقهوراً آخر، أخضر، ومرقّعاً، على رأسه طاقية خضراء أيضاً، في خصريه سيفان فضيان يجمعان ضوء الشمس ويعكسانه على العيون، وعلى وجهه تصاميم محارب مختل. لم يقل سلاماً.. ولم يسأل حتى عن القائد الذي كان راكداً في خيمته يجتر أحلامه المجهضة، ويتلاعب بمسبحة الصوفيين، قفز من فرسه برعونة، وقفز الملثمون كذلك، كان وجهه قريباً مني في تلك اللحظة، ولساني تحرك يود أن يصافح لسانه، لكنه التوى بعيداً.. خب إلى خيام الإيواء البعيدة نسبياً عن المعسكر حماية للعورات، وأسرعت إلى القائد الذي هب راكضاً، وركضنا جميعاً بما فينا التقلاوي الذي ظهر تلك اللحظة، وجبّار القرنين أيضاً والقائممقام برهاني الذي لا بد شم رائحة عقاب في الجو وخرج من بيته، كنا نتبع خبه بمشقة ونردد.. أعز الله الأمير.. أكرم الله الأمير. كان ينكش الخيام الصفراء خيمة خيمة، يهز رجلاً راقداً أو متكئاً بعنف، يزيح امرأة تطالعه فضولاً، بخشونة، ويمد خطواته، يرفعها إلى أعلى، حتى يتخطى طفلاً يعيقها. ويبدو أنه عثر أخيراً على ما كان يبحث عنه في خيمة ضيقة كان ينحشر فيها أكثر من ستين رجلاً، يثرثرون أو يحتسون شراب العرديب المر، رأيناه يمسك بكتفين هزيلين لواحد من النازحين كان اسمه (نحيب)، ويلقبه النازحون ممن أتى معهم، بنحيب الأبيض، لأن جلده

كـــان في معظـــم مساحته أبيض وخالياً من الصبغة المعتادة. وكان من أكثـــر النازحين الذين تفاعلوا مع نداء الكارور وفهموا لغته، وكان في معظـــم الأحـــيان أول من يلتم على ندائه حين يفح منادياً على الجميع وآخـــر مـــن ينصرف، حتى بعد أن ينصرف المجندون الرسميون. كان صـــوت مقهور قريباً من صوت المتَّقي في تغلغله الأسطوري، أو هكذا تخيلت، حين أخرج الأبيض من داخل الخيمة، وجرَّه إلى وسط الساحة وهو يردد موجهاً حديثه إلى القائد..

- أنـــت تـــؤوي في معسكرك خائناً تطعمه من مال الثورة أيها الأمير.

- خائن؟

ردد القائـــد بصوت ليس قيادياً ولا فولانياً، ولكن صوت منهزم حقيقي..

- خائن؟.. كيف خائناً أعزك الله؟.. هذا نجيب الأبيض.

لا صـــوت القـــيادة ولا صوت قبيلة الفولاني، لا وجه التقلاوي الصلد في تلك اللحظة، ولا حلق جبّار القرنين القوي الضخم.

- هل تعرفه من قبل أيها الأمير؟.. هل كان من أهلك أو جنودك؟

أطـــرق القائـــد.. ولم يجـــب. فلم يكن في الحقيقة يعرفه قبل أن ينـــــزح، ويقيم في معسكر الإيواء الذي شيدناه للنازحين، ولا كان جـــندياً ولا فولانـــياً من أهله، ولا يعرف قبيلة يمكن أن ينسبه إليها في تلك اللحظة.

- إنـــه التركـــي الـــزنديق ســـردار.. أكبر الخونة في حكومة المشركين.. دسوه أولاً في الريف وسط المزارعين، ثم نـــزح معهم إلى كتيبتك. وكان يزمع التغلغل أكثر حتى مدينة السور، ويخطط لاغتيال سيدنا وإمامنا المتَّقي.

كـــنا نهـــدر بـــرغم الارتباك، وبدا لي هديراً ضعيفاً لا يرقى إلى المستوى..

أعزه الله.. أكرمه الله.. أطال عمره.

كان نص أباخيت في تلك اللحظة قد خرج أكثر عن السيطرة بلا شك، تحول إلى نص مختل وشره ذي أسنان حادة. لم تكن ملامح نحيب الأبـــيض الـــذي كان مرقَّعاً بمرض (السهبة) الذي يشوه الجلد وينتشر بكثـــرة في البلاد، ملامح تركي أبداً، ولا دلت لهجته التي سمعتها مراراً تتـــضفر في أحاديث كثيرة عن الزراعة والرعي، وأمراض دودة القطن، وصـــدأ القمـــح واصفرار الذرة وهي نيئة، على أي غرابة أو التواء في اللـــسان يحـــيله إلى وطن غير الوطن الذي يعيش فيه، إضافة إلى وجود امرأة بين النازحين، كانت امرأته، وعيال صغار، كانوا عياله.. متى دس في وسط المزارعين، والثورة ما زالت حديثة لا يتعد عمرها في تقديري الـــثلاثة أعـــوام منذ بدأت نصَّاً مغموراً أو هامساً في قرية أباخيت؟.. كيف يخطط لاغتيال المتَّقي ولا أحد يعرف من المتَّقي أصلاً؟. أبصرت النازحين يتجمعون، والعجوز جناحان – طلحان الأنثى، تتوكأ خارجة مـــن تدفئة الكانون، والشتاء ما زال بعيداً. أبصرتها تقترب من مقهور، تتأمله بكلل البصر واضعة يدها أعلى عينيها ولا أظنها عثرت على ضوء قبلـــي في وجهـــه الذي كان وجه مقاتل مختل فقد الكثير من ملاحته السابقة.. وبالصوت المبتور الذي يضفر الكلام بمشقة، سألت:

– من أنت يا صبـــي؟.. من أنت؟

هـــدرنا جمـــيعاً في تلك اللحظة.. وكأن الهدير كان مقيداً على ألـــسنتنا، ينتظر لحظة الإفراج عنه وكان هديراً مطعماً بالرعب، وقائد الجيش ابن قائد الجهاد يوصف صبياً في حضرتنا:

الأمير مقهور المتَّقي.. أعزه الله وأكرمه.

لم يعن ذلك للعجوز شيئاً، ولا تغير صوتها المكسر أبداً وكانت واحدة من الذين سألوا من قبل عن معنى الكفر، والدين موجود في كل شبر من الأرض، وأولياء الله بهيبتهم وجلالهم، يحرسون الناس، عن معنى الظلم والبلاد كلها خير، والخريف لا ينقطع إلا نادراً:

– ماذا تريدون من الأبيض ولد كنانة؟

لم يرد عليها مقهور الذي كان متصلداً وجافاً، ولا رد أحد آخر، ولا استطاعت تضفير سؤال جديد، لأن الملثّمين حملوها عن الأرض بغتة، ركضوا بها إلى خيمة الإيواء التي خرجت منها، وهم يكتمون حلقها الذي يضخ الكلام، وعادوا ليمسكوا بالأبيض الذي كان مذعوراً، وبائساً ومتسارع الأنفاس، يتلفت في جنون، يبحث عن النصرة في وجهي ووجه القائد طلسم، ووجه التقلاوي، وأي وجه آخر يعتقده وجه ناصر، ولا يعثر.. جرجروه إلى آخر صف الأسرى المقيدين بحبال الدوم الغليظة، الملطخين بالعار والدم، حيث ربطوه، وكانت فرصة لتأملهم جيداً حين تحرك موكب الأمير مبتعداً، وحركوا خلفه بمساعدة سوط طويل جارح الأطراف يحمله أحد الملثّمين، وليتني لم أفعل، فقد عثرت في وسطهم على طلحان العجوز، تاجر أعلاف المواشي البدوي، والأب المهووس بالثورة، وصاحب السيدين الحكيمين.. الشعر الأبيض والفم الكهف، باكياً ومحطّماً ويتنفس بلا أنفاس..

لقد طاش نص أباخيت بعيداً.. بعيداً جداً..

- 4 -

تغير الأمير عبَّادي طلسم.

تغـــير كـــثيراً برغم قيامه بأعبائه كاملة في قيادة الكتيبة، وتفقده للجـــند ساعة تمسكهم بريح الجنة، وتعذيبهم للحرب التي قوي طيفها بـــشدة، ورحيله المتكرر إلى المدينة، والعودة إما باسماً على حلقه يلوح نشيد النونوة، أو ملطخا بجمر الوجه والعينين. فقدت كوابيسه رونقها القديم بشدة، ظلت متمسكة بساحة الوغى وقتال المشركين، لكنَّها لم تعد تتحدث كثيراً عن السلطة، وجز عنق المشرك الكبير، حاكم البلاد العـــام، أو تـــضخ النعناع والبنفسج في لحظات الانكسار التي كانت بالنـــسبة لي تحلـــية، أتلذذ بطعمها، وأيضاً بارقة أمل أحس بها بأنني ما زلـــت حـــيًّا، وقريباً جداً من حميلة. وقد كنت في تلك الأيام أواصل تعاطـــي البؤس الذي أصبح سمة من سمات الحياة، منذ ذلك اليوم الذي دخلـــت فـــيه خزي العين أنيقاً ومعطراً، اليوم الذي طارت فيه أغنية الحمـــام إلى أعلـــى و لم تحـــط أبدا، وتحول صوت الملكة الراحلة نديمة مشغول، إلى صوت حزين مغرق في التطرف وهي تصف ما أسمته ثورة الخـــراب. كـــان يقلقني بشدة، أن يتوقف القائد عن تذكر حميلة، ألا يـــصفها نعـــناعة القلـــب التي تقض مضجعه وتطير نومه، ألا يأمرها بالـــصلاح والتوقف عن المشي أثناء النوم، وجلب الحصى والرمل إلى فراشها، كانت تلك علامة سيئة بلا شك، تحاول أن تطغى على الأمل الـــذي أعـــيش عليه وأشعله بلمس الخاتم القريب من الأحشاء كلما

ســـنحت فرصـــة، وأرتعد بشدة حين أتخيلها ماتت بالحمى، أو مرض الـــتخمة الكاذبـــة الذي أعرف تماماً إنه قد ينشط في أي لحظة ويلتهم الجمـــيع، وقد كانت حميلة الآن بعيدة عن التخمة الحقيقية، و لم تبق ثمة تخمـــة حقيقية في المدينة منذ زمن طويل. ولأن حميلة كانت في نظري حـــورية الحوريات، ولا يمكن أن تكون مجرد امرأة عادية وسط النساء المحبوســـات في بـــيوت البؤس، ينتظرن الوطء كسبيات، أو الرضوخ للـــزواج كما في حالتها مع الأمير طلسم، فقد جال بخاطري، إنها قد تكون هدفاً للولد المختل مقهور، ينتزعها من شهوة القائد ويلقي بها في شـــهوته المختلة، وقد بات الآن يحمل نص أباخيت على شفرة سيفيه اللامعين، يرمي به بعيداً.

كنت أرهف السمع حين تتضفر الكوابيس الليلية، أعصابـــي تئن وهـــي تطاردهـــا من كابوس إلى كابوس، أصيح في سري، وفي نفاد صـــبر.. اذكرها.. اذكر حميلة يا كابوس، والكابوس لا يستجيب، لا يندحر إلى جهة الشهوة والعواطف.. يرتمي في حضن التقوى، باعتبارها فـــتاة ملـــيحة ذات فـــم من مرمر، وعينين من ليل داج، وضفائر من عـــسجد، وحـــضنا آمـــنا من تلف النفس.. يصرخ.. العياذ من تلف الـــنفس.. العياذ من تلف النفس. أو يتوسل في ضراعة مخاطباً أبا حمزة سيدي، أن يعفو عن طلحان العجوز الذي فسر الريش المعلق أعلى باب الصفيح، وفسر عبارة القضاء والقدر الإيمانية وأثنى على الثورة كما لم يـــثن أحد. أن يعفو عن نحيب الأبيض لأنه ليس تركياً، ولا خائناً و لم يسمع بمصطلح الاغتيال إلا حين نطق أمام ذعره وكان في الواقع أبرصاً وهـــزيلاً ووالـــداً لعـــدد من الصبيان. ينقطع الكابوس لحظة وتتهيج أنفاســـي.. سيندحر الآن.. سيذكرها بلا شك.. النعناعة. البنفسجية، الفتاة التي تمشي أثناء النوم، لكنه لا يذهب إلى تلك الجهة أبداً، وكأن

مـــا جرى في الأيام الماضية، قد وضع عائقاً كبيراً ليس أمام يقظة القائد فقـــط، ولكـــن حتى أمام حلمه وكوابيسه. وحقيقة إن توسل القائد وضـــراعته للعفو عن مسكينين مثل طلحان ونحيب الأبيض، في لحظة الـــصدق كما قالت العجوز جناحان، قد بين لي جوانب رقيقة وخافية لم أكـــن قـــد لمستها وأنا أتبع ذلك الحمّال الفولاني ذا الجسد العريض والصوت الكبير المجلجل والسوط الذي ينغرس في اللحم ويدميه.

لكـــن تلك الكوابيس الليلية المتوسلة، كانت في الواقع بلا معنى، فقـــد حملـــت الأخبار التي وردت من مدينة السور، وحملها الأعراب الـــتجار هـــذه المـــرة، وهم يبكون، إن الأسرى الذين وصموا زنادقة ومرتدين، وجاء بهم الأمير مقهور مضفرين إلى حبل الدوم الغليظ، قد ربطوا إلى جذوع الأشجار الميتة في وسط خراب مدينة السور، وتركوا للملـــثمين والرجـــرجة والأطفال الأشقياء، يتلاعبون بأرواحهم حتى فاضت. كان فيهم طلحان العجوز، ونحيب الأبيض، وآخرون لا يعرف أحـــد إن كانوا أسرى حرب حقيقيين، جمعوا من فتات جيش مندحر، أم مجـــرد نفـــوس بـــلا حظ، سقطت في فقرة مهلكة من فقرات نص أباخيت الرهيب..

لم أبك طلحان أبداً، ولا عادت ثمة دموع تكفي لبكاء أحد، فقط دمعتان أوفرهما لأبكي بهما خميلة إن ماتت وسمعت بموتها، أو أبكي بهما نفـــسي، حين يأكلني النص، أو تنغرس أسنانه في لحمي ذات يوم. وقد أخـــبرني القائد وهو يدنو قريباً من أذني لأول مرة منذ عرفته وأشبعت جوعه بملاعق الثريد وأقراص الذرة والقمح، وتبعته بعد ذلك، إنه حزين جـــداً لـــتلك الخسارات، لكنه ما لبث أن انتفض، ابتعد عن أذني في جلافـــة، تلوّنت عيناه بالجمر القديم.. وجهه بملامح الوعورة القديمة، وغـــدا صـــوته فولانياً خالصاً وهو يردد. إنها الثورة يا سعد المبروك..

الثورة التي ستنغرس راياتها في كل شبر من الأرض ذات يوم.. من يسقط حبيباً فهو شهيد. ومن يسقط عدواً، فهو زنديق حتى لو كان البدوي طلحان أو أنا عبّادي طلسم قائد كتيبة صقور.. أو أنت.. خذ.. خذ.

يمد يده إلى جيبه العريض في ثوبه المرقّع، يستخرج قارورة المسك الصفراء، ينزع سدادتها الذهبية، يرشها في وجهي. ويظهر التقلاوي وجبّار العينين ومشرف الغسيل برهاني في تلك اللحظة، يؤيدون صياحه بالثناء على المتّقي، وينالون نصيبهم من الريح الذي اعتمد مقدساً، ويسرف الجهاديون في استهلاكه.

في أحد الأيام خرجت سواعد سرية جبّارين من بيت الغسيل، كانوا يحملون جسداً ملفوفاً بالخرق، وأسرعنا لتأمله، بينما ركض العديد من المجندين الذين شاهدوا المنظر، إلى حيث القبر الضيق الذي جهز للزنديق سماهيل، للتأكد من أنه ما زال محفوراً، وضيقاً وشرهاً لابتلاع الجسد الملعون، وقد مضت أكثر من ثلاثة أشهر على إلغاء الشهادة عن ذلك التعس، ووصمه مرتداً، لا يستحق تلك الرفاهية الكبيرة التي نالها وسط المسك والصندل وأجساد بنات الحور. وشراب الحميض الحلو المخلوط بالعسل الذي كان يقدم لعلية القوم فقط بما فيهم الشهداء.

كان سماهيل راقداً على سواعد اثنين من أفراد السرية، جرحه النزق لم يتغير أبداً، لا عمقه ولا لونه ولا رائحته المميزة، ولا ذلك السائل الأصفر الذي ينز بلا انقطاع، وعد في أحد الأيام سائلاً مباركاً، حين هاجمه النازحون وتمسحوا به، وسألوه أن يهبهم الذرية. كان في تلك اللحظة في أوج الحمى برفقة واحدة اسمها (تمنوس).. يرتعد.. يا تمنوس.. ضميني.. يا تمنوس.. قبليني، وقد همس المصّاص

الـذي وجدتـه فجأة خلف أذني، إنها تلك الجنية الحسناء التي ظهرت ذات لـيلة في مضارب آل شكر البعيدة في البادية، حين كان سماهيل هـناك، ولطعت على صدر كل من شاهدها، في موضع القلب، وردة حمـراء قبل أن تذهب، لكنه لم يكشف عن صدر الجريح أبداً من قبل ليعـرف، ووجدت نفسي بلا وعي اقترب من التعس وهم يضعونه أمـام خيمة القائد، أكشف عن الصدر المواري خلف الخرق، ولا أعثـر علـى تلك الوردة الحمراء، ولكن آثار ضب الصحراء وقد حفرت عميقاً.

كان القائمقام برهاني، ومساعداه الجديدان، اللذان لم أكن أعرف اسميهما وأسميهما في سري، مقهور ومقهور كناية عن اختلالهما، يقفون صـامتين أمام معجزة الجريح، وجوههم عابسة، وعيونهم متورمة، وثمة حـيرة واضحة لا تخطئها أي عين ترتسم على تلك الوجوه العابسة.. أخـبرت القائد داخل الخيمة بالأمر، وخرج وأخبرت التقلاوي وجبّار القـرنين أيضاً، وجاءا خلفي يركضان.. وكانت وقفة علنية، ترك على أثـرها المجـندون انـشغالهم بالحرب من دون حاجة لفحيح الكارور، وتجمعوا يتأملون ويستمعون وعاد أولئك الذين ذهبوا للتأكد من كفاءة القـبر، بـاسمين ومهللين وقد تأكدوا من صلاحية القبر وكفاءته لضم الجسد.

تحـدث بـرهاني، وانتبهت لأول مرة إن في صوته رنة ذعر، ربما أكثر من تلك التي كانت في يوم ثبتت بنوة مقهور للمتقي، وعين قائداً للجيش. وقد كان دائماً ذا صوت غاشم بلا تكسر ولا عواطف. كان يقول مخاطباً الأمير طلسم:

– جربنا كل شيء يا سيدي.. ولم يشع منه النور أبداً ولا توجد أي دلائل بأنه سيشع يوماً.

لم يكـــن إشـــعاع النور الذي يقصده مشرف الغسيل برهاني، مفـــردات تـــوبة يقرأها على الوجه أو اللسان، كما يحدث في شأن المغـــسولين العـــاديين ممن تمردوا أو فروا وأعيدوا، أو الذين كانوا عـــالقين بثـــياب النصرانية أو البوذية أو غيرها من الديانات، كما حـــدث في حالتي، ولكنه نور آخر.. هو في الحقيقة نور الانطفاء أو نـــور الموت... فقد كان سماهيل غريماً لولد من صلب قائد الجهاد، وحـــاول منعه من تلبية النداء حين ناداه النداء ولا مجال له ليتذوق نـــور الحياة مرة أخرى، وقد عرفت بأنه لم يقتل علناً بالسيف، لأنه كـــان جريحاً، والتعاليم لا تسمع بقتل الجريح مباشرة ولكن بغسيله حتى الموت.

- وماذا تقترحون يا قائمقام برهاني؟

ســـأله القائد، وقد بدا مثل الجميع، مدثّراً بالحيرة الكبيرة، وأظنه كـــان خائفاً أن يصدر أي فتوى في ذلك الشأن الغريب، وتجري الآن تحـــت سمعه وبصره، ملحمة شهوانية فذة بطلها الجريح المعذب باللذة، وجنـــية اسمها همنوس، ظهرت ذات يوم في مضارب آل شكر ولطعت على كل صدر وردة حمراء.

- لا شيء يا سيدي، ونترك الأمر لتقديركم.

كانـــت (تقديـــركم) تلك التي نطقها برهاني، ورطة كبيرة كما أحســـست من ملامح القائد التي تبدلت مرات ومرات، وعينيه اللتين بـــدأتا تـــتلونان بالجمر، وتعضان على الوجوه الملتمة أمام المشهد، في خـــرق علـــني لنظام الكتيبة لا يحدث إلا نادراً وأخاف أن تتوقفا عند وجهـــي لأكلف بأمر شاق لا أعرف كيف أنجزه، وفي داخلي جروح ربمـــا أعمق كثيراً من جرح سماهيل، لكن العيون لا تراها.. عينا القائد تتقافزان، توقفتا للأسف عند وجهي وأسمع صوته يخاطبني:

- كنت فيما مضى نصرانياً يا سعد المبروك.. والنصارى يعرفون بعض الأمور الدقيقة برغم كفرهم.. ما رأيك؟

- لم أعد نصرانياً ولا كافراً يا سيدي.

صحت في حماس مرتعب، وأعض على كل كلمة أخرجها، كل شيء أحتمله في الدنيا ولا سيرة الكفر التي هي في الواقع سيرة الغسيل، السيرة التي أخرجت بسببها طلحان العجوز من معسكر الكتيبة ذات يوم، ليعود ميّتاً في جيش مختل من الملثّمين، والسيرة التي قد تهوي بي الآن إلى القاع، حتى لو داعبني بها قائدي الذي لا يجيد الدعابة.

- أعلم يا سعد.. أعلم.. فقط ما رأيك؟

بالطبع لا يملك التابع أي رأي، ويوجد التقلاوي المساعد بسيفه وصقره وصوته الغليظ، وجبّار القرنين عالم الخفايا ومنسق الأمور السرية، وفي النهاية هو.. عبّادي طلسم الذي يستطيع نحر سماهيل الآن أمام الجميع، من دون أن يؤاخذه أحد حتى لو كان ذلك ضد التعاليم، لكن الأمر أكبر بكثير.. ولم يشاهد أحد أبداً من قبل، حتى ودعة المصّاص، صديق الجروح وآفات الأرض كلها، جرحاً بهذه الوسامة لا تكبر ملامحه ولا تصغر ولا ينقطع عن إفراز سائله الأصفر. لم يشاهد أحد جريحاً يحيا لأكثر من خمسة أشهر داخل الحمى اللذيذة، ولأكثر من ثلاثة أشهر في بيت أعد للموت ولا يموت.. المسألة كبيرة جداً، لكني سأتحدث متجاهلاً نظرات التقلاوي الغليظة التي تنهشني:

- أرسلوه إلى السور يا سيدي. ودعوا أمره للإمام المتّقي.

هدر الجميع كما لو أن صاعقة هبطت..

أعزه الله.. أكرمه الله.

أحسست بتأنيب الضمير حين اقترحت ذلك الاقتراح، هناك في السور لا توجد سيطرة حقيقية بالرغم من وجود قائد الثورة، وقد لا

تكـــون التعالـــيم واضحة، أو واضحة ولكن مغيبة بفعل سكر همجي، يتـــرنح بـــه مـــن شربوا نص أباخيت على هواهم، وبالتالي ربما يموت سماهـــيل حتى قبل أن يصل أمره للمتَّقي.. لكن لن أدع ضميري يقتلني ولم أكـــن مسئولاً عن شيء داخل النص من دون إذن من قائدي، وقد مات حارس ساحة الرعي في الواقع، في ذلك اليوم الذي حاول فيه أن يوقف الولد المهووس من الفرار.

في نفس تلك اللحظة، ومن مرقده أمام خيمة القائد على فراش الجنـــية تمنوس، حمل الجريح سماهيل، وضعوه على ظهر ناقة عريضة من تلك التي تحمل المتاع وعدة الحرب أثناء السفر، وبرفقته عدد من المجـــندين، بقـــيادة ناتـــف، قائد سرية الموت الجديد، وانطلقوا إلى السور، وكانوا يحملون رسالة من القائد كتبتها بألفاظه الخاصة على ورق أصفر، كجزء من وظيفتي، وتحكي سيرة الجرح منذ أن انفتح في ساحة الرعي وحتى اللحظة التي خرج فيها من بيت الغسيل كما دخلـــه. لم تذكر أي مآثر لسماهيل كانت له قبل أن يوصم زنديقاً ولا حـــتى أيام تفانيه في السقاية والحلب، وانتقاء الخراف التي تشبع وإبعاد الخراف التي تصيب بالمغص ومرض الزفر، أو أيام استشهاده في خـــيمة الـــشهداء على فراش الحوريات، وتسكعت سيرة حياته المحذوفة بين ساحة الرعي ساعة أن حاول إعاقة الأمير مقهور، وبيت الغسيل ولا شيء آخر.

كنت أشاهد الركب وهو يبتعد خاباً في اتجاه السور، أفكر في النـــبع الكبير الذي سمعت عنه كثيراً ولم أشاهده قط لكنني تخيلته، وأيـــضاً في معجزة الجرح التي قطعاً ستهز بعض الشعرات في رأس المتَّقـــي كما هزت شعر قادتنا كله، ذلك لو قدر لسماهيل أن يصل حتى يراه المتَّقي ويحكم.

لكـــن ما أصابني بالدهشة حقاً ووضعني في حيرة لأيام طويلة، ما سمعـــته في اليوم التالي وأنا أمر على خيام النازحين، أتأكد من طعامهم وشـــرابهم، وفهمهـــم للـــثورة وإنهم يتبعون التعليمات بشأن إخراج الفـــضلات في الخلاء بعيداً عن المعسكر، وكانت مهمة كلّفت بها من قـــبل الأمير طلسم. أخبروني همساً، بأن معجزات السائل الأصفر الذي كـــان ينـــز من جرح سماهيل الشكري، قد بدأت تهل، فقد أحست ساتانة الريفية، بجنين حي يتحرك في بطنها، وكانت امرأة عاقراً لم تحمل أبـــداً في زواج دام أكثر من عشرة أعوام، أخبروني بأن الشاب سلماني الذي يبلغ التاسعة عشرة من العمر، قد تخلص من ريالته التي ولد بها إلى الأبـــد، وكانت تعيقه عن الحب والزواج وأن يمشي متبختراً في الريف كما يفعل أنداده، وسحبوني من يدي إلى ركن قصي في إحدى الخيام، لأهنـــئ العم شايع، أحد الرجال المعمرين، بعد أن حرك قدميه أخيراً، وعـــاد إلى المـــشي الذي انقطع عنه لأكثر من عشرين عاماً بعد عدة لطخـــات من السائل الأصفر، أحضروه له حين هاجموا الجريح.. كانوا يتضرعون في صمت، رافعين إلى السماء أياد شققها الجهد أو الزمن.

الفصل السادس

أسرار الليل

- 1 -

ودعة المصّاص في قمة النشوة، يصفّر بسعادة، ويكاد يرقص طرباً وهو يردد لحناً بدوياً قديماً من ألحان آل بطاح الذين ينتمي إليهم، يقطعه بين حين وآخر، حين يرخي أذنيه ويتصنت لما يحدث في الخارج أو يضع يده على قلبه متحسساً هياج النبض.. لقد التقى حبيبته حنّو، صبية الخمري البائسة بعد فراق طويل. وأكثر من ذلك، أهداها خاتماً فضياً بفواريص خضراء، عثر عليه في حطام مدينة السور، وربما يتزوجها قريباً، لو قدر له أنا يحيا ليتزوج، وقدر لها أن تكمل نسج ثوبها الجديد، الذي بدأته بالفعل، في أول خطوة للتوبة التي اهتدت إليها أخيراً.

المكان، خيمة الشهداء التي افتتحت من جديد بعد أن رشت بالمسك وبخرت بالصندل وفرشت ببرش السعف الملون بألوان قوس قزح، واحتضنت شهيدها الجديد الذي كان في الواقع جبريل لالو، قائد سرية جبّارين الفظ، وتد الغسيل الرهيب، وسطل العقاب المتحرك.

كنت في تلك الأمسية واقفاً متصلباً في خيمة القائد طلسم، أعيد رواية قصة أم جدائل ساكنة بئر الشياطين، والولد الفولاني عبد الخير الذي انتشلها وجرها إلى عش الزوجية، بعد أن عدَّلت فيها قليلاً، ووصفت مشهد العرس المتخيل، وهو يقام بطقوس قبيلة الفولاني التي كنت أعرفها، وشهدت في السابق أعراساً فولانية كثيرة، طقوس رقصة (العرضة) التي تهتك فيها الأرض بأقدام الشباب، وطقوس مناداة المطر،

وتـبرك البـنات العازبات بالعروس، حين يدلقن على وجهها العسل ويلحسنه ويذهبن مطمئنات إلى أسِرَّتهن، يحلمن بالعريس الفارس الذي سيأتي لا محالة. كنت أردد في ثقة قول العجوز جناحان في تفسير الفرق بين مغص النساء ومغص الرجال.. واحد ينتهي بنـزول الدم، والآخر يبدأ بنـزوله.

كان القائد مغتبطاً بلا شك، تلاشت جلافته تماماً بالرغم من أن الأخـبار الأخيرة التي جاء بها رسل المتَّقي، شددت على ضرورة إبقاء الاسـتعداد عالـياً جـداً، واحتمال وجود مئات الهالكين من جيش الحكـومة، يتحاومون قرب السور، بعد فرارهم من ساحة الوغى التي يـسيطر علـيها الثوار من نصر إلى نصر. كنت أتمنى أن يذكّره مغص النـساء الذي حرصت على ترديده أكثر من مرة، بذلك الصراع المعلق بيننا على أنثى هو يملكها جسداً وليس روحاً، وأنا أملكها روحاً وليس جـسداً، أنثى نعناعة عنده وبنفسجية عندي.. لا فرق، لكن ذلك لا يحـدث أبـداً، يرفع يده العريضة، يضعها على جبينه العريض ويطرق مفكـراً، ولا بـد يتذكـر مغصاً نسائياً كان في بيته ذات يوم ينتهي بنـزول الدم، ذلك قبل أن يتبعثر قائداً لفرع من فروع الفوضى. لم أكن أملك الكثير من سيرة عبَّادي طلسم، لا أعرف له زوجة ولا ولداً، ولم يكن في ذهني أكثر من ذلك الحمّال الذي كان يحمل ثقافة السوق الشعبـي على ظهره سنوات طويلة، في نهارات البيع والشراء، واختفى بعـد ذلك ليعود أميراً. لم أشهد أمسياته ولا أعرف أين كان يقضيها، ولا كـان صـديقاً ولا عـدواً، ولكن مجرد فرد في مدينة السور، قد أحتاجه مرة ولا أحتاجه مرات، وحتى ذلك التمرد الشهير الذي قام به الحمّالـون ذات مـرة في السوق، بسبب ضعف أجورهم، واستفزاز المـشترين لهـم علناً، وتدخلنا كمسئولين لإطفائه وإعادة الأمور إلى

نـــصابها، لم يكن طلسم لامعاً فيه ولا شاهدته يهتف أو يحرض أو حتى يقـــف مـــستفزاً لنا أثناء المفاوضات، مثل آخرين وقفوا واستفزوا، ولا أنكـــر إن ظهـــوره كأمير في ثورة الجهاديين بعد ذلك أدهشني، لكن الدهشة تلاشت حين اقتربت من النار أكثر، ورأيت وقودها وموقديها.

سألني بعد أن حرك عدة حبات من مسبحة الصوفيين بين أصابعه:

- هـــل كـــان الزعيم أبو كلام موجوداً في عرس عبد الخير وأم عكش؟

كان يقصد زعيم قبيلة الفولاني الذي كان أول من بايع المتَّقي من زعمـــاء القـــبائل، ويقيم الآن في السور كمستشار عرقي للإمام المتَّقي كمـــا سمعـــنا، ولأن القصة كانت قديمة ونصفها مخترعاً، فقد فاجأني السؤال، ولا أعرف إن كان عبد الخير فولانياً أم لا.. صمت برهة وأنا أفكر، ثم قلت:

- لا يا سيدي.. لقد حدثت القصة أيام زعامة زكريا منجور.

وقد كان زكريا منجور في الواقع، زعيماً تاريخياً لقبيلة الفولاني، ولـــن يستطيع القائد سؤاله أبداً، ذلك لوفاته منذ سنوات طويلة، وإنه الآن مجـــرد سيرة في كتب التاريخ. هز رأسه باقتناع، وتهيأت لتمزيق أحـــد ثـــيابه الخضراء الباهتة، للمرة العاشرة وترقيعه من جديد، لأن الكتيـــبة قـــد تؤمر في أي وقت بالتحرك والانضمام للجيش المقاتل، ويحتاج إلى الزهد المبالغ فيه، والذي قد لا تسنح الفرصة لتفصيله إذا ما بعثر الاستقرار، وانضممنا للنار.

فجـــأة اقتحمت الخيمة بواحد من سرية جبّارين، كان اسمه (أبو الـــبكور) وكـــان فيما مضى دجالاً مغموراً في مدينة السور لا يثق في تنـــبؤاته أحـــد، بالرغم من زهوه وغروره وادعائه بالإتيان بالمعجزات، وكـــان هـــو الـــذي قام بختناني الصعب الذي مت فيه وحييت بعد

انــضمامي للكتيبة. اختفى فجأة مع الذين اختفوا من المدينة وظهر في فقــرة هامــة من فقرات نص أباخيت، ليس دجالاً بالطبع ولكن فرداً موقّراً في سرية جبّارين، حراس بيت الغسيل، وحراس المعسكر، ودالقي الهدير المر حين يأتي وقت دلقه. كان أبو البكور لاهثاً ويصرخ في هلع:

- سقط الزعيم جبريل.. سقط الزعيم أيها القائد.

- هل لدغه ثعبان؟

كان الأمير يسأل مهتدياً بلا شك بتفاصيل لالو التي لن تسقط من لــدغ عقــرب مهما كان غادراً، ولكن لا بد من آفة أشد فتكاً من العقارب.

لكــن الجندي لا يعرف، ويهز رأسه في حيرة، فقد وجدوه ملقى علــى الأرض في أحد خيام السرية عرقاناً، ويهذئ، وليس على جسده آثار عض.. لا عض ثعبان ولا عض عقرب.

- وأين هو الآن؟

- في خيمة الشهداء أيها القائد.. برفقة المصّاص.

لم يكــن أحــد ســوى القائد عبّادي طلسم، يملك صلاحية أن يوصــف أحــد شهيداً، ويدخل إلى تلك الخيمة المميزة، حتى لو كان شهيداً حقيقياً سقط في معركة الخير والشر، لكن جبريل لالو ليس أي أحد، وسرية جبّارين التي يتزعمها ليست أي سرية من السرايا المتعددة في كتيــبة متنافــرة الأجناس والأعراق، فقد كانت تملك الدم الفولاني الــرهيب. وأعباؤها تفوق أعباء أي سرية أخرى حتى في استهلاك ريح الجنة على أجسادها العريضة. تجاوز عن الأمر ونهض واقفاً، وتبعته إلى الخــارج وبــيدي فانوس مرتعش يضيء قليلاً من ليل البراري. كانت ســاحة الخــيام خامدة في ذلك الوقت، وقد التم الجميع في خيامهم، يمارســون الرغــي أو الخفايــا السرية أو يستدعون أحلام الحوريات

البعيدات، وربما يحسون بمغص لأنهم ليسوا في الحرب ولكن على هامشها.

وجدنا الخيمة قد أعيدت إلى سابق عهدها حين كان يشغلها سماهيل الشكري قبل أن يوصف مرتداً، ويرحل إلى بيت الغسيل، ثم إلى مدينة السور بعد ذلك.. رائحة المسك الكثيفة، رائحة بخور الصندل العابقة، وبرش السعف الملون بألوان قوس قزح، وكانت صناعة ذلك النوع من البروش، صناعة رائجة في مدينة السور قبل أن تتحطم، يغزلها النساء المدربات بفن، ويبعنها في ركن خاص في سوق أبي جهل القديم اسمه ركن النقش، كترف بسيط ولكن ذا جدوى.

كان جبريل لالو ممدداً على البرش السعفي الملون، جسده فائضاً بغزارة، وقدماه في التراب، يهذي برطانة بعضها مفهوم وبعضها مغلق تماماً في لغة أهله الفولانيين، ولكن قطعاً لم يكن على فراش حورية، لأن لا اسماً مؤنثاً سمعته ينطق ولا لذة رأيتها تدلق. وكان المصّاص باركاً على قدميه بقربه وقد جرّده حتى من سراويل الدمور الثقيلة التي كان يرتديها، وغطى عورته المتصلبة بخرقة قديمة متسخة، كانت العورة تهزها بلا توقف وتزيحها أحياناً لتطل ببذاءة.. كان يفحص رأسه وصدره وعينيه وإبطيه وبطنه وما بين ساقيه، ويهز رأسه في حيرة، وحين انتهى.. نهض واقفاً وقال يخاطب القائد:

- إنها الحمى الفاجرة يا سيدي.

لم يتذوق القائد ذلك الوصف كما بدا لي، حيث رأيت لسانه يمصمص على شفتيه الغليظتين وملامحه تمتعط وتتلون بالجمر، وما كان جبريل لالو فاجراً أبداً لتصيبه مثل تلك الحمى التي كنت أعرفها جيداً، وقد مات بها أحد أقاربي من قبل، وقيل أنها تنتقل بواسطة الوقوف

طويلاً تحت الشمس الحارقة أو الانحشار في الجحور الرطبة سيئة التهوية، وتؤدي لتصلب العضلات، لكن لا أحد يعرف لماذا سميت فاجرة، ولعلها لم تكن مرض جبريل الحقيقي، لكنّها وردت إلى ذهن المصّاص من إيحاء العورة التي تصلبت، وتهز الخرقة القديمة مطلة برأسها بين حين وآخر. كان المصّاص سريعاً في التقاط الفطنة، وسريعاً في دلقها أمامنا حيث جاء التقلاوي وجبّار القرنين، وبرهاني، وبعض أفراد سرية جبّارين:

- ليست خطيئة يا سيدي ولكنه اسم يطلق على هذه الحمى. اسم فقط.

- وكيف أصابته؟

- لا أعرف يا سيدي.

- وما هو علاجها؟

سؤال بيّنت عينا المصّاص الضيقتين المنفعلتين، إنه لا يعرف إجابته بدقة، لكنه يجيب:

- بعض اللبخات النباتية يا سيدي.. سأجهزها حالاً.

كان قد مضى إلى كيس كبير في أحد أركان الخيمة، أخرج منه نباتات خضراء وصفراء وبلا لون، رشها بالماء بعد أن بصق عليه عدة بصقات لزجة، وخلطها بطحين الذرة والثوم، وابتدأ يلصقها على مساحة الجسد كله، بما فيها العورة المتصلبة. والمريض يهذئ ويتصلب أكثر.. ونطق أخيراً باسم امرأة، خمنت إنها حوريته التي جاءت في النهاية، وسيبدأ العراك اللذيذ الآن.. صرخ.. يا سعيرة.. يا سعيرة.. والتقط القائد الاسم، قال في أسى ونحن نخطو خارجين، لنترك المصّاص يعمل:

- إنه ينادي أمه سعيرة رحمها الله.. يا لطيف.

وكانت مناداة الموتى في عرف الجميع، علامة شؤم لم يكن القائد يـــود سماعها أبداً، وما زال بحاجة لجبريل الذي يعتبره واحداً من أعظم محركي الحرب حين يدلق الهدير ويصرع.

فـــي نفس تلك الليلة التي كانت من الليالي الداكنة، حيث غطت فـــيها الـــسحب ضـــوء القمـــر، كان خبر الشهيد المتصلب في خيمة الشهداء، قد انتشر في المعسكر كله، تناقلته الألسنة، ووصل حتى خيام إيـــواء الـــنازحين، حيث يقطن الريف المصغر بكل خيره وشره، بكل جـــدواه وعـــدم جدواه، وفوجئ أفراد سرية جبّارين الذين يحرسون الخـــيمة، ويحرســـون حمـــى قائدهم التي صلبته، بالعشرات من أولئك الـــنازحين بما فيهم نساء وأطفال، وشيوخ مسنون، يتكالبون عليهم في نشاط، طالبين التبرك بالحمى الجديدة، وما زالت ثمة حاجات لديهم لم تكـــتمل تلبيتها بعد أن ذهب سائل سماهيل الأصفر، واضطرت كتيبة المـــوت بقـــيادة ناتـــف، أن تشارك في الحراسة وأن تستخدم العصي، وتكسر الهواء أمامهم حتى يتفرقوا.

المـــصّاص منتعش، يصفر ويردد ألحان البدو الحماسية، بعد ثلاثة أيـــام من تولي مهمة الشهيد الجديد الذي خف تصلبه الآن في مواجهة لـــبخات النباتات، صارت مناداته لأمه سعيرة، أقل تردداً، وابتدأ يحس بطعم الحميض الحلو المخلوط بالعسل الذي يصبه المصّاص في حلقه عدة مرات في اليوم، يحرك لسانه ممصمصاً للشفتين الغليظتين، وأحياناً يترك اللسان خارج الفم، كأنه يطالب بالمزيد.

دخلـــت على المصّاص في حالة نشوته تلك، وظننتها في البداية، نشوة طبيب أخرق استطاع أن يخفف من حمى مريض، لكن الأمر كان مخـــتلفاً، فقـــد كانت نشوة القلب المكوي حين التقى نصفه، ونشوة الجـــسد المحروم حين أطفأ حرمانه، وتتفكك الغوامض شيئاً فشيئاً، في

ذلـــك الثناء المعطر الذي أغدغه أمامي على الزعيم جبريل لالو، الذي زوده بأســـرار الليل كلها أثناء رعشة الحمى، وسمح له باستخدامها من دون أن يدري.

أســـرار الليل؟.. أي ليل وأي أسرار تفعل كل ذلك، ماذا يحدث يا مصَّاص.. ماذا يحدث يا صديق.

كانت سرية جبّارين التي كلفت بالحراسة بعد فرار مقهور لحذف مفـــردة الفـــرار اللئيمة المنبوذة من مجتمع الكتيبة، قد زودت بما سمي بأسرار الليل، وهي عبارات أو جمل قصيرة، تتغير مرة في الشهر، وأشبه بالـــشفرات التي يسمح للذي يعرفها وينطقها أمام الحراس، بالمرور من دون سؤال أو جواب.. كانت في الواقع ثلاثة أسرار.. واحد يستخدم عـــند ساحة الرعي، يمنح بموجبه الحارس للذي ينطقه دابة يترحل بها، واحد عند أفراد سرية جبّارين الذين يحيطون بالمعسكر، والأخير يسمح بالمرور في كل شبر من الأشبار التي يحكمها الجهاديون، وحتى إلى مخدع الإمام المتَّقي. وقد كانت تلك الأسرار تأتي لقادة الكتائب مكتوبة على ورق مخـــتوم بختم الإمام المتَّقي، وتعمم على أفراد الحراسة أو المقاتلين الـــذي يتبعثرون في الليل، ويشمون خفاياه، ويمكن أن يفتكوا بكل من يعـــبر وليس في لسانه سر ليل، حتى لو كان أميراً أو واحداً من القادة الكبار.

مـــن خيمة الشهداء، تلثم المصَّاص بإتقان وخرج مستخدماً سر اللـــيل، من ساحة الرعي، حصل على دابة مريحة عبارة عن فرس سريع الخطـــى، بسر الليل وفي المدينة ضاع في صدر حنّو حتى قرب الفجر، وأهـــداها الخـــاتم ذا الفواريص، مستخدماً السر الكبير بثبات، لم يظنه الحراس الملثمون أبداً، ثبات مغامر ضائع، وليس جهادي حقيقي ممسك بـــريح الجنة و لم يعد إلا خوفاً من انحدار صحة جبريل مرة أخرى، وأن

يبحثوا عنه ولا يجدوه قريباً من صدر المريض. وقد أخبرني بأنه استخدم طـــريقة ابتكرها وسماها طريقة المصَّاص في غسل السر، فبعد أن حصل علـــى الأسرار كاملة، أراد محوها من هذيان المريض حتى لا تردد أمام القائـــد أو مساعد القائد، أو أي أحد آخر، عوده على الحميض الحلو المخلـــوط بالعسل، مقروناً بنشيد النونوة المجلجل، رشفة من الحميض، وفقـــرة مـــن النـــشيد، رشفة.. وفقرة، حتى توارت الأسرار تماماً عن الهـــذيان، وحل محلها نشيد النونوة كاملاً، والذي أصبح يردد حتى من دون حميض.

كـــنت أستمع إلى المصَّاص وأندهش، أتأمل جسده النحيل كأنه استعاره من طفل، وأقفز بذهني بعيداً إلى أغنية التعيسات في حي ونسة حين كادت تبكيني.. لا تلم يا لائم.. نحن ذكرى حمائم..، وحنّو الفتاة التي جاء بها الخمري من مصر زهرة، وأذبلتها غرائز السور، وأوقن تماماً إن القلـــب حين يعشق، قادر على تلوين المخازي، ويستطيع أن يكون حمامـــة بيضاء من حطام لن يكون إلا حطاماً. شكراً يا جبريل.. شكراً يـــا زعيم.. كان يردد ويدلق الحميض الحلو المخلوط بالعسل في حلق المريض المفتوح الذي يمص ويردد النشيد.

لم يكـــن مناسباً أن أقفز إلى وعكتي الشخصية في تلك اللحظة، وأسأله عن خميلة، إن كان قد سمع عنها في ضياعه الأخير، وأعلم تماماً إنـــه كان ضياعاً موجهاً إلى هدف محدد وليس ضياعاً متخبطاً قد يتعثر بـــواحدة مثل خميلة، لكن المصَّاص يعرف قلبـــي، يصادق ذلك القلب مـــن أيام بيت الغسيل الوعر، ودائماً ما يمنح صدره النحيل للعواصف مهمـــا تجمعت وصرَّت، ولا بد أنه قرأني في تلك اللحظة، لأنه أجاب في ثقة هامسة و لم أكن قد سألته ليرد:

- صاحبتك في بيت عاتكة يا سعد.. هي بلا شك.

- عاتكة؟

هتفت وقلبي يكاد يشق الصدر ويخرج، والخاتم المربوط بخيط الدوبارة في البطن، قريباً من الأحشاء يتكور ويرتفع بفعل غازات انفعالية شارك بها البطن بلا شك.. هي موجودة إذن بالرغم من اختفائها من كوابيس القائد، لم تمت بالحمى أو التخمة الكاذبة أو أي مرض آخر لعين، ولم تؤخذ بأي شهوة مختلة إلى حيث لا يعثر عليها ضائع مثل المصَّاص..

- عاتكة.. من عاتكة؟

أجن في تلك اللحظة.. وجبريل لالو، يشارك في توتري.. يرتفع بنشيد النونوة أكثر مما ينبغي، يبعثره خارج الخيمة، ويمصمص الشفتين الفولانيين، بحثاً عن الطعم الحلو..

- إنها امرأة من إحدى قبائل الزنج، تؤوي في بيتها عدداً من النساء الجميلات، اللائي بقين بعد غزو السور، ويغشاها القادة الكبار من حين لآخر، وقد عرفت البيت.. إنه في حي كاهير.. حيك القديم.

لم أسأله كيف عرف، والمصَّاص في ليل الضياع يعرف، لكن عبارة امرأة الزنج التي نطقها أمامي، ذكرتني بالمزينة خليلة الحاكم الراحل، ولم أكن قد رأيتها أو سمعت بها منذ لممنا المدينة المصغرة، حشرناها في سرداب المجد غير الآمن، وجاءت لتنحشر. اعتبرتها وسخاً متراكماً أحرقه الجهاديون حين أحرقوا مريا توموس الهائمة، ورجائي صاحب الإصبع المفقود والكثيرين غيرهما، وليست غنيمة تلم وتسبى، وخفت أن تكون قد دخلت نص أباخيت هي الأخرى تحت اسم آخر، ووظيفة أخرى غير ضم النزوات لحاكم لم يكن عادلاً أبداً في حق جسده حين اتخذها خليلة. أخبرت المصَّاص بتلك الذكرى القديمة ولم يكن يعرف أكثر مما قاله.. والواقع إنه لم يسمع بيوسف دامير إلا اسماً

يردده البدو أحياناً بلا لقب ولا مودة، لكنه الآن تحت أمري، وبأسرار الليل التي استخلصها من الهذيان، وغسلها بعد ذلك، كان مستعداً أن يمنحني فرصة أن أرافقه وأن أضيع، وربما أعثر على حبيبتي وأعانقها، وربما أموت..

- هل تذهب معي يا سعد المبروك؟ هل أنت مستعد؟..

يصفر لحنه البدوي بصوت لا ناعم ولا خشن، يضفر أغنية غير متزنة في شعر حنّو، وعينيها المشعتين، ولا كان لها شعر يستحلب الغناء ولا تملك عينين مشعتين، ولكن رماد أنثى قد احترقت بلا رحمة.. ذكرى حمامة تصف الحياة بأنها ألعوبة والهوى مجرد أكذوبة، وتقع بعد ذلك في حب البدوي معالج السموم وعاجن اللبخات.. ما أغرب ذلك.

- 2 -

- نحن عيال الدهماء.

وقفـــنا بحذر أمام ساحة الرعي التي سوِّرت مؤخراً بالخشب المر المستخلص من أشجار التبلدي المعمرة، ثبت على فتحتها الوحيدة التي تسمح بالمرور، باب من الصفيح الصدئ كان أمامه حارسان شديدان، يحملان السيف والحربة، لا يتناوبان الحراسة فيما بينهما، ولكن يؤديانها معاً.. أحد الحارسين كان فولانياً اسمه (عطروب)، وضعوه على الساحة حـــين استشهد سماهيل في البداية بمدية كانت قد وصفت مدية مرتد، والآخـــر كان حديث العهد بالساحة، أضيف في إجراء أخير يستهدف تعزيـــز الحراسة على ذلك المكان الحيوي.. حيث توجد قطعان الأكل والحليب بأنواعها، وتوجد دواب الحرب، ودواب المواصلات التي تحمل الجهاد وأيضاً تحمل المخازي إلى أي مكان.

كانـــت اللـــيلة مقمرة تماماً، البدر مكتمل في ضيائه بلا سحاب داكن يغطيه، والرؤيا تسمح بتعقب الطريق إلى المدينة من دون تعثر في الحفر، وكنت قد انتظرت في خيمتي الجرداء، حتى تضفر كابوس القائد الكبير، ارتمى هذه المرة في ساحة الوغى الملتهبة، وسمعته يحارب بضراوة مـــردداً لأناشيد الحماس المجلجلة، ويئن أحياناً كأنما نال طعنة سيف أو ضربة رمح، ثم يستغفر ويعود مرة أخرى للمعركة. كان أحد الكوابيس الـــشهيرة لديـــه، والطويلة في الواقع، سمعته عدة مرات وحسبت زمنه بدقـــة، وكان زمناً وافراً.. أربع أو خمس ساعات تكفي للضياع الذي

رسمه المصَّاص، وأدخلني في رسمه من دون وعي، حين زين لي سكة الوصول إلى بيت عاتكة، أو سكة الوصول إلى حميلة التي أأمل أن أجدها، وأجدها بنفسجية وليست نعناعة كما كان يجدها القائد. انتزعت عبارة التابع الخضراء من أحد ثيابي وأخفيتها في حفرة، حفرتها في أرض الخيمة، حتى لا تلمع في ضوء القمر فاضحة ضياعي، تأكدت من وجود الخاتم الثمين على بطني قريباً من الأحشاء، لم يتزحزح، وتلثمت بقماش ثقيل من الدمور، وانتظرت أمام خيمتي أتلفت في رعب مخافة أن يلمحني أحد، حتى جاء المصَّاص يمشي على مهل.. لحنه البدوي خافت على لسانه، والمعسكر نائم أو مستيقظ في حذر، يمارس الخفايا والأحلام المجهضة.

- من هناك؟

يصرخ عطروب الفولاني، حارس ساحة الرعي الجديد بصوت قبيلته المعروف ونحن نقترب من ظله وظل رفيقه، ومن السيفين الذين لمعا في ضوء القمر واستعدا لجز أي عنق يقترب بلا سر ليل.

- نحن عيال الدهماء..

ينطقها المصَّاص بثبات غريب ومحير، كأنه تدرب على نطقها عشرات المرات، أو كأنها تحية ود لصديق ودود، وليست اختبار أعصاب قد يهلكه ويهلكني، والحارسان يتلقياها هكذا.. تحية ود عادية، ينفتح على أثرها باب الصفيح، ونمنح بلا سؤال ولا جواب، جوادين فارهين عليهما سرجين مخمليين، ومزودان بالحوافر التي تحفر المشاق بلا تعب.. نخرج من ساحة الرعي.. راكبين مبجلين، أنا أرتجف، والمصَّاص يغطي بثباته ارتجافي.. وأمام أفراد سرية جبّارين الذين يحيطون بالمعسكر في استيقاظ مرعب بلا تثاؤب ولا جفون مرتخية.. يصرخ ثبات المصَّاص:

- أبناء جعفر وجعفر.

من هو جعفر الأول؟، ومن هو جعفر الأخر.. ولماذا وضعا واحداً من أسرار الليل الخطيرة، لا أعرف حقيقة، ولا ظننت المصّاص يعرف، ولكن يتبع هذيان جبريل لالو من دون أن يرهق ذهنه في التفكير، ونحن الآن آمـــنان وضائعان بالفعل، استلمنا سكة السور من دون أن نلتفت خلفنا، والقمر بأشعته الفاضحة لا يفضحنا، ولكن ينير لنا الطريق.

كـــان الطريق إلى مدخل بوادر، أحد أهم مداخل المدينة، سهلاً للغايـــة، قطعـــه الجوادان السريعان في زمن قليل، كان بالتأكيد تلك اللحظـــات التي استراح فيها كابوس القائد من العراك، واستغفر. على مـــدخل بـــوادر، كان يوجد عشرات الملثّمين المستيقظين حول نيران الطهي والقهوة، توجد عشرات السيوف، بعضها في أغمادها وبعضها ممـــدد على الأرض، كأنها ثعابين نائمة.. استيقظت، وهبت إلى الأيدي بمجرد أن اقتربت الحوافر، وسقط ظلانا على مجال الرؤية.

- من؟.. من هناك؟

وبثـــبات آخـــر أغرب من الثباتين الأولين، بل بقدمين لا تعرفان الرعـــشة مـــثل قدمي المنهارتين على ظهر الجواد، ترجل المصّاص عن فرسه، أحكم لثامه على الوجه، وضخ صوتاً مرعباً وكبيراً، كأنه استلفه هو الآخر من هذيان الزعيم جبريل، حين استلف أسرار الليل:

- الأواصر النواصر.

ودار المفـــتاح السحري في قفل النار من دون سؤال ولا جواب، وكنا الآن في داخل مدينة السور، ننتهك ليلها المضفر بالموت، شوارعها الـــتي كلها عداء وتحفز، والسؤال يطرح بين خطوة وخطوة.. بين نار موقدة.. وحد سيف يلمع.. من؟.. من هناك؟

الأواصر النواصر.

هي غموض آخر لم أستطع أن أفكه.. وكلمة يرددها المصّاص أيضاً من دون إرهاق.. الأواصر النواصر.. أعرف معنى أواصر الدم وأواصر القربى. نواصر المظلوم ونواصر الظالم.. ولكن أواصر من ونواصر من، كنا أنا وهو، في تلك اللحظة؟. كنت أقترب بفرسي من المصَّاص.. ألتصق به في ذعر محاولاً أن أحصل على القليل من ثباته، أستحلفه أحياناً أن يلغي الضياع ويعود بي إلى بؤس المعسكر مرة أخرى.. لا أريد حميلة يا ودعة.. لا أريد الموت يا صديق.. والمصَّاص يبدو هازئاً.. يخبطني على كتفي بيد شديدة النحول ولكن لا آثر لرعشة فيها.. اصبر يا سعد.. أثبت.. وأحاول أن أثبت.. أعد زمن الكابوس المشتعل في الخيمة الكبيرة، أعرف أنه الآن يحمل سيفه ويقاتل أعداءه ويصرعهم، وما زالت المعركة مستمرة والأعداء كثر، وحتى أولئك الذين قد يفرون من ساحة الوغى، كان الكابوس سيطاردهم.. أمامي وقت قد أرتوي فيه بالبنفسجية بعد زمن طويل من الحرمان.. لماذا أنا خائف؟.. أحاول الثبات.. أحاوله جاهداً.

في أحد الشوارع الكبيرة القريبة من مجلس المدينة القديم، واجهنا مشهد غريب. كان حوالي خمسة رجال عراة الصدور، أجسادهم مضمخة بالعرق، وسراويلهم ممزقة، يحملون جسداً مغطى بالخرق، يمشون به في تعثر، وهم يرددون الثناء على المتَّقي، ليس في أصوات متناغمة، ولكنَّها أصوات ذعر تسقط وتنهض.. كان ثمة عدد من الملثَّمين، يحملون الحراب والسيوف يتبعونهم، وثمة رائحة مألوفة شممتها مراراً، ولا أستطيع أن أخطئها.. رائحة جرح وسيم ونزق.. التصقت بالمصَّاص.. ضربته على ظهره.. وأسمعه يخاطبني هامساً:

- إنهم يحملون سماهيل الشكري؟

- سماهيل الشكري؟

- نعـــم.. لقـــد غسل في النبع الكبير لأيام طويلة، ولم يشع منه الـــنور.. والآن أضـــيف إلى مـــواد الغـــسيل كجزء من العقاب تماماً كالعـــناكب والجرذان والضفادع المسعورة، حيث يحمله المغسولون في الليل، يطوفون به الشوارع حتى الفجر، ويعودون به إلى النبع الكبير.

كانت فقرة غريبة جداً بلا شك، في ذلك النص الغريب من بدايته وحتى هذه اللحظة التي نقف فيها ضائعين لا نعرف إن كنا سنصل إلى غاية أم لا، أن يستشهد أحد ويمنح البركة والذرية لمن أرادها، وأن يرتد وأن لا يمـــوت ولا يبرأ جرحه، وأن يتحول في النهاية إلى فقرة عقاب أبديـــة.. راع الأغنام من قبيلة آل شكر.. هل هو حقاً راع أغنام من قبـــيلة آل شـــكر؟.. أم وهماً ظنناه حقيقة وهو مجرد وهم؟. لا يمنحني المـــصّاص أكثـــر.. ولا يعرف أكثر.. وينطق بمفتاح النار أمام الحراس الملثّمين الذين يتبعون العقاب بلا أي إحساس بأنهم يتبعون معجزة:

الأواصر النواصر.

خـــرجنا مـــن وســـط المدينة قرب خزي العين القديم بالأواصر النواصر، سرنا طويلاً بتلك الأواصر والنواصر، وحين دخلنا حي كاهير أخيراً، خفق قلبـــي بشدة، كان بيتي الذي ولدت وعشت فيه موجوداً ولكـــن حطام بيت، نوافذه محطمة، وتلك الحديقة التي كانت جزءاً من مهـــام مريا توموس الهائمة، تسقيها وترعاها حين تخرج من مطبخها، مجرد أرض بور بلا ورد ولا نجيل.. هناك كان بيت حميلة وبيت يوسف دامير، وبيوت الثراء التي ما توقعت يوماً أن تموت ويموت سكانها.. وفي اللحظـــة التي أتخيل فيها الكابوس القيادي قد أسر زنديقاً حاول الفرار، ويربطه الآن بالحبال تمهيداً لإرساله إلى حتفه في مدينة السور، كنا أمام بـــيت واسع، كان فيما مضى ملكاً لقبطي من تجار التحف التذكارية، اسمـــه جرجاس، وكان وحيداً وأعزباً، ومحاطاً بعلامات استفهام كثيرة

عن سيرته التي ترد نادراً على ألسنة الآباء والأمهات.. سيرة تحذيرية.. ألا نقتـــرب من ذلك البيت أبداً. وحين كبرت وتعلمت الحياة وعرفت معـــنى أن تكون ثرياً وناعماً، ومرصعاً بالخواتم الذهبية في أصابع يديك ولا زوجـــة أو ولد، استدعيت علامات الاستفهام تلك وفسرتها جيداً. لم يكـــن جرجاس موجوداً في السور ساعة غزوها، كان في رحلة إلى مـــصر الـــتي يزورها مرة في العام لجلب الجديد من تجارته راكباً سكة القـــوافل، وأخالـــه قد نفد من فقرة مهلكة في نص أباخيت، لم يكن لـــيفلت منها لو كان موجوداً. أمام الباب كان يقف ماردان أسودان، لهمـــا ملامـــح عقـــربين ســـامين، ولكن تتأرجح ضفائر نسوية على ظهـــريهما. كان خصيَّان بلا شك، ولا أعرف من أين جاءا، و لم يكن في مديـــنة السور ولا ضواحيها، حضور لتلك السلاسة أبداً من قبل، وكانـــت ثمة كتابة أعلى الباب، بخط ركيك.. بيت الأم عاتكة.. أثنوا على الإمام المتَّقي.

صرخ المصَّاص ونحن نترجل عن جوادينا، في مواجهة الخصيين..

الأواصر النواصر..

ثم بسرعة شديدة، ردد:

أعز الله المتَّقي.. أكرمه الله.

لم ينطق أي من الماردين حرفاً واحداً، ولا تغيرت ملامح العقارب الـــسامة علـــى وجهيهما، مد أحدهما يده إلى الباب وفتحه، وكدت أسقط من الانفعال.. هل من الممكن أن تكون خميلة جماري البنفسجية أو النعناعة، على بعد ست أو سبع خطوات من هنا؟.. هل من الممكن أن نتعانق ونبكي ونستعيد قليلاً من الحياة القديمة؟.. هل من الممكن أن نـــسمي ولداً.. أن نسمي بنتاً.. هل؟.. وأتذكر في تلك اللحظة ما لم أضع حسابه أبداً وأنا أتبع ضياع المصَّاص من دون وعي، ماذا لو وشت

بـــــي صاحبة البيت، الأم عاتكة للقائد طلسم حين يأتي؟.. وما الذي سيحدث بعد ذلك؟

لا تفكر يا سعد.. لا تفكر.

خـــبط المصَّاص على كتفي وهو يسحبني للداخل.. أجل التفكير الآن.. ثم رفع صوته الجديد الهادر:

- يا أمي يا عاتكة.

- 3 -

كنا في صالة مرتبة بعناية، مفروشة ببساط مخملي مزخرف، وقد رصَّت عليها مقاعد من الخشب اللامع، وطاولات نحاسية، مغطاة بوبر الإبل، بدت لي كأنها مقاعد وطاولات خزي العين القديم، لكني لم أكن واثقاً، وكانت توجد عدة فوانيس ذات ضوء خافت ومتراقص موزعة في نسق جمالي، بدت لي أيضاً كأنها فوانيس خزي العين، وكان بخور الصندل عابقاً بشدة، ورائحة النساء أيضاً عابقة ولا وجود لرائحة المسك التي هي ريح الجنة.. لم يكن المكان شبيهاً بحطام المدينة التي عبرناها للتو، ولكن بقعة عامرة قصد لها قطعاً، أن تكون بقعة مبهجة ترتاح فيها الأرواح الكبيرة. تنفست بقليل من الارتياح حين ظهرت الأم عاتكة، خارجة من أحد الممرات الضيقة في ذلك البيت الكبير الممتلئ بكثير من علامات الاستفهام، لم تكن المزينة، خليلة الحاكم الراحل يوسف دامير، ذات الجسد المترهل والعطر النحاسي المدبوغ في الجلد، ولا تشبهها إلا في ظلام الوجه الزنجي، وكانت في الواقع امرأة في مقتبل العمر، في الثلاثين أو الخامسة والثلاثين، نحيفة وجميلة وناعمة، وذات ابتسامة جذابة، استطعت أن ألم بها كاملة واستبشر بها، برغم الضوء الشحيح والخوف الكبير الذي يعصف بقلبي. لم تكن قطعاً تعرفني، ولا بدت لي تعرف المصَّاص، لأنها توقفت على بعد خطوات منا، وخرج منها صوت أشبه بتغريد عصفور:

- ماذا لديكم يا أحباب؟

لم تقـــل كـــيف جئتم إلى هنا، وتعرف تماماً إننا أواصر ونواصر، جئـــنا بـــسر الليل الكبير الذي لا يملكه أي شخص عادي، ولكن سر اللـــيل في الواقع مشتت عند مئات، بل آلاف المجندين الذين يحرسون خفايـــا اللـــيل، ويشمون الطرق والسراديب، وربما يفر به أحدهم من موقـــع حراسته ويأتي راكضاً خلف الأحلام.. لا يهم.. ذلك ما قرأته علـــى وجـــه امرأة الزنج الجميلة، الأم التي في الواقع يمكن أن تصنف واحـــدة مـــن حوريات الأرض، تماماً كما صنفت الملكة الراحلة نديمة مـــشغول، ويمكـــن أن تزف إلى تابع يساومه قائده على غنيمة يملكها روحاً.

- ماذا لديكم يا أحباب؟

المـــصَّاص يـــتلقف سؤالها، وبثباته الذي حيَّرني منذ أن انطلقت ضائعاً خلفه من معسكر كتيبة صقور.. عيال الدهماء أولاً.. أبناء جعفر وجعفر، ثم الأواصر والنواصر، يرد:

- نبحث عن الأخت حميلة.. لدينا رسالة لها.

- حميلة.. حميلة..

بدت الأم متفاجئة بشدة من الاسم، وأحسست بالبؤس حامضاً مراً علـــى صدري، ولا يمكن أن يغيب اسم كهذا عن ذاكرة امرأة تؤوي عدد من الجميلات الغنائم، في بيت لا يسع أكثر من عشرة أو عشرين منهن.. يـــدها اليمنى تحك رأسها الملفوف بقماش وردي نفرت منه الخيوط، ولا يبدو أنها تعثر على شيء.. وبصوت العصفور المغرد في حلقها ترد:

- ليست هنا..

قالتها، واستدارت نحو الممر الذي جاءت منه، كأنها تنهي غزوتنا المكلّفة، تعدمها في لحظة، وما زال في حلقي عطش.. وفي قلبـــي نبض مهـــتاج، وكابوس القائد في الخيمة الكبيرة، في وقت حرج بلا شك،

ويمكن أن ينتهي في أي لحظة. تلك اللحظة أمسكت باستدارتها قبل أن تكـــتمل.. نطقت بتفاصيل لم يكن يعرفها المصَّاص قطعاً، ولا أردته أن يعرفها لولا الضرورة.. وبدا متفاجئاً جداً حين سمعها من لساني، كنت لاهثاً وأنا أردد:

- الفتاة التي تمشي أثناء النوم يا أم.. التي تفرش سريرها بالحصى والرمل.. التي تطيل أظافرها، وتخربش بها الحيطان.

توقفت امرأة الزنج عن إكمال طردنا الذي بدأته حين استدارت بعيداً، عادت بوجهها مرة أخرى إلينا، وكانت باسمة، لكن ابتسامتها لا تضارع ابتسامتي التي خرجت من وسط الارتباك:

- تقصد النعناعة.

- نعم النعناعة.

صـــحت في جنون وقد أمسكتها بلا شك.. النعناعة.. لا بد أنه الاسم الذي تحمله جميلة جماري عند الأم عاتكة، وداخل نص أباخيت تماماً كما أحمل اسم سعد المبروك. اسم الكابوس وليس اسم دارسة علم الجمـــال التي عادت من مصر لتزهو بذلك العلم في مدينة لم تسمع به، لتحـــبني وأحبها في نادي يوتوبيا المزركش. لنـــزخرف أيامنا ونشتري أرضـــاً سنبنيها في حي (نسمة) الجديد. ويبدو المصَّاص متفاجئاً أكثر، وتلك تفاصيل لا يعرفها أبداً، وما كان سيعرفها لولا الضرورة.. كنت أحس بأنني اقتربت من النهاية الأولى، النهاية الممتعة حتى لو كانت متعة دقائـــق معدودة، ولا يهم في تلك اللحظة أن تكون ثمة نهاية أخرى، في بيت برهاني الوعر، أو في النيع الكبير، أو تحت شفرة سيف من سيوف المـــوت المـــسلولة في كل مكان.. لا يسألني المصَّاص شيئاً، لكن عينيه تـــسألان، ولا أجيبهما، سأترك حوريتي تجيب بنفسها، حين تخرج من أحـــد تلـــك الممـــرات المظلمة، وأعيد لها حبـــي القديم، متبوعاً بخاتم

الفواريص غالي الثمن. هو عثر على حنّو صبية الخمري، في بداية توبتها وأهداها حبه وخاتمه الفضي، ويأتي الآن دوري.. وحميلة لم تكن خاطئة أبـــداً، ولكـــن تائبة أبدية، تمشي أثناء النوم، وتفرش سريرها بالحصى والرمال، وتخدش الشهوات الكبيرة بجدارة، وتجرحها.

- هل هي عندك؟

أسأل في ضراعة والأم تجيب بلا تعثر في اللسان.

- نعم عندي.. ما هي الرسالة التي تحملانها؟

هـــنا يتقدم المصّاص بثباته الغريب، يخترع فقرة قد تهلكه وتهلكنا جمـــيعاً، يـــصبح معالج السموم الضائع في ليل الموت، فجأة على لسانه الـــثابت، أميراً من أمراء الجهاد، جاء مرسلاً للتأكد من صلاح النعناعة الـــتي تحمـــل اسم حميلة أيضاً ولكن ربما لا تستخدمه هنا، وإن كانت تـــصلح حليلة للأمير مقهور المتّقي، قائد الجيش الذي سيعود قريباً بعد أن يكتمل النصر، ويشير لي بأنني تابعه.. تلك اللحظة بالذات، انتبهت علـــى ضـــوء الفوانـــيس الخافت، إلى أن المصّاص كان يرتدي عمامة خـــضراء زاهـــدة، وكان قميصه أبيض لكنه ليس أبيض خالصاً، وإنما مطعّماً بالرقع.. واتسعت عيناي دهشة.

تغيَّـــرت ملامح الأم فجأة، لا أعرف إن كانت ملامح ذعر، أم ملامـــح تبجـــيل، تغيَّـــر صوتها الذي كان تغريد عصفور، اخشوشن بشدة.. هدرت:

أعز الله الأمير وأكرمه.

ثم هرولت إلى الممر الذي خرجت منه.

لقـــد مـــرت الفقرة المهلكة بسلام كما بدا لي، وبرغم تفككها والكثير من نقاط ضعفها، لكن لا بد إن اسم مقهور المختل، هو الذي مررها من دون أن تتعثر بذلك الضعف.

كانـــت النعـــناعة في تلك اللحظة تقترب مني خارجة من الممر المظلم، بيضاء ورشيقة الخطى، ومتأنقة في ثياب زرقاء مطرزة بالأحمر، من ذلك الذي كان يباع في السوق الكبير.. يا إلهي كم صارت نحيفة، كم غيرتها أيام البؤس الطويلة منذ أن آويتها في سرداب المجد غير الآمن حـــين لمـــنا مـــا استطعنا لمه من بقايا المدينة، لتسبى غنيمة فارهة بعد ذلك.. وتشق طريقها إلى الكوابيس. هل تراها ستحتفي بـــي بعد كل تلك الشهور، و لم أعد أعزباً متأنقاً، يدير ثروات الحكومة، يسكن حي كـــاهير الراقـــي، ويمتطـــي الفرس العبَّار؟ ولا كانت تملك الثروة التي ســـأديرها ذات يوم.. هل ستضمني إلى قلبها القديم كما كانت تفعل ســـابقاً؟.. نسمي ولداً ونسمي بنتاً، ونخطط المستقبل بخيوط الذهب.. أركـــض باتجاههـــا وقلبـــــي ليس في صدري، ولكن في المسافة بيني وبيـــنها.. أمـــد يدي لاحتضانها، وأحس بالفزع والدوار.. لم تكن في الواقع خميلة جماري التي ضعت من أجلها، وأبقيت خاتمها في أحشائي كل ذلك الزمن، ولكن امرأة أخرى مختلفة تماماً، امرأة لم أرها من قبل أبداً لا في السور ولا في غير السور.. نعم حورية من حوريات الأرض بلا شك.. ولكن ليست خميلة جماري.

الفصل السابع

الشهيد

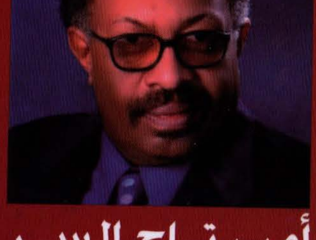
كانــت خيمة الشهداء بلا شك، تلك التي كنت ممداً فيها على بــرش ملوّن من السعف، لأن رائحة المسك كانت كثيفة، رائحة بخور الصندل كثيفة أيضاً، وعلى مسافة مني على برش آخر، ثمة جسد آخر، طويل وعريض، يملأ البرش ويفيض، يردد نشيداً مجلجلاً، ولا بد جسد الشهيد جبريل لالو..

كــان جسدي متصلباً بشدة، اليدان.. القدمان والبطن، عورتي متــصلبة وتهتز، وذهني خامل بغرابة، يحاول ترتيب المخازي منذ بدأت خــبراً غــير مؤكد في خزي العين، وحتى هذه اللحظة، ولا يستطيع.. أحــاول أن أتقلــب أو أنهــض، ولا أستطيع، أحاول أن أقاوم طعم الحمــيض الحلــو المخلوط بالعسل حين يصب في حلقي، وأحاول أن أنطــق بكلمة أو كلمتين، ولكن أخالني بلا لسان. كان المصّاص باركاً بقربــــي، يعجــن لبخات النباتات الخضراء والصفراء والتي بلا لون، يــضيف إليها البصاق، ويلصقها بجسدي كله، وجهي وصدري وبطني وإبطي وعورتي المتصلبة تحت الخرقة الممزقة.. يردد.. الحمى الفاجرة.. الفاجــرة يا سيدي.. أرى القائد عبَّادي طلسم واقفاً بجسده الفولاني العــريض، عيــناه جمرتان ولكن شبه منطفئتين، ومسبحة الصوفيين، تتجمد على أصابعه، أرى التقلاوي ديدام، مكتملاً في لوحة السيف في الخــصر والــصقر أعلــى الكتف، أرى جبّار القرنين حلقاً مكوَّراً بلا كــارور، ومشرف الغسيل برهاني، مدججاً بنجوم القائمقام وصقوره،

أسمـــع اسم حميلة البنفسجية يتردد بلا توقف، ولا أعرف إن كنت أنا الذي أردده أم أحد آخر.. ينصرف القادة من أمامي، يهزون رؤوسهم وينـــصرفون، وأرى دمـــوع المـــصَّاص واضحة على عينيه الضيقتين المنفعلـــتين.. أراه برفقة عدد من الحراس الأشداء، يهشون قطيعاً غريباً من البشر، كانوا يتكالبون على جسدي، يحاولون أن يلحسوا كل بقعة مـــن الجـــسد المتصلب، وينهزم المصَّاص، ينهزم الحراس.. يتقهقرون.. وأتمزق تحت أسنان القطيع.

توتّرات القبطي

رواية

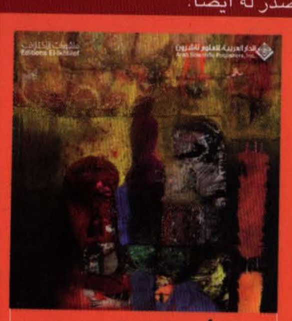


أمير تاج السر

• روائي من السودان

كانت خطواته كبيرة وممتدة، ذيل عمامته يلحس الرمال ويبصقها أمامي، ثوبه الأخضر يبدو باهتاً وفيه رقع كثيرة، وكان الجنود مبعثرين في وسط الخيام، يصقلون سيوفهم وحرابهم على صخور مدببة، جلبت من الجبال البعيدة، وزرعت في وسط الرمال، يتأكدون من صلابة دروعهم المصنوعة من الخشب والنحاس والحديد، بضربها بعضها ببعض، أو يعلّمون قلوبهم الثبات بعراك أنفسهم بالأيدي والأرجل ونطح الرؤوس، وهم يتصايحون، و يرددون أغنيات الحماس الفجة. وفي طرف بعيد من المعسكر، كانت الإبل والجياد والحمير، وقطعان الخراف والماعز، ترعى في بقايا حشيش خريفي، ثمة مدفعان رابضان على دكة عالية، وعدة براميل من البارود وسيوف وحراب مكسرة، وبنادق، لابد كانت من غنائم المدينة التي حوصرت وسقطت. والمدينة نفسها كانت تبدو كحلم بعيد، بالرغم من وجود معسكرنا في أحد أطرافها.

صدر له أيضاً:



لوحة الغلاف للفنان فيصل تاج السر – تصميم الغلاف: سامح خلف

ISBN 978-9948-446-03-3





